حامتان هزتا العالم

تأليف: فريد هاليداي

إعداد مركز الحرمين للإعلام الإسلامي
ذى الحجة ١٤٢٢ هـ

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١): صعود الأصولية لم يعقب الحرب الباردة بل هو نتيجة لا تنفصل عنها

❖ الإرهاب السياسي نتاج للحداثة نفسها

❖ تفجيرات ١١ سبتمبر قتلت اشخاصا بينهم مئات المسلمين من باكستانيين وعرب وما يقارب ٢٠٠ بواب وعامل يمني

❖ استحضر بن لادن في بياناته الإطار الزمني للصراع المحصور في ٨٠ عاما من دون أن يقول ما يعنيه على وجه التحديد: انهيار الامبراطورية العثمانية أم الاحتلال البريطاني لفلسطين.

تأليف: فريد هاليداي

الكاتب والمحلل السياسي البريطاني

تبدأ «الشرق الأوسط» اليوم في نشر حلقات من كتاب «ساعتان هزتا العالم» للاكاديمي الآيرلندي المعروف فريد هاليداي. ويتناول الكاتب في الحلقة الاولى تفجيرات ١١ سبتمبر (ايلول) ويقول عنها انه للمرة الاولى منذ ٥٠٠ سنة من التفاعل الاوروبي مع دول الجنوب، توجه الاخيرة ضربة قوية الى اقليم الدولة المهيمنة ومدنها ورموز سيادتها. كما يرى الكاتب ان صعود الجماعات الاصولية لم يعقب الحرب الباردة نفسها بل هو نتيجة لا تنفصل عنها. وفي ما يلي الحلقة الاولى.

❖ العنف السياسي ودعاوى العقل

❖ يوم الأحد ١٦ سبتمبر (ايلول)، بعد خمسة ايام على الهجمات التي تعرضت لها نيويورك وواشنطن، دعتني الخدمة العالمية لهيئة الاذاعة البريطانية (بي. بي. سي) الى المشاركة في حوار عالمي خاص عن الأحداث جرى طيلة ساعتين من خلال الهاتف. وتلقى البرنامج الذي كان بعنوان «نقاط للحديث»، ٣٠ الف مداخلة بالبريد الالكتروني حتى قبل ان يبدأ البث. وعلى امتداد الساعتين التاليتين سمعنا مما لا يقل عن ٤٧ شخصا مختلفا عن طريق الاتصالات الهاتفية والبريد الالكتروني، من قارات ومعتقدات ووجهات نظر متعددة. بدأ البرنامج بسرد قدمه شخصان كانا في مركز

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التجارة العالمي خلال الهجمات: تحدثا عن الاندفاع من اجل الفرار، عن اشخاص يتساقط بعضهم فوق بعض، عن اصدقاء تعرفا عليهم بصورة مفاجئة وفقداهم مرة اخرى في غضون دقائق، عن الرعب المنبلج. روى احدهما كيف كان امامه، بعد ٤٥ دقيقة عندما وصل الى الأرض، خيار الانعطاف نحو هذه الوجهة أو تلك، الى شارع ليبرتي أو الى الجوف الغائر بين البرجين: لم يكن هناك مَنْ يوجِّه. وبدافع الغريزة دخل شارع ليبرتي. ولو انعطف في الاتجاه الآخر، مثلَه مثل سائر الذين فعلوا ذلك، لسُحق بانهيار البرج. سمعنا من اشخاص لم يعرفوا، بعد خمسة ايام على الحادث، إن كان مفقودون من ذويهم ما زالوا على قيد الحياة: أم هولندية كان ابنها بيتر فيرفاي هناك، مراهق انجليزي كان والده يعمل على الطابق ٩٢ من البرج الثاني. كما سمعنا من عدة اشخاص آخرين في انحاء العالم. البعض، مثل افغانيين يعيشان في استراليا وكاليفورنيا، أخذوا لأول مرة يواجهون عداء. وشجب بعض الذين اتصلوا من الهند واسرائيل واماكن اخرى، تورط مسلمين في اعمال ارهابية. واتصل الكثير من المسلمين. بعضهم دان الخاطفين وبعضهم الآخر ناشد مستمعي الـ«بي. بي. سي» ان يحاولوا فهم السبب في كل هذا السخط على الغرب وأميركا وان يتعاملوا مع ما رأوا من زاوية الاسباب الأعمق لهذا الحدث ورد الفعل العالمي عليه. امرأة اميركية تعيش في مدينة رام الله قالت ان مستمعي الـ«بي. بي. سي»، رغم انها تريد ان تكون مع عائلتها في نيويورك، ينبغي ان يدركوا ان هناك انتقادات واسعة، ان هناك «مواطن سخط» على سياسة الولايات المتحدة. بعض الذين اتصلوا دعوا الى المحبة، الى شيء من الابتهال. اميركي من الذين اتصلوا تساءل بشأن الاحجام الاوروبي عن التحرك. مغترب ايراني اراد تشخيص ايران بوصفها المصدر الرئيسي للارهاب. ردود الأفعال لم تكن على اساس ديني. فان مواطنا كرواتيا شجب اميركا قائلا انها «قبضاي عالمي» وهي الآن «تلقت لطمة أدْمتها». شخص اتصل من بريشتينا في كوسوفو، قال ان هناك تأييدا مطلقا لاميركا في ما هو الآن منطقة مسلمة بالكامل تقريبا. احد الذين اتصلوا، اعرب عن اعتقاده بأن مكتب التحقيقات

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفيدرالي (اف. بي. آي) لو اراد لكان بمقدوره ان يقتاد اسامة بن لادن الى مقره في ظرف ساعتين. وهكذا دواليك.

ان احداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وعواقبها حدث عالمي بكل المعايير: التفجيرات نفسها قتلت اشخاصا من عدة بلدان، ليس أقلهم مئات المسلمين، أكانوا من المهنيين الباكستانيين والعرب في برجي مركز التجارة العالمي أو ما يصل عددهم الى ٢٠٠ بواب وعامل يمني على الأرض. وشوهدت التفجيرات، بعيون غير مصدِّقة وقلوب خائفة، في سائر انحاء العالم. الآثار الأبعد مدى آثار عالمية تطال الأمن العسكري، وأمن الافراد اليومي في بيوتهم ومواقع عملهم وسفرهم، والاقتصاد العالمي، وعلى الأخص العلاقات بين الشعوب والثقافات والأديان. وفجرت الاحداث أزمة عالمية ستتطلب، إذا كنا محظوظين، مئة عام لحلها. وهي احداث بعيدة عن كونها اول اعمال عنف يراد بها بث الرعب، على ايدي دول من كل صنف، غالبا ما تقول بنزعة سلمية مفتَرَضة. ولكنها كانت بمعنى من المعاني احداثا فريدة في الشكل والنتائج، واكتسبت زخما أكبر لوقوعها، كما هي الحال، في بداية عصر جديد، كان مستهله واعدا بالامل. فالارهاب السياسي نتاج للحداثة نفسها: لكن احداث ١١ سبتمبر احدثت شرخا كبيرا في التفاؤل بالألفية الجديدة وبتلك الحداثة. في الحوار الهاتفي الذي بثته الـ«بي. بي. سي» سألني المقدِّم روبن لاستنغ ان كنتُ اتوقع مثل هذا الحدث. اذ اني درستُ السياسة في الشرق الاوسط ونزاعاته طيلة ما يربو على ثلاثين عاما. وقمتُ بزيارة العديد من البلدان ذات العلاقة: افغانستان، ايران، العراق، الكويت، المملكة العربية السعودية، اليمن، فلسطين وغيرها. وقد كتبتُ وحاضرتُ عن الاصولية والارهاب والنزاعات الاقليمية. وفي مارس (آذار) ٢٠٠١ خضتُ جدالا على تلفزيون «الجزيرة» مع احد انصار بن لادن، هو ابو قتادة الذي دافع عن تدمير التماثيل البوذية في باميان على اساس انها كانت لا اسلامية. كما زعم بأنه ليس من حق العالم ان يحتج في هذه المناسبة لأنه لم يحتج في عام ١٩٦٩عندما أُحرق المسجد الأقصى في القدس، أو عندما دُمر مسجد ايوديا في الهند عام ١٩٩٣. ان الارهاب «من تحت» جريمة مثله مثل الارهاب «من فوق».

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ التنبؤ بالسلوك البشري صعب

❖ بحكم نشأتي في ايرلندا، الى الجنوب مباشرة من الحدود مع ايرلندا الشمالية، لدي اطلاع مديد وشديد التوجس على العنف السياسي والغايات التي يُستخدم من اجلها، أكان من جانب القوى القومية والدينية المعارضة لدول أو من جانب الدول نفسها. كنتُ في العاشرة من العمر عندما بدأت حملة التفجيرات التي نظمها الجيش الجمهوري الايرلندي عام ١٩٥٦، من بلدتي. وسمعتُ ما كان يقال عن ارتكاب «فظائع تقدمية». وأذكر جيدا القومي الذي قال لي في بلفاست عام ١٩٦٩ ان للبروتستانت حق تقرير المصير «شريطة ان يذهبوا ويمارسوه في مكان آخر». وفي عام ١٩٧٦ قُتل مدير معهد دراسات السياسة الذي عملتُ له في واشنطن اورلاندو ليتلبير، وزميل آخر هو روني موفيت، عندما كانا في طريقهما الى العمل، على ايدي جهاز الشرطة السرية التشيلية (دي آي ان أي) .(DINA) جوابي عن سؤال روبن لاستنغ كان، مع ذلك، لا، لم اكن اتوقع مثل هذا الحدث ولن ازعم بأني كنتُ اتوقعه. والأكثر من ذلك أرى أن في غالب الاحيان لا يمكن التنبؤ بالشؤون الانسانية تنبؤا صائبا وانه رغم كل المحاولات التي تُبذل لتكديس المعطيات وايجاد منهجيات دقيقة فان العمليات السياسية والاجتماعية عمليات عصية على التنبؤ بها من نواح عديدة. اذ يمكن للتحليل الاستخباري والاكاديمي أو السياسي ان يتنبأ بأحداث معينة مثل عمليات الغزو. والاخفاقات الاستخبارية الكبرى التي عرفها القرن العشرون تنتمي الى هذا الصنف: فشل ستالين في توقع الغزو الالماني لروسيا عام ١٩٤١ وفشل اسرائيل في توقع الهجوم العربي عام ١٩٧٣ وفشل العرب والغرب في توقع غزو العراق للكويت في عام ١٩٩٠ ولكن احداثا اخرى ـ الثورات، انهيار الشيوعية، سبتمبر ٢٠٠١ ـ ذات طابع مغاير وتدخل في صميم الاستعصاء على التنبؤ الذي تتسم به الاحداث السياسية ودور الارادة البشرية وما تنطوي عليه من خداع. فالتاريخ حافل دائما بالمفاجآت. والثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ والبلشفية عام ١٩١٧ كانتا من هذه الانفجارات المفاجئة. ولكن ما هو ممكن محاولة تفسير مثل هذه الاحداث وتحليلها. وهذا الكتاب هو بلا شك واحد من بين مساهمات واعمال كثيرة كهذه. وقد انجزتُه

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الى حد بعيد بالاستناد الى ابحاث وكتابات سبق لي ان نشرتها. الفصلان الاول والثاني عشر يتناولان قضيتين من القضايا المركزية ذات العلاقة بهذه الاحداث: تفسير ما حدث في ١١ سبتمبر، وتحليل المحاجَّة حول «الاسلام والغرب». الفصول الاخرى كانت نُشرت قبل سبتمبر ٢٠٠١ ولكني آمل بأن تسهم في تفسير وتحليل البعض من المسائل العديدة التي ترتبط بهذه الأزمة. وهكذا يلي الفصل الاول فصلان حول قضايا سياسية ذات علاقة مركزية بالازمة والاصولية والارهاب. وفصلان لاحقان يعالجان مسألة العداء للمسلمين: يشخصان وجود عداء سائد ضد المسلمين في العالم الحديث لكنهما يضعان موضع تساؤل التأويل الذي يقدمه بهذا الشأن كثيرون بينهم العديد من المسلمين، مصاغا في احيان كثيرة بمفردات تاريخية وثقافية. هذه الفصول عن التحامل على المسلمين تعقبها اربعة اخرى تعاين مسائل سياسية محدَّدة تثيرها الازمة الراهنة والنقاش المترتب عليها: المسألة العربية ـ الاسرائيلية وسياسة كل من الكويت وايران والمملكة العربية السعودية على التوالي. هذه الدراسات التي تتناول نزاعات شرق اوسطية بعينها لا تهدف الى اعطاء نظرة شافية وافية الى الشرق الاوسط الحديث أو الى ما أسميه، في الفصل الأول، «الازمة الكبرى في غرب آسيا». ولكنها جزء من نقد القالب النمطي الذي يكبل هذه القضايا: انها محاولة للمضي أبعد من بعض الطروحات الأكثر تبسيطا التي نجدها في الغرب والشرق الاوسط على السواء، وتبيان ما يجري داخل هذه المجتمعات. الفصول الثلاثة الأخيرة تعالج مسائل أوسع في العلاقات الدولية بالقدر نفسه من الحضور في تقويم ١١ سبتمبر. فالمرء يتدارس ويضع موضع تساؤل افتراضات الكثير من النقاش المعاصر حول الولايات المتحدة الاميركية: ليس دفاعا عن الولايات المتحدة بل محاجَّة من اجل خوض مناظرة اكثر دقة وانغمارا وأُممية مع اميركا. اذ يأتي، بعد الهراء عن «الاسلام» وعن اميركا وتكوين سياستها الخارجية، واحد من اكبر مواطن البلبلة في هذه الأزمة. والفصل المتعلق بالعولمة ينظر الى هذه العملية، الى السياق العام للازمة المعاصرة: ان العولمة لا تفسر اعمال العنف العشوائية، ناهيكم بغفرانها، لكنها سياق مسؤول عن قدر من رد الفعل ـ عداء وسخط عميمان ضد اميركا ـ على ١١ سبتمبر، مما نجده

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في مناطق عديدة من العالم. وأخيرا، في الفصل الثاني عشر، اعود الى قضية الصراع الثقافي وأضع موضع تساؤل الكثير من المحاجَّات التي تساق عن ذلك في الشرق والغرب على السواء. ان هذه المجموعة استجابة جزئية ومرحلية بالضرورة لما حدث في ١١ سبتمبر. وتكمن في اساسها ثلاثة مبادئ عريضة. اولا، ايا تكن ردود افعال الدول والمنظمات الاخرى على هذه الأزمة فان من الضروري الانطلاق مما يمثل المسؤولية الرئيسية للتحليل السياسي والاجتماعي، وهي ليست التنبؤ بل التفسير.

❖ مقاربة أممية

❖ واذا كان مثل هذا التفسير يُبقي اسئلة ليس لدينا اجابة عنها مفتوحة، واذا كان يستحث مناظراته الخاصة واجندته البحثية فان هذا أمر متوقَّع. ثانيا، ان رد الفعل على هذه الاحداث يمكن بل وينبغي ان يقوم لا على قيم ثقافية أو حضارية متمايزة، كما يُفتَرَض، وانما على مقاربة أممية: المقصود بهذا مقاربة تأخذ في الاعتبار المصالح وردود الافعال العالمية المتباينة في هذا الصدد، ولكن الأهم مقاربة تنطلق من مبادئ تشترك فيها ثقافات وشعوب مختلفة. ومن هذه المبادئ الدقة في التاريخ والتغطية الاعلامية، التزام بالقيم التي يجسدها ميثاق الامم المتحدة واتفاقياتها الرئيسية حول حقوق الانسان، والتزام مهما كان ابتدائيا بالمفردات الاخلاقية أو القانونية، بتحديد اشكال العنف المشروعة، من جانب الدول ومن جانب خصومها، وادراك بعض القيم الاخلاقية المشتركة التي ليس أقلها الالتزام بالامن الشخصي والطمأنينة. ثالثا، وقبل كل شي، ان أي رد، في الكتابة أو الفعل، يمكن بل ويجب ان يقوم على العقل. فان هذا الذي يتحداه بخفة بالغة دعاة الاختلاف الثقافي أو الرُعَناء من منتقدي التنوير والحداثة، هو ما يقتضيه أي رد فعل فكري على ١١ سبتمبر، ومعالجة الامراض التي يلفت الانتباه اليها، والتصدي على امتداد عقود وربما قرون قادمة، للذين يستخدمون العنف والخوف والديماغوجية في سبيل غاياتهم. في ما يتعلق بالعلاقات الدولية كمقاربة اكاديمية فان هذا ينطوي على الدعوى التي أؤيدها بكل قوة بان الجهل بكيفية عمل العلاقات الدولية علة مشتركة شائعة.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهنا، على ما يبدو في كثير من الأحيان، ثمة متسع لكل مخيَّلة أو نظرية من نظريات المؤامرة. وكان فرويد جادل ذات مرة بأن هدف التحليل النفسي هو اختزال الهستيريا المتناهية الى تعاسة يومية شائعة. وظيفة المحاجَّة المعلَّلة والتسلح بشكوكية ملتزمة ازاء الدعاوى الانفعالية في الشؤون الدولية هي القيام بذلك على وجه التحديد. ومن اجل هذه الغاية، وسط غموض العصر وصخبه، يُراد لهذا الكتاب ان يكون مساهمة. مثل هذه الدعوة الى العقل ترتبط في جزء منها بالتركيز على مسؤولية المثقفين. ففي كثير من الأحيان يختار مَنْ لديهم مرجعية وصوت وعلم ان لا يقاوموا النزاع بل الافادة منه وإذكاءه. نرى هذا في العالم الاسلامي، في البلقان، في ايرلندا. وتتبدى اربع فئات من المثقفين على نحو خاص في مثل هذا التأجيج: اعلاميو التلفزيون والصحافة، المؤرخون، الروائيون، وليس آخرهم رجال الدين. ففي بلد تلو آخر، خان هؤلاء إبان التسعينات رسالتهم. وحيث ينتهي الاستفزاز المتعمَّد يمكن للتغطية الاعلامية غير المسؤولة، والعناوين البارزة الكسولة ان تتولى انجاز المهمة نفسها نيابة عنه. كما ينطوي العقل، في ما يتعلق بالنزاع في الشرق الاوسط وغيره، على قدر اقل من المداراة للدعاوى والخطابية القائمة على الدين. ففي نظر المختص بدراسة العلاقات الدولية الذي مهمته معاينة الاسباب العالمية الحقيقية والدعاوى المشروعة، تُسبغ صدقية اكبر مما ينبغي، من كل الاطراف، على دعاوى الدين. ومن الشائع لكنه من المبتذل، بل من «الورع» بأسوأ معنى، ان يجري الاستطراد والافتاء عن قيمة التقليد، عن قدسية هذا وذاك، ودعوى الدين التي لا تقبل التوفيق. وتُضفى هالة على مصطلحات مثل «الحكيم» و«الجليل» و«المقدس». وكم من القساوسة والحاخامات والشيوخ، على سبيل المثال، ينخرطون في نشاط كهذا: نظرة شكوكية قائمة على المعرفة الى ما يسمى دعاوى الحق في القدس ستكون مناسبة هنا، وكذلك قدر من الاشتراط على المحاجّات القائمة على خطابية عن «الأذى» أو «الضرر» التاريخي، أو «المرارة» التاريخية. فنحن معنيون أو ينبغي ان نكون معنيين بقضايا هذا العالم، بخير الانسان، بانقاذ الحياة، بالتغذية، بالغذاء، بالبيئة، بالمساواة، بالسلام. هذه كلها، المادة التي تؤلف مؤشرات الوضع البشري والتنمية لدى

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البرنامج التنموي للامم المتحدة، غائبة عن النزاعات على ما يُفترض بأنه اماكن مقدسة، أكانت القدس أو كوسوفو أو ايوديا. وينبجس سيل مماثل من الخصوصية النزقة منذ سنوات عديدة في ايرلندا. وفي حالة القدس دعونا لا ننسى ان نزاعات نشبت عام ١٨٥٣ بين جماعتين من المسيحيين على مفاتيح كنيسة المهد في بيت لحم هي التي فجرت حرب القرم. ان العالم الخارجي والقطاع الواسع من العقلاء، دينيين وعلمانيين، من سائر الطوائف، ولدى أشتاتهم، ينبغي ان يبدوا قدرا اكبر من نفاد الصبر ازاء مثل هذه القضايا. ستتطلب الآثار العالمية لما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ سنوات عديدة قبل ان تعيش دهرها وقد تتخطى بشوط بعيد حياة الذين يقرأون هذا الكتاب. وبالاضافة الى ما يمكن تشخيصه من ردود افعال عسكرية واقتصادية واستخبارية تتعدى نطاق هذا العمل، سيكون هناك رد فعل على مستوى العقل والعاطفة، تقويم تحليلي يتواصل في المستقبل، واستنهاضا للروح الانسانية، وفي المقام الأول جذوة الأمل.

وازاء ندرة المقارنات التاريخية والسياسية فان ما يدعو الى الاطمئنان في هذا الزمان رغم ذلك هو ان نمضي أبعد، الى نصوص الدين وإن تكن مفسَّرة بتوجه علماني، والى الأدب. البعض استحضر هَرْمجدّون، المعركة الفاصلة في التقليد المسيحي، وهي ليست كذلك، والبعض استحضر الشاعر الايرلندي ييتس في «المجيء الثاني» بنذيره عن انهيار المركز: «الاشياء تتداعى. المركز لا يقوى على الصمود، محض فوضى تُطلق على العالم. الاخيار كلهم بلا ايمان والاشرار كلهم حدة متقدة». آخرون استحضروا قصيدة دبليو. ايج. اودن، ١ سبتمبر ١٩٣٩، التي تستدعي قيمة الحب السامية وسط قلق عظيم عشية الحرب: «موجات من الغضب والخوف تحوم فوق بقاع الارض المشرقة والملبَّدة». وسورة الزلزلة في القرآن التي تتحدث عن الارض عندما تُخرج اثقالها وتحدث اخبارها ويرى الناس اعمالهم «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره». ولعل الترياق ضد خطابية الشرق والغرب عن الصدام الثقافي هو الأنسب في ضوء الاصداء العالمية لهذه الاحداث: كلمات شاعر القرن الثالث عشر الرومي، وكلمات شاعر القرن السابع

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عشر الانجليزي جون دون. اذ كتب دون في عام ١٦٢٤ «ليس من انسان جزيرة قائمة بذاتها، فكل انسان قطعة من القارة، جزء من الكل وموت أي انسان ينتقص مني لأني منخرط في بني الانسان» وقد يُضاف الى ذلك مع بعض التعديل لما يخلص اليه: «لا تسألوا لمن تحترق نيويورك. انها تحترق لنا جميعا». ان معركة، عالمية في اهدافها وميدانها، نشبت قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ومجراها ليس مؤكدا بأي حال من الاحوال.

❖ ١١ سبتمبر والأزمة الكبرى في غرب آسيا

❖ الأزمة التي اثارتها أحداث ١١ سبتمبر أزمة عالمية وشاملة. وهي أزمة عالمية بمعنى أنها تُقحم بلداناً مختلفة عديدة في النزاع، على رأسها، بطبيعة الحال، الولايات المتحدة الاميركية ومناطق من العالم الإسلامي. وهي شاملة بكونها تؤثر، أكثر من أي أزمة عالمية عُرفت حتى الآن، في مستويات متعددة من الحياة، سياسية واقتصادية وثقافية ونفسية. وفي محاولة للتوصل الى فهم فكري أولي بشأن هذه العملية الهائلة، يكون ردُّ الفعل الأول عقدَ مقارنة تاريخية كبرى. وبمفردات التاريخ العالمي، يأتي ذكر سراييفو عام ١٩١٤ عندما أشعل عمل إرهابي واحد ـ هو في هذه الحالة اغتيال الأرشيدوق النمساوي فرديناند وزوجته ـ فتيل الحرب العالمية الأولى، ودشَّن معها نهاية النظام الامبراطوري في أوروبا، وعمليتي باربروسا وبيرل هاربر، في ١٩٤١، بهجوم ألمانيا على الاتحاد السوفياتي واليابان على الولايات المتحدة، ثم كوبا عام ١٩٦٢ عندما وُضعت صواريخ سوفياتية متوسطة المدى في جزيرة كوبا على إثر الثورة الكوبية عام ١٩٥٩ والمحاولات الأميركية لإسقاطها، واقتراب العالم، في المجابهة بين واشنطن وموسكو، من تبادل الضربات النووية أكثر من أي وقت مضى.

كلُ حدث من هذه الأحداث كان عالمياً من حيث السبب والنتيجة. ولكن ليس من مقارنة بين هذه المقارنات التاريخية تداني السمة المتميزة لما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بوصفه، دفعةً واحدةً، أشدَّ المظاهر إثارة للسياسة التي اعتنقها الفوضويون في «دعاية الفعل» منذ ثمانينات القرن التاسع عشر فلاحقا، وتدميرا أيقونيا على خلفية سماء صافية، وحدثا فجَّر، بضربة واحدة، سيلا دافقا من الحزن والخوف

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واللايقين. ومن السهل والمُنذِر القول، كما يقول كثيرون، إن «كل شيء تغير». فحتى أشد الأحداث كارثية، يمكن أن يُفضي الى التهويل: العالم لم يتغير، والشمس لم تظلم، والرواية أو الأمل أو السعادة لم تمت بعد اوشفيتز والغولاغ وصبرا وشاتيلا وسراييفو ورواندا. تعلَّم العالم، أو بعضه على أقل تعديل، شيئا، واستمرت أشياء، ليس أقلَّها النُظم السياسية والتواريخ والثقافات وآمال البشرية ومخاوفها. والشيء نفسه سيصح على ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لو أمكن اقتفاء آثار هذا الحدث في تاريخ العالمين العربي والإسلامي، وتاريخ التفاعل الغربي معهما ومع العالم غير الأوروبي بصفة عامة، لامتدت آثار الحادي عشر من سبتمبر بعيدا في المستقبل. ومن المؤشرات الى سعة تأثير هذه الأحداث وعمقها، أنها لا تتركز في منطقة جغرافية واحدة، أو في ناحية واحدة من نواحي الحياة، أكانت العسكرية أو الاقتصادية. فهذه الآثار يمكن ان تُشخَّص بخمسة مستويات على أقل تعديل: التدخل العسكري للولايات المتحدة وحلفائها في أفغانستان وربما في بلدان اخرى، وتغير العلاقات بين الدول على صعيد الدبلوماسية، وحل النزاعات المحلية والإقليمة أو تصعيدها، وحدوث تحول واضح، إصلاحي، إن لم يكن ثورياً، في مجال الأمن والاستخبارات والمراقبة والانضباط في بلدان متطورة، والآثار الاجتماعية والاقتصادية العالمية بعيدة المدى للأزمة التي تلت ١١ سبتمبر، والعواقب الثقافية والفلسفية والنفسية للعنف وانعدام الأمن الذي تشعر به سائر المجتمعات، والذي من المرجح أن يستمر سنوات عديدة.

لكن أحد الآثار الناجمة عن ١١ سبتمبر، هو تزايد انعدام الأمن بدرجة كبيرة في تلك البلدان التي يُشتبه في ارتباطها بالارهاب، بل انعدامه في البلدان كافة على صعيد الاقتصاد والسوق، مقترنا بانعدام الأمن على الصعيد الشخصي. ويُقال، عن صواب، إن مثل هذا الأمن لم يكن موجودا في بلدان عدة قبل ١١ سبتمبر، لكنه كان متوافراً في بلدان عديدة اخرى، وكان نعمة، شخصية وعامة، يمكن للجميع أن يصبو اليها بقدر معقول.

بالنسبة للذين هم أصلاً في أتون الحرب أو انعدام الأمن، فان ١١ سبتمبر، ربما غيَّر الأمور الى الأسوأ. أما بالنسبة إلينا، نحن الباقين جميعا، في أي مدينة أو بلد

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تفادى مثل هذا العنف حتى الآن، فإن الاطمئنان إلى هدير طائرة محلقة والإحساس بالأمن المفتَرض للحياة الحديثة، تآكل تآكلا كبيرا، لبعض الوقت على أقل تعديل.

تتكلم حكومات العالم، كما يجب، عن حرب ضد عدو ما: ولكن هذا عدو لا يشكل تهديداً استراتيجياً، ولا يمكن ان تكون له نهاية سهلة أو يمكن التنبؤ بها. وبعض الأشياء التي أعقبت ١١ سبتمبر، كانت عمليات جارية أصلاً بدرجة ما، ومنها الركود العالمي والعداء المتنامي للمهاجرين واللاجئين في البلدان المتطورة، وتأكيد الولايات المتحدة هيمنتها العسكرية. لكن ١١ سبتمبر، قَلَب ايضا بعض الاتجاهات التي كانت سائدة قبله: الأشد وضوحا بينها، هو التحول من الالتصاق باقتصاد السوق الليبرالي الجديد، إلى تدخل الدول الأعضاء في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية في اقتصاداتها، وفي مقدمتها الولايات المتحدة. فأشكال الدعم وضخ المال إلى الاسواق والحوافز الضريبية، كلها تلت الحدث، وكذلك اعتماد موقف أشد تدخلاً في الملاذات الضريبية وتبييض الأموال. وفوق ذلك كله، بالطبع، الافتراض القائل انه، كما في التخطيط لحرب نووية، كذلك في حملة كهذه، يكون التخطيط لضربة «أولى» مباغتة ناجحة، مقترنا بقدرة لا تقل مهارة في التمويه على توجيه ضربة ثانية.

❖ الرصاصة الفضية

❖ من المؤكد ان تنظيم «القاعدة» وانصاره في منطقة غرب آسيا وغيرها، كانوا النذير الذي دفع الى اتخاذ هذا المنحى. لكن هذه ليست حربا، ليست تعبئة كبرى ذات غاية استراتيجية واضحة أو قابلة للحساب، وكان من ضحايا ١١ سبتمبر، تلك المذاهب التي طُرحت، بعد عناء، في التسعينات، من أجل تبرير الحرب في قناعات السكان الذين ينظرون اليها بعين الشك في العالم المتقدم: كاسبار واينبرغر في عام ١٩٨٥ وتوني بلير في كوسوفو عام ١٩٩٩ فواينبرغر الذي كان في حينه وزير الدفاع الأميركي، وضع ستة شروط للعمل العسكري من جانب الولايات المتحدة، بعضها متوافر في هذه الحالة (تحدّي المصالح القومية الأميركية، ودعم الكونغرس) لكن

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحدها، وهو أن تكون هناك «أهداف سياسية وعسكرية محدَّدة بوضوح»، غير متوافر بكل تأكيد. وبلير في خطابه في ابريل (نيسان) ١٩٩٩ مبرِّراً التدخل في كوسوفو، عدَّد خمسة معايير، بعضها، أي ما يتعلق بالمصلحة القومية واستنفاد الخيارات الدبلوماسية، تطابق مع معايير واينبرغر. ولكن، مرة اخرى، تبدو العمليات العسكرية التي يمكن تنفيذها «بمعقولية وحصافة»، عصية على التحديد في هذه الحالة. إذ ليس هناك هدف استراتيجي واضح، وليس هناك مخرج واضح بكل تأكيد. والحق أن «الرصاصة الفضية» التي ستنهي كل شيء بمجرد اطلاقها، ليست غير موجودة فحسب، كما اكتشف المخططون الاستراتيجيون الأميركيون، بل ليست هناك حتى معايير تُنبئ بنهاية النزاع، غير الحديث عن السلام والأمان العالميين. وهنا أيضاً، من المهم تحاشي التهويل. فهذه ليست الحرب الأولى للقرن الواحد والعشرين: سكان غروزني وجوبا وبريشيفو وجافنا وكابل، عدا عن سكان سريناغار ونابلس وميديين، سيكون لديهم سبب وجيه لوضع هذا القول موضع تساؤل. والذين يسعون الى استخدام هذا الحدث، لا للسكوت على الدمار الذي وقع في الولايات المتحدة، بل لمحاكمة الاهمال السياسي والأخلاقي الذي لاقته النزاعات الأخرى، محقون في سعيهم. لكن الذين وجدوا أنفسهم مُبتلين بمثل هذه النزاعات على وجه التحديد، ربما كانوا من أكبر ضحايا هذه الأحداث. والرد على مثل هذا التناقض الأخلاقي ينبغي أن يكون، بل ويمكن أن يكون، الارتقاء بالغضب وبالاهتمام الدبلوماسي بهذه القضايا الأخرى، إلى مستوى الغضب والاهتمام اللذين جرى التعبير عنهما بعد ١١ سبتمبر، إزاء أحداث نيويورك وواشنطن. ويبقى لا من المنطقي، ولا من الأخلاقي، في المقابل، أن يُباح لإهمال الغرب النزاعات الأخرى في البلقان أو وسط افريقيا أو فلسطين، بتقليل الغضب على فظاعة ما حدث في ١١ سبتمبر، وبشاعته.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ **سياق التاريخ.. مؤشرات إلى الواقع والمستقبل**

❖ إذاً، كان ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حدثاً، ربما فريداً في شكله وتأثيره، يثير عدة قضايا أوسع ستواجهنا في السنوات القادمة. واحدى القضايا التي سيثيرها هي عن سبب قيام هذه المجموعة من الشبان، الذين غالبيتهم من الجزيرة العربية، بتخطيط هذا العمل؟ وهنا، يجوز التمييز بين الأسباب الأبعد مدى والأكثر آنية، أو مرحلية. ويدور كلام كثير على المقدمات الأبعد مدى، وبعضها يرتبط بالحملات الصليبية، وهجمات المسيحيين الغربيين على العالم الإسلامي التي بدأت في القرن الحادي عشر، وبعضها الآخر يرتبط بمفهوم «الجهاد» الإسلامي: بن لادن يقول ان الصراع محتدم منذ ثمانين عاما. ففي بيانه الذي بُثَّ في ٩ أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠١، استحضر بن لادن الإطار الزمني المحصور في ٨٠ عاما من دون ان يقول ما يعنيه على وجه التحديد: انهيار الامبراطورية العثمانية أم الاحتلال البريطاني لفلسطين. البعض من انصاره، استدعوا طرد العرب من إسبانيا في عام ١٤٩٢، لكن صورة الحملات الصليبية لا تعني الكثير لمن هم خارج العالم العربي المتوسطي (في عام ١٩٩١ شجب صدام حسين موقف جورج بوش الأب بوصفه هولاكو، الامبراطور المغولي الذي دمر بغداد عام ١٢٥٨، وليس بوصفه صليبيا). و«الجهاد» تسمية غير مناسبة بالمرة، لسبب قرآني وجيه هو أن جيوش المسلمين سعت الى إدخال الأمصار التي فتحتها في دين الإسلام، في حين أن هذه الرغبة في «الفتح»، أيا يكن ما عداها، لا مكان لها في السياق المعاصر. فالجهاد، وهو من جهد، يمكن أن يعني أي مجهود يبذله المسلمون، من القتال إلى التعبئة الاقتصادية، إلى الصلاة والاستبطان الروحي. هناك سياقان تاريخيان آخران أكثر آنية، أحدهما الكولونيالية، والآخر الحرب الباردة. فتركة الاثنين، وما تلاهما من لامساواة ترتبط بالعولمة، تمخضت في الشرق الأوسط، كما في مناطق أخرى سواه، عن سخط عام على الغرب. وكانت الكولونيالية أوجدت نظام الدولة في الشرق الأوسط بعد ١٩١٨، لكنها خلَّفت وراءها ايضاً جملة من القضايا العالقة بلا حل تسببت منذ ذلك الحين في صراعات ونوع من الاستياء إزاء مواقف الولايات المتحدة. ومن بين هذه القضايا، القضية الفلسطينية والقضية

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكردية ووضع الكويت، لكنها تشتمل ايضاً على معنى العلاقات بالعالم الخارجي ذاته. وإذ لم تعلن جهة مسؤوليتها عن الهجمات على الولايات المتحدة، فلا يمكن لأحد أن يكتنه، بصورة مؤكدة، ما لهذا التاريخ من مغزى إذا كان له مغزى اصلاً، لكنه في إطار أوسع تاريخ تتردد اصداء معانيه من نواح ثلاث: إنه صدى لأيلول الأسود، في اشارة الى هجوم العاهل الأردني الملك حسين في سبتمبر ١٩٧٠ على قوات الفصائل الفلسطينية في بلده. وهو عودة الى اليوم الذي يُفتَرض بأن تكون الجيوش العثمانية دُحرت فيه على ابواب فيينا عام ١٦٨٣ وهو التاريخ الذي قام فيه الجنرال بينوشيه عام ١٩٧٣ بانقلابه الدموي ضد حكومة الوحدة الشعبية المنتَخَبة في تشيلي، وذلك في جريمة من أكبر جرائم الحرب الباردة، ارتُكبت في حصيلتها إن لم يكن في أصلها، بتواطؤ الولايات المتحدة. وقد يشك المرء في ان يكون الحدث الأخير، الذي وقع بعيدا عن العالم الإسلامي، أو الثاني، الذي هو يوم مغمور في التاريخ العثماني، قد عنى شيئا لخاطفي الساحل الشرقي الاميركي. لكن هذه الاصداء تستدعي حقا، النظر الى الحدث في سياق أوسع للصراع بين العالم المتطور والعالم غير الأوروبي. وإذا كانت احداث ١١ سبتمبر تمثل شيئا فانها تمثل أنه، للمرة الأولى منذ خمسمئة عام من التفاعل الأوروبي و«الشمالي» مع الجنوب، يوجه فيها الجنوب ضربة قوية إلى إقليم الدولة المهيمنة ومدنها ورموز سيادتها. وأن يكون هذا نُفذ بطريقة دموية وتدميرية بحد ذاتها، وكان نذير شؤم لغالبية سكان العالم فضلا عن قصر توجهاته على رقعة واحدة فقط من العالم غير الأوروبي، فإن ذلك نفسه كان جزءاً من الجريمة.

أعقبت عصر الكولونيالية (يمتد بصورة تقريبية من ١٨٧٠ الى ١٩٤٥)، حقبة الحرب الباردة (١٩٤٥ ـ ١٩٩٠). وذهب بعض المعلقين الى أن ١١ سبتمبر أشَّر إلى النهاية الحقيقية للحرب الباردة، من حيث أنه أشَّر الى بداية صراع جديد يحل محل حقبة ما بعد ١٩٤٥، وعند آخرين فإن الصراع بين الغرب والعالم الإسلامي كان، نفسه، حرباً باردة جديدة بحلول نزاع عالمي محل آخر قديم. ومن المغري التذكير هنا بأن الاستعمال الأصلي الأول، والمنسي على الأرجح، لمصطلح «الحرب الباردة»، كان حقا يتعلق

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالصراع بين المسيحية والإسلام في إسبانيا، وذلك في كتابات القشتالي دون خوان مانويل (١٢٨٢ ـ ١٣٤٨) لكن هذين الاستحضارين للحرب الشاملة، كلاهما مضلِّل: الثاني خاطئ لأن النزاع المعاصر مع بعض الدول الإسلامية ومع القسم الأعظم من الرأي الإسلامي، ليس نزاعا عالميا بالمرة، لأسباب ليس أقلها أن الإسلام لا يتوجه بأي حال الى سكان الدول الغربية المتطورة، ويفتقر الى القدرة الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية. والأول مضلل لأن صعود الجماعات الأصولية لم يعقب الحرب الباردة نفسها، بل هو نتيجة لا تنفصل عنها.

(٢) ـ «مزبلتان » من تركة الحرب الباردة.. الأسلحة النووية والعصابات الإجرامية

❖ تركة الحرب الباردة تجسدت في «مزبلتين»: فالنظام السوفياتي ترك ترسانة من الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية ومشاكل إثنية بلا حل، والغرب خلَّف طائفة من العصابات الإجرامية من أونيتا في أنغولا والمهاجرين الكوبيين

❖ وافق الاتحاد السوفياتي عام ١٩٨٨ على الانسحاب من أفغانستان شريطة أن يوافق الغرب وباكستان على وقف تسليح «المجاهدين» لكن إدارة ريغان واصلت دعم «المجاهدين»

❖ الإقرار بصواب دعوى صدام عن ارتباط قضية فلسطين بأزمة الخليج هو الذي حمل الإدارة الجمهورية في ١٩٩١ على دفع المفاوضات العربية ـ الإسرائيلية في مدريد إلى الأمام

❖ سعر النفط يُحدَّد بعوامل تتعلق بالاقتصاد العالمي وبالمناخ وبالمضاربات وبالأوضاع السياسية وهو لا يمت بصلة تُذكر إلى فلسطين أو أفغانستان

❖ ليس هدف الحركات الأصولية والمتطرفة هدفا دينيا بمعنى إيماني أو ثقافي وإنما هو انتزاع السلطة وهو ما تشترك فيه الحركات المسلحة العلمانية: المنظمات الفلسطينية وحزب العمال الكردستاني والقوميون في آيرلندا أو...

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ المقياس الزمني لتقويم آثار ١١ سبتمبر في غرب آسيا ليس أسابيع العمل العسكري أو شهوره بل سنوات التوتر السياسي والاجتماعي التي ستعقبه

❖ الكثير من النقاش حول الولايات المتحدة يهتدي بجملة من الأحكام المسبقة الكسولة والمتزلفة في القارة الأوروبية والأكثر عفونة في الحالة البريطانية وبديماغوجية حاقدة في الكثير من العالم الثالث

❖ خاضت الولايات المتحدة في التسعينات عدة حروب في الكويت والبوسنة وكوسوفو كلها ردا على العدوان على شعب مسلم.

جاء في الحلقة الاولى من كتاب «ساعتان هزتا العالم» للأكاديمي الآيرلندي المعروف فريد هاليداي ان تفجيرات ١١ سبتمبر (ايلول) وجهت للمرة الاولى ومنذ ٥٠٠ سنة من التفاعل الاوروبي مع دول الجنوب، ضربة قوية الى مدن اميركا ورموز سيادتها. كما يرى الكاتب ان صعود الجماعات الاصولية لم يعقب الحرب الباردة نفسها بل هو نتيجة لا تنفصل عنها. وفي ما يلي الحلقة الاولى. وفي الحلقة الثانية يقول الكاتب ان الحرب الباردة تركت وراءها «مزبلتين »: فالنظام السوفياتي ترك ترسانة من الاسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية والغرب خلف طائفة من العصابات الاجرامية من اونيتا في انغولا والمهاجرين الكوبيين في الكاريبي وحتى الفصائل الافغانية. وفي ما يلي الحلقة الثانية.

الحق ان الحرب الباردة ساهمت بقسطها في هذه الأزمة، وخاصة في تدمير أفغانستان ابتداء من ١٩٧٨ فلاحقا، ولكن بطريقة ينبغي الاّ تكون مبعث شماتة. وهنا، يمكن ان يقترح المرء «نظرية مزبلتين» بشأن تركة الحرب الباردة: إذا كان النظام السوفياتي ترك ترسانة من الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية البعيدة عن الرقابة، ومشاكل إثنية بلا حل، فإن الغرب خلّف طائفة من العصابات الاجرامية، من اونيتا في انغولا، والمهاجرين الكوبيين في الكاريبي وميامي، الى «المجاهدين» في أفغانستان، السائبين الآن. وفي بلدين بصفة خاصة، كانت الميليشيا الإسلامية فوق القومية المرتبطة بن لادن، استُخدمت أولا، لا ضد الغرب وإنما ضد قوى اليسار المحلية، ضد حزب الشعب الديمقراطي في أفغانستان، والحزب الاشتراكي اليمني

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في اليمن، وكلاهما كانا قوة حاكمة مؤيدة للاتحاد السوفياتي، وأسقطهما كلاهما، اعداؤهما في اوائل التسعينات. وكان حزب الشعب الديمقراطي الافغاني استولى على السلطة في ١٩٧٨، وسقط بعد سحب الدعم السوفياتي في ١٩٩٢، فيما حكم الحزب الاشتراكي اليمني اليمن الجنوبي من ١٩٦٧ الى ١٩٩٠، وهُزم في الحرب الأهلية عام ١٩٩٤. هنا ثمة، بالطبع، مثال ساطع آخر على انكار المسؤولية الذي ساد في أعقاب ١١ سبتمبر (ايلول) ٢٠٠١، ويمكن العثور على هذا الإنكار في الشرق والغرب معاً: زعماء العالم العربي ومثقفوه، وزعماء العالم الإسلامي، على نطاق أوسع، ومثقفوه، تعرضوا للانتقاد، عن صواب، لتخلفهم عن مواجهة محاجّات الاسلاميين المجتزأة وديماغوجيتهم. وتقاعسهم هذا يمتد إلى ما قبل ١١ سبتمبر، بل انه كان عاملا مساهما فيه، كما ساهم في المحاجّات الملتَبَسة بعده. لكن ثمة مسؤولية غربية لافتة هنا ايضاً، عن تشجيع الحركات الإسلامية في حقبة الحرب الباردة، والمساعدة على إشاعة تلك الأنماط من الارهاب ذي الاستقلال الذاتي الذي تكلل بحركة طالبان وتنظيم «القاعدة». ويجري التشديد، بعد ١١ سبتمبر، على مسؤولية الغرب في التخلي عن أفغانستان. وثمة الكثير من المشروعية في ذلك، ولكن مع تصويبين: أولا، أن الغرب، أو الشرق، لم يكن هو الشرارة التي فجرت المجتمع الأفغاني في أواخر السبعينات، بل الأفغان أنفسهم. فلقد بدأ النزاع، وسينتهي، حربا أهلية أفغانية. وبقدر ما تكون هذه هي الحال، فإن قسطا من المسؤولية يجب ان يقع على عاتق الشيوعيين الأفغان، وخاصة جناح «خلق» الأكبر الذي حكم بعد نيسان (أبريل) ١٩٧٨، وعمل الكثير لاستفزاز المجتمع الأفغاني. وهذا مثال أشد تطرفا من كل ما شهدناه في إيران أو الجزائر أو مصر أو تركيا، على الدولة العلمانية التحديثية والثورة عليها. ثانيا، لم يكن تخلي الغرب عن أفغانستان في ١٩٨٩، بل شيء آخر هو الذي قام بدور حاسم في العنف اللاحق. وهذا الشيء هو القرار الذي اتخذته الولايات المتحدة عام ١٩٨٨، بعد ثماني سنوات على ظهور «المجاهدين»، بتخريب الاتفاق الدولي على سحب الاتحاد السوفياتي قواته: على امتداد ثماني سنوات، عمل الأمين العام للأمم المتحدة مع دبلوماسيين من دول أخرى،

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للتوصل الى انسحاب الاتحاد السوفياتي عن طريق المفاوضات. وفي النهاية، وافق الاتحاد السوفياتي، في جنيف عام ١٩٨٨، ولكن شريطة أن يوافق الغرب، وباكستان، على وقف تسليح «المجاهدين»: هذا ما نصت عليه الاتفاقية التي وُقِّعت في جنيف. لكن إدارة ريغان خرقت الاتفاقية منذ يوم توقيعها، وواصلت سياستها في دعم «المجاهدين». وهذا القرار الذي اتُّخذ في اطار استراتيجية الحرب الباردة العالمية التي اعتمدتها الولايات المتحدة، كان سبب الفوضى والقتال اللاحقين اللذين أديا الى انتصار الفصائل الإسلامية المسلحة في ١٩٩٢، ثم الى انتصار حركة طالبان في ١٩٩٦.

❖ الأزمة في غرب آسيا

❖ هذا ما يتعلق بالاسباب بعيدة المدى لما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أما الأسباب الظرفية، فيمكن العثور عليها في نشوء ما يمكن ان يُسمى أزمة متكاملة جديدة في غرب آسيا. ومصطلح «غرب آسيا» الناقص بالضرورة، يُستخدم للإشارة الى منطقة، بالاضافة الى بلدان العالم العربي وايران، تغطي أفغانستان وباكستان ايضا. وفي بلدان متعددة، أُصيبت الدولة بالضعف إن لم يكن الانهيار، إبان السبعينات والثمانينات في لبنان، وفي عهد أحدث في أفغانستان واليمن. وفي هذه البلدان، حيث غابت سيطرة الحكومة عن مناطق واسعة، أو حيث تسعى الحكومة الى احتضان جماعات مسلحة مستقلة مثل تنظيم «القاعدة»، ازدهرت ثقافة عنف، وديماغوجية دينية. لهذه الأزمة ثلاث سمات عامة: السمة الأولى هي النمط الجديد من الصلات بين نزاعات كانت حتى الآن منفصلة. والثانية أزمة الدولة في هذه المنطقة. السمة الثالثة هي انبثاق اسلاموية فوق قومية وأصولية جديدة. ويتعلق جزء كبير من الارتباك والتشوش، بالعلاقة بين مراكز النزاع المختلفة. إذ من الشائع أن يجري الحديث، باللغة الغربية، عن مشكلة الشرق الأوسط، أو أزمته، بما يعني النزاع العربي ـ الاسرائيلي. وينعكس هذا في بعض الخطابية الشرق اوسطية. ذلك ان قطاعا من الرأي العام العربي، ينسب دورا بالغ الأثر، إن لم يكن حاسما، في تاريخ المنطقة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحديث، الى قيام دولة اسرائيل. واسرائيل، من جانبها، تنظر الى سياسة الدول الأخرى، وخاصة ايران في السياق الراهن، بمفردات النزاع العربي ـ الاسرائيلي وحده. وليس من دارس لتاريخ المنطقة، يستطيع ان يشك في وجود علاقة ما منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، بين نزاعاتها وحركاتها المختلفة: تاريخ القومية العربية لا يمكن ان يُكتب من دون القضية الفلسطينية. والاستراتيجية الأميركية في المنطقة، بصفة عامة، لا يمكن أن تُقوَّم من دون أخذ علاقاتها باسرائيل في الاعتبار، كما كانت فرنسا حليفة اسرائيل الأوثق حتى الستينات. ونرى الآن علاقة أخرى كهذه، في الغضب العربي المتعاظم على الولايات المتحدة بسبب فلسطين، مقترنا بتعاطف متنام مع العراق. وبهذا المعنى كان صدّام محقا، وهو محق، عندما يتحدث عن «الارتباط» بين منطقتي النزاع، فلسطين والخليج. والحق، أن الاقرار بصواب دعوى صدام، هو الذي حمل الإدارة الجمهورية في ١٩٩١، ووزير خارجيتها جيمس بيكر بصفة خاصة، على دفع المفاوضات العربية الاسرائيلية في مدريد عام ١٩٩١، إلى الأمام. ولكن ينبغي عدم المضي بعيدا في دعوى الارتباط هذه. فصدام يستخدمها لأسباب محسوبة من أجل أن يصوّر نفسه مدافعا عن القضية الفلسطينية، وهو ما لم يَكُنه ذات يوم، ومن أجل أن يصرف الانتباه عن انتهاكاته الصارخة لحقوق الانسان في الداخل، وأعماله العدوانية ضد جيرانه. إذ ان الشرق الأوسط يتألف مما يربو على ٢٤ دولة ذات مشاكل وقدرات مختلفة للغاية، ولا يمكن اختزاله الى نزاع واحد، أياً تكن الارتباطات بينها. ولم تكن اسرائيل قامت بدور يُذكر في الحرب الايرانية ـ العراقية في الفترة من ١٩٨٠ الى ١٩٨٨، أو في احتلال العراق للكويت. ولحرمان ستة ملايين فلسطيني من حقوقهم، أسباب مختلفة جداً عن حرمان ٣٠ مليون كردي، أو نحو ذلك، من حقوقهم. والنزاع في لبنان الذي انفجر في ١٩٧٥، برغم كل تأجيج الاسرائيليين والسوريين والفلسطينيين له، كانت جذور اسبابه تكمن في تغير العلاقات بين الطوائف اللبنانية نفسها: في طور لاحق منه، جاء صعود قوة حزب الله الشيعية، مثلا، كنتاج للتوازنات السكانية والاجتماعية المتغيرة داخل لبنان، وتطلّع الشيعة الى قَدر أكبر من الاعتراف بهم في هذا البلد. ومن الثوابت الأخرى للسياسة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الشرق الأوسط والاهتمامات الخارجية بها، أن سعر النفط يُحدَّد بعوامل متعددة، منها ما يتعلق بالاقتصاد العالمي، وبعضها ما يرتبط بالمناخ، وبعضها بالمضاربات، وبعضها الآخر سياسي. وهو لا يمت بصلة تُذكر الى فلسطين أو أفغانستان. إذ لا بد من ادراك الارتباطات القائمة، ولكن من الأفضل تفادي الاختزالات التبسيطية لنزاع بربطه بآخر، اياً يكن ما يقوله لنا الأصدقاء والفرقاء في المنطقة. ولا يمكن للعرب أن يلوموا اسرائيل على كل شيء، كما ينبغي ألا يحاول الاسرائيليون تحليل سياسة إيران الدفاعية من خلال مصالحهم الأمنية حصرا. لكن قيامهم بذلك جزء من واقع المنطقة. ويزداد هذا الربط الخطابي تعقيدا بسبب شيء جديد ومركزي في علاقته بما حدث في ١١ سبتمبر ونتائجه، وهو الطريقة التي تَوثَّق بها في السنوات الأخيرة ترابطُ النزاعات المتمايزة تاريخياً في أفغانستان والعراق وفلسطين. فالمتطرفون في كل منها، القومي العلماني منهم (صدام) والإسلاموي (اسامة بن لادن)، ينظرون الى سبب المقاومة ضد الغرب وحلفائه الإقليميين، على أنه سبب واحد. والأهم أنهم يرون أيضاً، فرصة في ربط هذه الأزمات في ما بينها، لحشد التأييد من أجل تحقيق هدفهم الرئيسي في بسط سيطرتهم على بلدانهم نفسها. وقبل عقدين أو ثلاثة عقود، كانت الارتباطات أضعف بكثير، حتى بين فلسطين والخليج. الآن، يرتبط هذان المركزان في ما بينهما، مع امتدادات الى البوسنة باتجاه الشمال الغربي، وأفغانستان وكشمير باتجاه الشرق والجنوب. وهذه هي الجغرافيا الخطابية المعسكَرة، والسياسة الجديدة لأزمة غرب آسيا.

❖ الدولة: الحاضر الغائب

❖ لكن هذه الأزمة الغرب آسيوية، لم تنشأ في سياق صراع داخل دول منطقة غرب آسيا، وبينها وبين الغرب فحسب، بل في سياق أزمة الدولة نفسها ايضاً. والحق، أنه من ثلاث نواح مهمة، فإن المؤسسة التي كانت في قلب هذه الأزمة وستبقى في قلبها، هي الدولة. فبادئ ذي بدء، ليس هدف الحركات الأصولية والمتطرفة التي اجتاحت غرب آسيا في السنوات الأخيرة، هدفا دينيا، بمعنى ايماني، أو ثقافيا،

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بمعنى قيمي، وإنما هو هدف سياسي: إنه انتزاع السلطة من الذين يسيطرون على الدولة، والاحتفاظ بها بعد انتزاعها. وهذا هدف تشترك فيه مع الحركات المسلحة العلمانية العاملة في الشرق الأوسط ومناطق اخرى: هدف منظمة التحرير الفلسطينية، وحزب العمال الكردستاني، والمسلحين القوميين في ايرلندا أو إسبانيا، هو الاستيلاء على السلطة. ويجري تناول هذا الارتباط بين الأصولية والدولة باستفاضة أكبر في فصل لاحق. فالهدف الرئيسي لما حدث في ١١ سبتمبر، ليس قوة الولايات المتحدة، أو عالماً «متحضراً» أو «ديمقراطياً» جرى تحديده بهاتين الصفتين، بخفة نوعا ما، بل إنه دول الشرق الأوسط نفسها: أسامة بن لادن، بمُثُله الاجتماعية والسياسية النكوصية المعادية للمرأة خاصة، وللمسلمين الشيعة، يشكل تهديدا لدول المنطقة في المقام الأول. ويكفي القول إن هذا الهدف، السياسي الواضح، هو الذي يحدد ما يفعله الأصوليون، بمن فيهم تنظيم «القاعدة» وغيره. وهذا هو منطق ١١ سبتمبر ودالّته الاستراتيجية. وإدانة بن لادن في بيانه في ٧ أكتوبر (تشرين الأول)، للأنظمة «المنافقة» تنطق بذلك. وتسمية «المنافق» تسمية قرآنية، يستخدمها الإسلامويون للإشارة الى الذين يتظاهرون بدعم القضية القومية، لكنهم لا يدعمونها. ثانياً، إن صعود الأصولية يرتبط ارتباطا وثيقا بطابع الدول. ففي بعض البلدان، اتخذت الأصولية شكل ثورة على الدولة: في إيران والجزائر ومصر وتركيا. وهنا واجهت دول تحديثية قوية نسبيا، تحدي حركات معارضة، اجتماعية وسياسية. وفي حالة واحدة، إيران، تكلل التحدي بالنجاح، ولم يكن النجاح حليفها في حالات اخرى. لكن نمطاً آخر اتُّبع في بعض البلدان الأخرى، كانت الدولة فيها أضعف بكثير. وهنا تكمن احدى الخصائص المميزة لتنظيم القاعدة: نشأ التنظيم واستمر في بلدان ذات حكومات ضعيفة جدا. ومما له مغزاه، أن الكولونيالية لم تصل الى بعض بلدان المنطقة. وفي هذه البلدان تحديدا، لم تقم دولة حديثة فاعلة ذات يوم. أفغانستان والشطر الشمالي الأكبر من اليمن مثالان على ذلك. وهنا، فان الثورة على الدولة التحديثية، بل غياب الدولة التاريخي، لا الدولة نفسها، هو الذي وفر السياق لحروب حديثة، ولصعود جماعات مسلحة فوق قومية. واستطاع الأصوليون، بتسليح وتمويل من

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دول اخرى، أن يوطّدوا وجودهم في هذه البلدان. ومما يتسم بأهمية بالغة أن يقيم الأصوليون تحالفات مع الدولة الضعيفة في المركز. فهذه الأخيرة لم تكن قادرة على السيطرة على الريف أو على الأصوليين، لكنها استخدمتهم في صراعها مع قوى منافسة اخرى، وخاصة ضد اليسار. وفي أفغانستان، استخدمت حركة طالبان تنظيم «القاعدة» ضد «تحالف الشمال»، مثلما كان الأصوليون استُخدموا من قبل ضد الشيوعيين في الحكم. وفي اليمن، استخدم الرئيس علي عبد الله صالح الميليشيا الإسلامية ضد الحزب الاشتراكي اليمني في نزاعات ١٩٩٠ ـ ١٩٩٤ وهذه العناصر نفسها، المرتبطة بالنخبة الحاكمة من خلال الولاء والمصاهرة، هي التي هاجمت، في ما بعد، السياح الأجانب، وفجرت المدمرة الاميركية يو.أس.أس. كول في ميناء عدن، في أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٠. لكن للدولة دوراً مركزياً في بُعد آخر، وبُعد شديد الخلافية، هو تنظيم الجماعات الإرهابية نفسها. إذ من السهل، بل من السهل جداً، الادعاء بيقين في مواجهة اية جماعة إرهابية، أنها تعمل لحساب قوة خارجية: قد لا يكون هذا سوى طريقة للتهرب من بحث الأسباب التي أدت اصلا الى اندلاع هذا العنف. والجماعات الإرهابية، من جهتها، تسعى الى التستر على حجم الدعم الذي تتلقاه فعلاً من الدول، تمويلا وتسليحا وتحريكا. لذا يجب ان يبقى السؤال مفتوحا في غياب الدليل. لكن سجل الإرهاب في الشرق الأوسط خلال السنوات الأخيرة، يشير الى أن حجم دور الدولة في أعمال إرهابية ارتكبتها جماعات مستقلة أو سرية في الظاهر، هو في حالات عديدة أكبر مما يبدو من الوهلة الأولى: ليس كل الجماعات الإرهابية، ولكن العديد منها، يتلقى دعما من دول، حتى وإن كانت هذه الجماعات نشأت بصورة مستقلة. وهكذا، سعى خصوم النظام في إيران والعراق الى الحصول على دعم دول أخرى، في حين ان حزب العمال الكردستاني نال دعما بدرجات متفاوتة من سورية واليونان، والفصائل العاملة في لبنان طلبت دعم إسرائيل وإيران وتركيا، حسب توجه كل منها. وتنظيم «القاعدة» بدأ حياته حليفا لمقاتلي المعارضة في أفغانستان، لكنه مثله مثل الجماعات أعلاه، تلقى الدعم من دولتين في المنطقة هما باكستان والمملكة العربية السعودية. بل يبدو أن طالبان، إذ

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانوا أنفسهم يفتقرون إلى ما يكفي من الدعم المالي والعسكري، وجدوا في تنظيم «القاعدة» حليفا بالغ الأهمية لبقائهم في السلطة. وبرغم كل ما يوحي في الظاهر بالاستقلال عن الدول فإن المسؤولين عن احداث ١١ سبتمبر وما سبقها، كانوا على ارتباط وثيق بدولة من هذه الدول، بل مساهمين في ترسيخها. ستبقى للدول أهميتها المركزية في هذا النزاع. فحصيلة النزاع الناجم عن ١١ سبتمبر، ستحددها دول وقدرتها على البقاء وإدامة الصراع. وليس هناك شك في قدرة الدول الغربية على الصمود، ايا يكن الثمن في هذا النزاع. ومهما كان الثمن أو طال الزمن، فإن هذا ما تعتزمه الولايات المتحدة وحلفاؤها، وهذه هي قدرتهم. ولا يمكن الحديث، بالقدر نفسه من الثقة، عن حصيلة النزاع في عدد من الدول العربية والإسلامية المنخرطة في الأزمة: فبعض الدول يمكن ان تتأثر كلها بغليان في الداخل، إن لم يكن على الفور فعلى امتداد أشهر أو سنوات. لقد كان ١١ سبتمبر زلزالا أضعف بنية دول عدة: قد لا تسقط في الحال أو قد لا تسقط بالمرة، لكن انكشافها للسقوط سيكون أكبر. وتطرح نفسها هنا، مقارنة بالحرب العربية ـ الاسرائيلية الأولى عام ١٩٤٨: فالعالم العربي خسر تلك الحرب، وأنظمته الحاكمة ظلت قائمة. لكن بمرور الوقت، طالت هزات ١٩٤٨ دولا عربية، أسفر إفلاس الأنظمة المدانة فيها وصعود قومية عربية أشد نضالية، عن الطعن بحكامها. تبدَّى ذلك بأكثر الأشكال إثارة في سورية عام ١٩٤٩، ومصر عام ١٩٥٢، والعراق عام ١٩٥٨ والمقياس الزمني لتقويم آثار ١١ سبتمبر في غرب آسيا، ليس اسابيع العمل العسكري، أو شهوره، بل سنوات التوتر السياسي والاجتماعي التي ستعقبه.

❖ الجماعات الإسلامية فوق القومية.. صِدام ثقافي

❖ وهكذا فان قضايا ثلاثا ـ الأزمة الغرب آسيوية الكبرى، والنزاعات التي ستواجهها دول في الداخل، وانبثاق إسلاموية فوق قومية أقسى ـ تكمن في صميم هذا الوضع العالمي الجديد بتداخلاته المتشابكة. ومن الصعب بما فيه الكفاية، استجلاء الطريقة التي تفاعلت وستتفاعل بها هذه القوى. ولكن بالاضافة الى أزمة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التاريخ المذكور أعلاه، فإن مساحة النقاش تزداد ضيقا باستحضارات الثقافة والحديث عن «صدام حضارات»، وعن تعارض القيم الغربية والقيم الإسلامية. وهذه النظرة الى العالم، ليست وليدة عداء الغرب للإسلام، أو انها وصمة ما الصقها «الغرب» بالمسلمين فحسب، إذ هناك البعض، بل هناك الكثيرون، في العالم الإسلامي وبين المسلمين في أوروبا الغربية، ممن يعتنقون هذه الديماغوجية، وقد سارعوا الى الاستجابة بهذه الروح ذاتها، لأحداث ذلك الثلاثاء. وهم يرحبون بتحليلات صامويل هنتنغتون التبسيطية، كما يرحب بها الكثير من القوميين في الغرب. لكن الجدال لن يُحسَم ، وهذه الأحداث لن تُفسَّر، باستحضار صدامات ثقافية أو بتقليب النصوص المقدسة بحثا عن مقتبسات تؤيد العنف والمقاومة، أو تُعارضهما. فثمة في كل الأديان، إذا اختار الناس أن ينبشوا فيها، نصوص وسوابق تسبغ شرعية على العنف والإرهاب والتضحية بالنفس من جانب الأفراد: في اليهودية والمسيحية، سِفر «التثنية» وسِفر «القضاة»، وفي القرآن «سورة الأنفال». ولهذا السبب، لا يكفي مشروع السنوات الأخيرة ذو النية الحسنة الذي نال دعم كثيرين في الغرب والعالم الإسلامي، لإجراء «حوار» بين الأديان والحضارات. فالتعايش أفضل من الحرب، ولكن ما أن يقر المرء بوجود فارق أساسي وبمشروعية الثقافات وضمنا مشروعية اولئك الشيوخ عادة الذين يتولون تفسيرها، حتى يقع في شبكة عنكبوت لا فكاك منها. إن الإطار لمناقشة هذه القضايا، قضايا النزاع بين الدول والاختلافات داخلها، ليس ثقافيا أو حضاريا على الاطلاق، بل إطار عالمي يقوم على القانون الدولي ومبادئ الأمم المتحدة. وهذه لا تميز بين شعوب «غربية» وأخرى، وهي تتحاشى ذلك النوع من اللغة الاستبعادية التي لجأ اليها العديد من السياسيين ورجال الدين في اعقاب ١١ سبتمبر. كما انه يسلط الضوء على الطرق التي يلجأ اليها افراد من سائر الثقافات، لارتكاب فظائع وتبريرها، حين يشاؤون. ولهذا السبب استخدم الإرهاب في الأزمنة الحديثة، من بين مَنْ استخدموه، كاثوليك فينيون (ايرلنديون) وقَتَلة هندوس ومسلحون صهاينة ومتعصبون بوذيون ومتطرفون إسلامويون. وهم لم يكونوا يسترشدون بنصوص، بل اتجهوا باحثين عما يريدون في النصوص. ويمكن العثور

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على استدعاء الصدام الثقافي استدعاء خطابياً ملتَبَسا لدى الجانبين. إذ يتعين أن يكون هناك طرفان لكي يحدث «صدام حضارات» بمفردات هنتنغتون. وهناك على الجانبين، مَنْ يستغلون النزاع الحالي للدفع نحو مثل هذا الصدام. ونظرية هنتنغتون تقوم على فكرتين ليستا تافهتين، لكنهما لا تتعلقان بالصدام الثقافي، هما حتمية النزاعات بين الدول، وضرورة أن تقوم الولايات المتحدة بترويج قيمها الثقافية الخاصة. ولكنه يُغفل السبب الأهم لأحداث الأيام الماضية، الذي سيحدد في العالم الإسلامي نتائج ما سيأتي لاحقاً، وهو الصدام العنيف الواسع والمديد «داخل» العالم الإسلامي نفسه، بين مَنْ يريدون الإصلاح والعلمنة وأولئك المهدَّدة سلطتهم أو يريدون السيطرة عليها باسم الأصولية. إذ ليس للإسلام، كما يزعم هنتنغتون، «حدود دموية»: حدود الهندوسية والصهيونية والقومية العلمانية ليست أفضل. والأحرى أن حرباً تستعر داخل المجتمعات الإسلامية منذ عقود، واكتسبت في ١١ سبتمبر تعبيرا فوق قومي دراماتيكيا. وهذه الحرب الداخلية تكمن في أساس النزاعات المحتدمة خلال هذه العقود الماضية في باكستان وإيران ومصر وتركيا، وبأكثر الأشكال عنفا في أفغانستان. وكما رأينا فإن للأصولية الدينية في المجتمعات كافة ـ الحراديم في إسرائيل، والزاعقين من دعاة العودة الى الكتاب المقدس في أميركا، والأصوليين الإسلاميين في الشرق الأوسط، والشوفينيين الهندوس في الهند ـ هدفا واحدا هو ليس هداية الآخرين الى معتقداتهم بل الاستيلاء على السلطة، السياسية والاجتماعية، داخل مجتمعاتهم نفسها. وعدوهم الألد هو العلمانية: هذا هو الصدام الداخلي الذي قاد الى مركز التجارة العالمي.

❖ العنف والإرهاب

❖ هذه الأحداث تسلط الضوء على مسائل تتعلق بالتاريخ والسببية والدولة والثقافة. كما انها تلفت الانتباه إلى قضية العنف وظاهرته ذات الصلة: «الإرهاب». ويبدو أن خطابين سائدين وخطرين يعملان هنا. فمن جهة، يرى مرتكبو ١١ سبتمبر وغيره من أعمال العنف المباغت ضد مدنيين، أن العنف بشكله المتطرف، بل أي

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عنف، يكون مبررا من أجل بلوغ هدف سياسي. فهذا يحقق غايتين سياسيتين من غايات الإرهاب: تحطيم معنويات العدو وتعبئة الأنصار. ومن الجهة الأخرى، ترى دول عدة في العالم، في الشرق الأوسط ومناطق أخرى، مثل الروس في الشيشان، أن العنف المفرط يكون مبرراً في الدفاع عن دولتهم. وثمة ظلال من مثل هذا الخطاب في تصريحات صدرت عن الولايات المتحدة بعد ١١ سبتمبر. ينطوي هذا على تحديد وظيفي. وهناك قضايا تتعلق بالتحديد الاعتباطي: إدانة جورج بوش لما حدث في ١١ سبتمبر تتيح لمجموعات أخرى الجدال بأنه وأسلافه دعموا آخرين («المجاهدين» الأفغان والكونترا في نيكاراغوا، وفي فترة أقرب المتمردين في جنوب السودان) اقترفوا بكل تأكيد أعمالا إرهابية، ويعدُّهم آخرون كثيرون أيضاً إرهابيين. وهذه المقارنة الوظيفية لا تقتصر على الدول. فاليسار من جهته، أبدى لزمن طويل لامبالاة مفرطة بهذه القضية. فهذه، برأيه، قواعد مشروعة لاستخدام القوة من جانب خصوم الدول والدول نفسها على السواء. وتندرج في هذا الإطار ممارسة الإرهاب ضد الامبريالية مع التقليل من جرائم قوى ثورية أو عقلانية ونفيها.

من المؤكد أن سائر الثقافات وجميع الدول، تقر بمبدأ المقاومة العادلة للظلم. وفيديل كاسترو في دفاعه أمام المحكمة بعد الهجوم على ثكنة مونكادا في كوبا عام ١٩٥٣، قدم قائمة طويلة من رجال اللاهوت والمفكرين الغربيين الذين برروا المقاومة. والثقافات كلها تجيز بالقدر نفسه دفاع الدول عن نفسها، كما تقره المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة. لكن الدول هي أكبر مرتكبي العنف والإرهاب. وينبغي ألا يُنسى أن كلمة «إرهاب» بدأت حياتها، ليس كما جرى استخدامها اللاحق في وصف تكتيكات الثوار، بل ذراعا لسياسة الدولة، في الثورتين الفرنسية والروسية. وتروتسكي الذي كانت لديه افكار معقولة عن خطل الإرهاب «من تحت»، سمعه البلاشفة يبرر إرهاب الدولة الثورية. لكن هناك مبادئ عريضة، بعضها ثابت في نقاشات تاريخية وبعضها الآخر ينص عليه القانون الدولي، ومنه اتفاقية جنيف وبروتوكولاتها، توفر اساسا لمناقشة هذه القضية. وتحدد هذه المبادئ العنف الذي يمكن للمعارضين والدول أن يمارسوه بصورة مشروعة. وهنا، ليس ثمة حاجز يفصل

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بين الشرائع الغربية أو الدولية وشرائع العالم الإسلامي، أياً يكن ما يقوله الديماغوجيون في الشرق والغرب معاً. فالأديان كلها تتضمن نصوصا يمكن الاستشهاد بها لتبرير الإرهاب والأعمال الهمجية في الحرب. لكن هناك مبادئ ضبط وتقييد ايضاً لمن يريد استخدامها أو العثور عليها. وفي التراث الإسلامي، هناك مفهوم «الحرب المشروعة» أو «الحرب العادلة»، كما مفهوم «الحرب العادلة» في المسيحية. وفي اللغة العربية الحديثة، هناك اختلاف واضح بين النضال المشروع: «الجهاد»، وغير المشروع، المدفوع بالغزو والعدوان. والقرآن (سورة التوبة: ١٣ وسورة الحج: ٤٠، على سبيل المثال) يتضمن شرعَنة للحرب لكنه يحذر أيضاً من استخدام القوة بصورة غير مشروعة: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» وعلى الغرار نفسه مع المصادر الإسلامية من القرآن والحديث، هناك نقاش واسع حول الحرب ومعاملة النساء والأطفال والأسرى ودرجة القوة المشروعة.

❖ السياسة الأميركية.. سجل يثير الغضب

❖ سبق أن ورد ذكر الصدام الثقافي المفتَرض بين العالمين الإسلامي والغربي. ولكن هناك قضية ثقافية أخرى حاضرة، وإن كانت مضمَرة، لم تنضج كليا حتى الآن في النقاشات حول ١١ سبتمبر، وهي: الموقف لا من الشرق، أي من العالم الإسلامي، بل من الغرب، أي من الولايات المتحدة الأميركية. وهذه القضية، كما قضية العلاقات مع العالم الإسلامي، هي التي ستنهض عليها تطورات ما بعد ١١ سبتمبر، وهي التي كانت في صلب المناظرة حول كل أزمة عالمية كبيرة في السنوات الأخيرة، من الكويت الى كوسوفو. ويمكن الافتراض أن قضية الموقف من الولايات المتحدة، كانت ماثلة في أذهان الذين هاجموا نيويورك وواشنطن في ١١ سبتمبر: فمن الواضح أنهم كانوا يكرهون الدولة والبلد وثقافته وقوانينه، وفي المقام الأول شعبه، وسائر الذين اختاروا العمل فيه أو قاموا بزيارته سياحا. لكن الأهم في قضية الموقف من أميركا في سبب الهجوم، هو صلة هذا الموقف برد الفعل: بالمعنى الدولي الواسع كان من ابرز نتائج ١١ سبتمبر، أن اميركا إما كانت تستحق مثل

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الهجوم أو انها استنزلته عليها بطريقة ما. إن الولايات المتحدة الأميركية بلد له سجل، في الداخل والخارج، يستدعي النقد ويثير الغضب، وفي بعض الحالات عن صواب: فيتنام، نيكاراغوا، تجاهل حقوق الفلسطينيين، كوبا، اللامسؤولية الشنيعة لقوانينها بشأن حيازة السلاح وإعلامها، والدور المخاتل الذي يلعبه الدين والمال في الحياة العامة، على سبيل المثال لا الحصر. لكن مثل هذا النقد يتعين أن يقترن، وهو كثيرا ما لا يقترن، بإدراك ما يعنيه هذا البلد وما سيعنيه للعالم بصفة عامة. والكثير من النقاش حول الولايات المتحدة، في اوروبا الغربية كما في مناطق اخرى، يهتدي بجملة من الأحكام المسبقة الكسولة، المتزلفة في القارة الأوروبية، والأكثر عفونة (بأنواعها اليمينية واليسارية) في الحالة البريطانية، وبديماغوجية حاقدة بقدر غير متناسب في الكثير من العالم الثالث. ونادرا ما يتسم هذا العداء بتقويم ذلك المجتمع تقويما قائماً على المعرفة أو الدراسة الدقيقة. فالولايات المتحدة، على علاتها، هي حتى الآن أكثر البلدان ازدهاراً في تاريخ البشرية، البلد الذي يود كثيرون، ربما نصف العالم، الهجرة اليه والعمل فيه، والذي يتفوق بحيويته في مجالات عدة، من الموسيقى إلى الطب، على سائر البلدان الأخرى. فلا بد أن يكون هذه البلد يفعل شيئا ما على الوجه الصحيح. وهو بلد له في قضايا متعددة، بينها قضايا الجنس والهجرة، سجل يُشعر القسم الأعظم من أوروبا الغربية بالخزي والقصور إزاءه. ويجري الكثير من الحديث، لا سيما في الأيام الأخيرة، عن النزعة العسكرية الأميركية والعدوانية الأميركية. وهذه خرافة بصرف النظر عن خطاب ثقافة الكاوبوي. إذ ليس لبلد كبير سجل حافل بالحذر والضبط كسجل الولايات المتحدة: تعين جرُّها جرا إلى الحرب العالمية في عام ١٩٤١، كما جُرَّت الى البوسنة في ١٩٩٥ وخاضت الولايات المتحدة هذه الحروب في التسعينات ـ الكويت عام ١٩٩١ والبوسنة عام ١٩٩٥ وكوسوفو عام ١٩٩٩ ـ كلها ردا على العدوان على شعب مسلم. والغريب، أن استهجان العدوانية الأميركية يأتي من بلدان اخرى لها سجلها غير المشرّف في الأزمنة الحديثة: بريطانيا وفرنسا اللتان داستا على نصف آسيا وافريقيا، وروسيا والصين، عدا عن المانيا وإيطاليا واليابان.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه الإدانة لأميركا بعيدة عن أي تقويم ملموس قائم على معرفة سياسة الولايات المتحدة منذ الحرب الباردة. ففي عهد إدارة كلينتون، كان سجل الولايات المتحدة بعيدا عن الكمال، لكنها قامت بدور ايجابي في جملة قضايا، من السياسة الاقتصادية الدولية وسياسة حقوق الانسان الى بؤر نزاع محدَّدة. أبعد من هذا، أن الفكرة القائلة ان المسؤولية عن كل شرور العالم يمكن أن تُلقى على عاتق الولايات المتحدة أو دولتها أو مواطنيها، فكرة تبسيطية بحق، بل أن من أكبر المآخذ على الولايات المتحدة، أنها فعلت القليل جداً وليس العكس. وعند هذه النقطة، كثيرا ما تنتقل المحاجّة الى شيء فضفاض أكثر، هو «العولمة». ولكن هذا بحد ذاته لا يبرر ما حدث في ١١ سبتمبر أو يشرعنه. فالعولمة عملية معقدة، ومن بعض النواحي عملية جارية منذ عقود إن لم يكن قرونا، ولا يمكن عزوها الى السياسات حديثة العهد لأي دولة من الدول. والغضب على العولمة إنما ينضاف الى خبرة الكولونيالية والحرب الباردة، علما بأنه يكاد يكون غنيا عن القول، ان افعال المتورطين في الهجوم على نيويورك وما يرتبط بها من اقوال، لا تمت بصلة تُذكر الى قضية الفقراء في العالم.

(٣) ـ الشرق الأقصى وليس الأوسط الذي يشكل تهديدا للغرب

❖ إذا كانت الأصولية في منشئها نتاج الأديان التوحيدية إلى حد بعيد فإنها ليست حكرا على هذه الأديان.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ رغم كل ما يجري من استدعاء للماضي يمكن النظر إلى لغة الأصوليات على أنها شكل آيديولوجي معاصر يستخدم موضوعات تقليدية لأغراض معاصرة.

❖ لم يكن اعتباطا أن الكثير من الكتاب الأميركيين لاذوا وهم يفكرون في المواجهة النووية خلال الحرب الباردة بفكرة هَرْمَجدَوّن المزكاة دينيا.

❖ كنتُ في إيران قبل الثورة وبعدها ووقفتُ في شوارع طهران ورأيتُ عشرات الألوف يمرون هاتفين «مرك بر ليبراليزم» (الموت لليبرالية): كنتُ أنا المقصود بهتافهم.

❖ من بين ما يسجل على الثورة الإيرانية أنها رفضت التطور المادي.. قال الخميني ذات مرة «إن الاقتصاد شغل الحمير».

❖ في المجتمعات الغربية ما زال للأصولية أقوى مواقعها في الولايات المتحدة حيث يُزعم أنها بشكلها الإنجيلي (البروتستانتي) تتمتع بولاء نحو ٤٠ مليون شخص.

❖ مشكلة المسلمين في أوروبا الغربية هي مشكلة أقرانهم من المواطنين المسيحيين ومشكلة الحكومات لا مشكلة تهديد إسلامي للمجتمع الأكبر.

❖ الدول الإسلامية لم تشكل تهديدا عسكريا للغرب منذ القرن السابع عشر وإذا كان هناك تحدٍ اقتصادي اليوم فإنه يأتي من الشرق الأقصى لا الأوسط.

جاء في الحلقتين السابقتين من كتاب «ساعتان هزتا العالم» للأكاديمي الآيرلندي المعروف فريد هاليداي ان صعود الجماعات الاصولية لم يعقب الحرب الباردة نفسها بل هو نتيجة لا تنفصل عنها. ويرى الكاتب ان الحرب الباردة تركت وراءها «مزبلتين»: فالنظام السوفياتي ترك ترسانة من الاسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية والغرب خلف طائفة من العصابات الاجرامية من اونيتا في انغولا والمهاجرين الكوبيين في الكاريبي وحتى الفصائل الافغانية. وفي هذه الحلقة يتحدث الكاتب عن الاصولية ويقول انها ليست نتاج الاديان التوحيدية وحدها، بل شملت بعض الايديولوجيات، وان اكبر جرائم القرن الماضي لم يرتكبها اصوليون. كما ينتقد الكاتب الاطروحة القائلة بأن الاسلام يهدد الغرب، ويقول ان العالم الاسلامي لم يشكل منذ ثلاثة قرون اي تهديد للغرب واذا كان هناك تحد اقتصادي اليوم فانه يأتي من الشرق الاقصى وليس الاوسط وفيما يلي الحلقة الثالثة.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عندما نتحدث عن الاصولية في العالم المعاصر فاننا نشير الى طائفة من الحركات في بلدان مختلفة، تشترك بخصائص محدَّدة وتتسم على الأخص بتضافر عنصرين لا يرتبطان بعلاقة لازمة بينهما لكنهما في حالة الاصوليات متصلان اتصالا مشروطا وإن كان متكررا. احد هذين العنصرين هو استحضار الدعوة الى النصوص المقدسة مقروءة قراءة حرفية، والعنصر الثاني الدعوة الى تطبيق هذه المذاهب على الحياة الاجتماعية والسياسية. هذان العنصران حاضران في الاصولية ويميزانها عن الحركات الاخرى ذات السياسة السلطوية وعن حالات تسعى فيها حركات، بطريقة غير اصولية أو غير حرفية، الى تطبيق المذاهب الدينية على السياسة (كما في نفوذ الكاثوليكية على القومية البولندية والايرلندية أو الكنيسة الراديكالية في اميركا اللاتينية).

❖ صعود الأصولية: برنامج وتفسير

❖ لهذا التحديد التقريبي تطبيقات واسعة: من الجائز ان يكون اول ما يخطر في ذهننا الحركة الاسلامية في ايران، التي جاءت الى السلطة في عام ١٩٧٩ وحكمت البلاد منذ ذلك الحين. ولكن من الجائز ان نفكر ايضا في حركات اصولية في بلدان اسلامية اخرى، في مصر والجزائر بصفة خاصة، حيث تسعى على الغرار نفسه الى اقامة ما تسميه دولة اسلامية. وهم لا يشيرون الى انفسهم بوصفهم «اصوليين» رغم ان التسمية العربية للاصولية تُستخدم في اللغة السياسية اليوم مع تسميات اخرى ابرزها «المجاهدون»، من جانب الذين يناصرونها أو «المتطرفون»، من جانب الذين لا يناصرونها. وفي حالة الحركات الاسلامية فان صفة الاصولي الفرنسية integriste في الاصل مصطلح كاثوليكي يفيد الآن دعوى التشريع لكل نشاط اجتماعي، وصفة الاسلامي الانجليزية Islamist اشارة الى تطبيق الاسلام على السياسة، تكونان صالحتين بالقدر نفسه على اقل تعديل. ولكن حتى اذا كان التشديد تركز بدرجة كبيرة على العالم الاسلامي فان مصطلح «الاصولي» طُبق تطبيقا أوسع بكثير. وهو يشمل الاتجاه الذي ورد ذكره اصلا في المسيحية بالارتباط مع الطوائف

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الانجيلية البروتستانتية التي ظهرت في العشرينات ودعت الى العودة الى قراءة الكتاب المقدس قراءة حرفية. و«الاصولي»، مثله مَثَل أي مصطلح، يمكن ان يُفهم في جزء منه بالنظر الى نقيضه، وهو في هذه الحالة «الحداثوي» المسيحي، أي ما يتعلق بقراءة النصوص المقدسة. بين الاديان التوحيدية الكبرى، اليهودية، ثمة الآن اتجاهان متعارف على تصنيفهما ضمن الاتجاهات الاصولية بما ينطويان عليه لدرجة معينة من جمع بين الالتزام بالنص واعتماد برنامج اجتماعي ـ سياسي جمعا يمكن مقارنته بأقرانه في الاسلام والمسيحية ولكنه ليس متطابقا معها. ويتبدى هذا باسطع صوره بين احزاب اليمين الديني في اسرائيل، (الحراديم haredim اليهود الارثوذكس المتطرفون، والمعنى الحرفي للمصطلح هو «الحريص»، ومن هنا تسمية «الملتزم»)، وكذلك بين المتطرفين الدينيين الاحدث عهدا، وخاصة غوش ايمونيم وغيرهم: يسعون بطرق متباينة الى توسيع سلطة الشرع اليهودي داخل اسرائيل واقامة دولة عمادها النصوص الشرعية ذات العلاقة، وهي في هذه الحالة الهلاخا. ولكن اذا كانت الاصولية في منشئها نتاج الاديان التوحيدية الى حد بعيد، لاسباب ليس اقلها ان هذه الاديان هي التي لديها اوضح فكرة عن القانون المقدس الذي تنبغي العودة اليه، فانها ليست حكرا على هذه الاديان. ففي الهند ظهرت خلال العقدين الماضيين اصولية هندوسية تسعى الى اقامة هندوتفا Hindutva او دولة هندوسية، ورامراجا Ramraja او دولة تقوم على تعاليم الاله رام. والهدف المعلن هو احياء دولة بهارات المقدسة التي دنسها طيلة قرون اعداء بهارات ـ من المسلمين واليهود والسيخ، وبالمرتبة الأخيرة بعض الشيء، البريطانيين). وكما هي الحال مع كل مصطلح سياسي ـ الشيوعية، الفاشية، الشعبوية، القومية ـ فاننا لا نتعامل هنا مع شيء واحد. ذلك ان هذه الحركات ليست متماثلة في كل ناحية من نواحيها. والحق ان وراء الاختلافات اللاهوتية التي تحدد نفسها بها، هناك فوارق كبيرة بينها، في المضمون والسياق والهدف. فالمسيحية على سبيل المثال لديها ما تقوله عن قضايا النظافة والتغذية الشخصية اقل بكثير مما لدى اليهودية والاسلام والهندوسية. كما ان نطاق الشرع يختلف اختلافا كبيرا حيث لدى التوراة والشريعة ما تقولانه اكثر بكثير مما لدى

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشرع الكنسي. ولدى المسيحية والاسلام قرون من السلطة السياسية بل الفتوحات الامبراطورية التي يمكن ان يستحضراها في حين ان اليهودية لم تحظ قط بمثل هذا النجاح الزمني. وفي بعض السياقات يكون رجال الدين هم الذين يقومون بدور قيادي ـ يصح هذا على اليهودية والبروتستانتية والاسلام الشيعي الايراني ـ في حين تكون في حالات اخرى قيادة غير دينية الى حد بعيد، بل ان قيادة سياسية تستحضر الدين هي التي تقدمت الى موقع الصدارة، كما في الحركات الاسلامية في شمال افريقيا والحركات الهندوسية. وغني عن القول ان دعاة هذه الحركات كافة سيعترضون بشدة على أي مقارنات تُعقد بين عودتهم، الفريدة على ما يُفتَرَض، الى القيم «الحقيقية» وتعصب الاخرين. السمة الثانية ذات العلاقة في هذا اللجوء الى «الاصول» هي الادعاء بأن بناء الدولة الكاملة للعالم المعاصر يمكن ان يُشخص فيها. فالاصوليون الاسلاميون ينسبون الكثير الى الشريعة رغم الحقيقة الماثلة في ان الشريعة بالمعنى المتعارف عليه للتعاليم الشرعية التي يتضمنها القرآن، لا تشكل إلا نحو ٨٠ آية من اصل ٦٠٠٠ ولا تغطي إلا بضعة مواضيع للتشريع الممكن بشأنها: المصطلح نفسه، الذي يرد بمعناه الحرفي في عبارة «الصراط المستقيم»، لا يُذكَر إلا مرات قليلة. السمة المشتركة الثالثة لهذه الحركات هي انها رغم كل غيرية عالمها الظاهرة، تسعى الى شيء واحد في المقام الاول، هو السلطة السياسية والاجتماعية. وفي حالة اليهودية ليس واضحا الى أي مدى يطمح اليهود الحراديم في بسط سيطرتهم المباشرة على الدولة: لكنهم من خلال مشاركتهم في المعترك السياسي ومن خلال استخدام نظام التمثيل النسبي والاحزاب وغيرها من النشاطات الاخرى، يسعون الى توسيع سيطرة السلطة الحاخامية (الربّانية) على شطر كبير من المجتمع، مثلما تسعى غوش ايمونيم الى اتخاذ موقف من قضايا اساسية معينة ابرزها قضية الأرض. وفي حالة الديانات الثلاث الاخرى ـ المسيحية والاسلام والهندوسية ـ فان هذه الدعوى السياسية دعوى اوضح بكثير: انها ليست حركات هداية ولا حركات تجديد لاهوتي بل حركات تهدف الى الظفر بالسلطة من خلال الانتخابات أو القوة أو الانتفاضة، واقامة الدول المطلوبة. والاصولية بهذا المعنى وسيلة للوصول الى السلطة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السياسية والاحتفاظ بها بعد الوصول اليها: لهذا السبب قبل سواه، بالطبع، ان الأمر يعنينا جميعا.

❖ اللا تسامح.. السمة المشتركة

❖ يقودني هذا الى البعد الأخير الذي تشترك به هذه الحركات، وهو لا تسامحها، والى حد بعيد طابعها المعادي للديمقراطية. فعلى الرغم من انها تدعي الكلام باسم الشعب والسعي الى تحقيق اهدافها بالوسائل الديمقراطية فانها بايديولوجيتها وتنظيمها جماعات سياسية سلطوية ويمكن ان تكون دكتاتورية. انها ترفض مقومات السياسة الديمقراطية، بما فيها التسامح والحقوق الفردية، وتدعي مرجعية ليست مستمَدَّة من الشعب: مستمَدَّة من ارادة الله المتأصلة في النص المقدس التي يفسرها قادة نصَّبوا أنفسهم بأنفسهم، من الذكور حصرا، أكانوا رجال دين أم سواهم. وهي كلها تضمر، كجزء مهم من ايديولوجيتها، عداء لمن لا يعتنقون دينها وحتى أهم من ذلك تقريبا، العداء لمن لا يشاطرونها توجهها الخاص من معتنقي دينها. وهي كلها فَرِحة بالحكم علينا نحن الاخرين من «الكفار» بعذاب أليم الى أبد الابدين. وازاء الطريقة التي اصبحت بها الهوية الدينية متواشجة مع الاثنية في القرن العشرين، باتت الحركات الاصولية تحمل آراء عنصرية في ثنايا آيديولوجيتها العامة ـ ضد اليهود (من جانب المسلمين والمسيحيين) وضد العرب (من جانب اليهود) وضد المسلمين (من جانب الهندوس)، الخ.. وهناك، عادة، في المجتمع الذي تنادي به مكانة ما لمن لا يقرون بآرائها ولكن هذه مكانة مبهَمة وخاضعة في احسن الاحوال، فيما يعتبر فرض الممارسات الاجتماعية التي يقول بها هؤلاء الاصوليون عملا مشروعا تجاه كل مَنْ يعيشون في هذا المجتمع. والى جانب التظاهر بالتسامح كثيرا ما تتضمن ادبياتها اعتداء وازدراء بحق المختلفين عنهم ـ أكانت كراهية الاصوليين المسيحيين لمواطنيهم العلمانيين أو حملات الاسلامويين الشعواء على فساد الغرب و«مؤامرات» اليهود وجاهلية العالم المعاصر، أو تهجمات الاصوليين الهندوس الآن على المسلمين في الهند بوصفهم خونة ومهاجرين غير شرعيين ومرتكبي عملية اغتصاب

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تاريخي لأرض بهارات وما الى ذلك، أو عداء الاصوليين اليهود للاستيعابيين ولليهود العلمانيين والمسيحيين والعرب وغيرهم. كل هذه الحركات تثير ضجة صاخبة حول عدوانية اعدائها ومؤامراتهم، وتعلن نفسها ضحية. ولكن هناك في احيان كثيرة جرعة قوية من الاسقاط في هذا كله. فالعالم الغربي، المسيحي وما بعد المسيحي، يكثر حاليا من الحديث عن مدى عدوانية «الاسلام» وكيف انه يهدد الغرب ولكن ابسط الدراسات الابتدائية لتاريخ العالم خلال القرون الثلاثة الماضية ستبين ان العكس هو الصحيح، كما هي الحال في مناطق عديدة من العالم. ففي البوسنة كان اعداء المسلمين من الارثوذكس الصرب والكاثوليك الكروات مَنْ ساهم بالقسط الأكبر في تسميم العلاقات بين الطوائف. ولكن الاسلامويين يتحملون قسطهم من المسؤولية. فالخطابية الاسلاموية عن اليهود خطابية عنصرية في الغالب. وفي الرد على رواية «الآيات الشيطانية»، أُصيب مسلمون مؤخرا بالاعياء في مسألة الكفر ولكن ربما كان على جميع المعنيين بهذه القضية ان يدرسوا القرآن دراسة أكثر امعانا لأنه يقول لنا ان المسيح لم يكن ابن الله وانه لم يُصلب ولم ينهض من بين الموتى ـ كلها طروحات تُعد تقليديا اشكالا من الكفر في العالم المسيحي. وفي الهند، نحت الشوفينيون الهندوس، زاعقين عما فعله المسلمون بالهند، خطابيتهم اللامتسامحة الخاصة: «مسلمان كي دو ـ هي شتان، باكستان اور قبرستان» (هناك للمسلمين مكانان فقط، باكستان أو القبر). وتنسجم هذه الدعوة الى طرد المسلمين الى باكستان مع مطالبة الهندوس القتالية بالغاء باكستان واعادة ضمها الى الهند. كما ان هناك ما تقشعر له الابدان في محاجَّة الهندوس القائلة ان المسلمين احرار تماما للعيش في دولتهم شريطة ان يقبلوا طابع بهارات (الهند) الثقافي، أي طابعها الديني المحدَّد هندوسيا، ونظامها السياسي. فكل اصولية تتهم الاخرى بالتعصب والتطرف إن لم يكن بالارهاب: كل الاصوليات التي ذُكرت حتى الآن قدمت امثلة ساطعة على ذلك، في الماضي وفي الازمنة الحديثة.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ **تفسيرات بديلة: نصية ومشروطة**

❖ اذا كان بمقدورنا الآن ان نعود الى مسألة التفسير فثمة، بمفردات عامة، مقاربتان ممكنتان، ما اسميه المقاربة النصية والمقاربة المشروطة. واقصد بالنصية اولئك الذين ينظرون الى الاصوليات، في المقام الأول، بمفردات علاقتها بالنصوص المقدسة وبالمحاجَّات الدينية المترتبة على تأويل حركة من الحركات الدينية لها وتنظيمها. ويمكن العثور على مثل هذه المقاربة في اللاهوت ولكنها تظهر ايضا في مناظرات علم الاجتماع حول أهمية المعتقدات الدينية بل وتأثيرها الحاسم في السلوك الاجتماعي والسياسي: ماكس فيبر، من بين آخرين، كان لديه الكثير مما يقوله بهذا الشأن. وهكذا فان دراسة هذه الحركات بمفردات تأثير الفقه الاسلامي مثلا أو تأثير نظرة اسلامية الى العالم أو الاخلاق البروتستانتية أو التقليد اليهودي أو الهندوسي ستعني اعتماد هذه المقاربة. وتُعتبر الاصولية في هذه المقاربة عودة، احياء لشيء موجود بالفعل، مع تفسير هذه العودة بتجدد الاهتمام بالنصوص المقدسة، وذلك بدافع خوف ما في احيان كثيرة من الفساد أو التجديد داخل الجماعة الدينية المعنية. ومن نواح عديدة توازي هذه المقاربة النصية للاصولية المقاربة التقليدية أو «الدائموية» لدى النزعة القومية: الافكار، العقيدة، الماضي يُنظر اليها على انها تحدد الحاضر من حيث الاساس. وغني عن القول ان هذا هو تفسير الاصوليين انفسهم، الذين يدعون جميعهم بأنهم يعودون الى تفسير «صحيح» والى ماض كان، بمعنى يكاد يكون آثاريا، دوما «هناك» ينتظر اعادة اكتشافه. كما يتأدى هذا الى ان الاصولية ليست خاصة بالعالم المعاصر: بالاضافة الى الحقب والمعتقدات المرجعية التي يستحضرها الاصوليون كان هناك على امتداد تاريخ الاديان الكبرى الكثير من حركات العودة الى النصوص ـ الوهابية في الاسلام والميثودية في المسيحية على سبيل المثال لا الحصر. المقاربة البديلة التي سمّيتُها المقاربة «المشروطة» تؤكد الحداثة والمشروطية في هذه الحركات. وبادئ ذي بدء، انها مقاربة تلفت الانتباه الى الاسباب المعاصرة لهذه الحركات، التي وإن كانت تتباين من بلد الى آخر ومن دين الى آخر فهي من سمات العالم المعاصر. وهكذا تظهر الاصوليات في العديد من البلدان النامية كرد فعل

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على اخفاقات الدولة العلمانية التحديثية التي عُدَّت فاسدة، عاجزة عن حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، ودكتاتورية في احيان كثيرة. ويصح هذا على ايران الشاه بقدر ما يصح على جزائر جبهة التحرير الوطني أو حزب المؤتمر في الهند. وبالقدر نفسه فان هذه الحركات انما هي رد فعل على قضايا حقيقية جدا تواجه هذه البلدان ـ التمدين الجماهيري، البطالة، احساس باستمرار الهيمنة الاجنبية. فالعديد من هذه الحركات تظهر في بلدان عانت أو ما زالت تعاني وطأة الهيمنة الاجنبية ـ يمكن ان تشتمل على عناصر من القومية ومعاداة الامبريالية من النمط العالم ثالثي. وهي تقدم حلا بسيطا، واضحا في الظاهر لمشاكل العالم المعاصر. كما انها تظهر في سياق هو ذاته سياق حداثة: الدولة ـ الأمة، جهاز الدولة المحدَّث، المطالب الاجتماعية والقانونية التي تطرحها هذه الدولة على مواطنيها. وفي بعض الحالات ترتبط الاصولية بفئات اجتماعية في طور الانحدار، وفي البعض الآخر بجماهير مدينية حديثة التكوين، أو، في حالة افغانستان بعد عام ١٩٧٨، بسكان ريفيين مهدَّدين يردون على المطالب المتزايدة للدولة المتمركزة. وفي حالة اسرائيل فان الاصولية، رغم تشكيك البعض في امكان قيام دولة يهودية قبل ظهور المخلِّص المنتَظَر، تنطوي على حملة لتحديد سياسات معينة من سياسات هذه الدولة وتشكيل طابع سكانها المهاجرين حديثي التكوين. كما تتبدى هذه الحداثة في لغة الاصوليين وايديولوجيتهم. ورغم كل ما يجري من استدعاء للماضي والرموز التقليدية، يمكن النظر الى لغة الاصوليات وسياساتها على انها شكل من اشكال الايديولوجيا المعاصرة مستخدمة موضوعات تقليدية أو كلاسيكية لاغراض معاصرة ومستعيرة من الايديولوجيات المعاصرة استعارة انتقائية ـ من هنا تسميتي لهذه المقاربة مقاربة «مشروطة». فالوظائف العامة للايديولوجيات السياسية وظائف معروفة بقدر جيد: بناء هوية، مَنْ «نحن»، أو الشعب أو الجماعة، وبالقدر نفسه من الأهمية ما «لسنا» نحن، وتقديم تاريخ مُشَرْعِن يتضمن مآثر بطولية واعمال غدر وظلم، واخلاقا للنضال وفي احيان كثيرة للتضحية، وبرنامجا للتحديث وتسلم السلطة، وكمرحلة اخيرة توفير نموذج لبناء مجتمع جديد فيه منظومة من المبادئ التي يراد بها شرعنة نكران السلطة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على مَنْ يريدون تحدي النظام الجديد. وقد شهدنا في القرن الماضي أو نحو ذلك حالات عديدة من ذلك ـ الليبرالية، الفاشية، الشيوعية بأقنعتها المختلفة ـ ولكن لعل المقاربة الأنسب، كما اشار العديد من الكتاب، بينهم سامي زبيدة وارفند ابراهيميان، هي مقاربة الشعبوية. فهذه ايديولوجيا عريضة، فوق الطبقات، تؤكد «فضيلة» الشعب وفساد الظالم ماليا واخلاقيا. وبالقدر نفسه من الاهمية المركزية للشعبوية، شكل من اشكال القومية والعداء للاجانب، محدَّدين بطرق مختلفة، وولع بنظريات المؤامرة. ويكون المجتمع العلماني الحديث، لا سيما آيديولوجيته التكوينية، «الليبرالية»، موضع استجهان خاص. كل هذا وأكثر نجده في آيديولوجيات الاصولية. ومثل هذه الايديولوجيات، خاصة بصيغها الاسلامية والهندوسية، تكون برامج لتعبئة الدعم السياسي من اجل الاستيلاء على السلطة السياسية والاحتفاظ بها. وفي حالة اليهودية والمسيحية يخف التشديد على الهيمنة الاجنبية ويتركز على ضرورة مكافحة العناصر العلمانية الخطرة والفاسدة داخل مجتمعاتهما. ولكن لهذين الاتجاهين عنصرا قوميا بالغ القوة ايضا: الحركات المسيحية واليهودية تعتبر من اكثر العناصر وطنية وتعنتا في مجتمعاتها، وكان اتباعها، الذين يستخدمون الصوابية الدينية، من اشد دعاة الغطرسة القومية واستخدام القوة وتدمير الاعداء. ولم يكن اعتباطا ان الكثير من الكتاب الاميركيين لاذوا وهم يفكرون في المواجهة النووية خلال الحرب الباردة، بفكرة هَرْمَجدَوّن المزكاة دينيا.

ما من فكرة حديثة أو سياق حديث اشد تأثيرا من الأمة والقومية: ما يمثله تماه ديني في الظاهر هو في حالات عديدة تماه اثني، تعبئة للتدين ـ فكرة، عبادة، ملبس، هوية ـ في سياق من النزاع القومي. ويصح هذا على مسلمي فلسطين والبوسنة بقدر ما يصح على الهندوس في الهند. ولكن القومي هو الذي يحدد الديني ويعبئه وليس العكس. والحق ان في حالة الهند، ما شهدناه بكل وضوح من العشرينات فلاحقا، مع تأسيس حزب راشتريا سوايامسبفاك سانغ (آر أس أس) Rashtriya Sawayamsevak Sangh RSS هو تمفصل برنامج يقوم على افكار اوروبية في

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القومية، من اجل بناء امة هندوسية، عرقا وثقافة آريين مشتقين من السنسكريت ، سيطهران بهارات من فساد القرون.

❖ الحالة الإيرانية

❖ عند هذه النقطة بودي ان اخرج عن المناقشة المقارنة العامة للاصوليات بغية النظر باستفاضة اكبر الى الحالة الايرانية، الحالة الأبرز لحركة اصولية، والبلد الذي تمسك مقاليد السلطة فيه حركة اصولية لا تعرف المهادنة منذ عام ١٩٧٩. فلقد كنتُ في ايران قبل الثورة وبعدها، وقابلتُ العديد من قادتها. ووقفتُ في شوارع طهران ورأيتُ عشرات الالوف يمرون هاتفين «مرك بر ليبراليزم» (الموت لليبرالية). لم يكن مشهدا لطيفا: من بين اشياء اخرى، كنتُ أنا المقصود بهتافهم.

لا حاجة للاسهاب عن اصالة هذه الثورة بالمقارنة بالثورات الاخرى في التقليد الذي بدأ في فرنسا عام ١٧٨٩. فهي لم تكن ثورة صنعتها قيادة دينية تدعو الى العودة الى نموذج حكم مستمَد من القرن السابع فحسب بل بدا من نواح اخرى ايضا انها ترفض الفرضيات التي انطلقت منها كل الثورات التي قامت بعد ١٧٨٩. فقد رفضت التطور المادي (قال الخميني ذات مرة ان الاقتصاد شغل الحمير).

ولكن لدى امعان النظر لا يكون الأمر تماما على هذا النحو. فان اسباب الثورة الايرانية تشتمل على عوامل متعددة من النمط العلماني بل وحتى المادي بهذا القدر أو ذاك، أدت الى سقوط نظام الشاه: نشوء وضع متفجر في المدن، بهرجة جماعية وفساد متفشٍ وتضخم جامح، وامتناع النظام عن السماح لاشكال شرعية من التذمر السياسي، والقمع المسبَق للقوى العلمانية الجماهيرية، القومية منها والشيوعية، التي تصدرت الساحة السياسية الايرانية في العقد التالي على الحرب العالمية الثانية، ونجاح الخميني في قيادة وتنظيم حركة سياسية جماهيرية تتمحور حول منظومة من الاهداف البسيطة وذات الشعبية الواسعة ـ اسقاط الشاه وانهاء النفوذ الغربي، خاصة الاميركي، في البلاد. وعلى الرغم من كل ما يوحي بأن ايران شهدت عودة الى الماضي وان ثورتها كانت ثورة «تقليدية» فانها كانت من بعض النواحي ثورة حديثة،

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بل ربما كانت احدث ثورة اجتماعية في أي بلد. فهي ثورة قامت لا في وسط الفلاحين بل بين فقراء المدن والطبقات الوسطى، وحققت اهدافها ليس من خلال العنف بالدرجة الرئيسية وانما بوسائل سياسية تمثلت بالاحتجاج الجماهيري المعارض والاضراب السياسي العام. ان مفارقة الثورة الايرانية هي انها كانت في آن الأكثر تقليدية والأكثر حداثة بين الثورات الاجتماعية. هذه المنظومة المادية والحديثة من الانشغالات حاضرة ايضا في ايديولوجيا النظام ذاتها. ولو نظر المرء الى لغة الخميني وسياساته فانها ستبدو كلها مألوفة أكثر، وخاصة في ضوء الحركات الشعبوية العالم ثالثية لحقبة ما بعد الحرب. فالمجموعة المركزية من المفاهيم عند الخميني، عن «المستضعفين» و«المستكبرين»، تقابل ثنائية الشعب / النخبة في شعبويات اخرى. وان تسميات شعبوية تُستخدم للنيل من النخبة - الفساد، الارتباط بالاجنبي، الانحطاط، الطفيلية - كلها تتكرر لدى الخميني. وشعارات الخميني السياسية الرئيسية - الجمهورية الاسلامية، الثورة، الاستقلال، الاكتفاء الذاتي الاقتصادي - هي الأهداف المعهودة للحركة القومية في البلدان النامية. وتسميته للامبريالية، «استكبار جهاني»، يمكن التعرف عليها فورا في العالم أجمع، وما هي بالوصف السيئ في هذا المجال. وأُخذ شجب الخصوم بوصفهم «ليبراليين» من الشيوعيين. ومن الجائز الافتراض ان هذه الاستعارات ستُخضع لمنظور لاهوتي ينتمي الى عالم آخر، ولكن ما قاله الخميني وفعله في الحقيقة بعد مجيئه للسلطة إن كان يعبر عن شيء فانه كان يعبر عن اولوية «السياسة الواقعية» Realpolitik. وهكذا فان الخميني وإن بدأ بشجب الوطنية والهوية الايرانية، راح يستحضر ايران ومفهوم الوطن الأم ما ان بدأ الاجتياح العراقي في عام ١٩٨٠. والأكثر اثارة للاهتمام انه في الأشهر الأخيرة من حياته طرح مبدأ جديدا من مبادئ السلوك السياسي، يقوم على اولوية «المصلحة»: حسب هذا المبدأ فان ما يهم هو مصالح الشعب والدولة وليس فروض الدين الشكلية. وفي اوضاع التناقض بين الاثنين كانت مصالح الدولة هي التي تعلو حتى على واجبات دينية اساسية مثل الصلاة. ولا يمكن اعطاء طرح لمبدأ «مبرر الوجود» العلماني ضمنا اوضح من هذا الطرح.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ إجابات وأسئلة

❖ سعى هذا النقاش حتى الآن الى تحليل انتشار الاصولية واقتراح بعض الاسباب والسمات المشتركة لهذه الظاهرة. وسيكون من الخطأ المغالاة في اهمية هذه الحركات. فان غالبية البلدان المسلمة ليست في خطر داهم من اجتياح الاصولية، وان موجة الاصولية المسيحية كانت ذات تاريخ متقطع: في الولايات المتحدة الاميركية هُزمت حول القضية الكبرى المتعلقة بخيارها في الفترة الواقعة بين الحربين ، وهي قضية حظر المشروبات الروحية ، والتأثير الحقيقي لما يسمى «الأغلبية الأخلاقية» في الولايات المتحدة إبان الثمانينات كان أقل مما كان يخشاه الكثيرون، لأسباب ليس اقلها ان زعيمها السياسي المختار، ابن العقد الثامن من العمر، المتزوج مرتين، الذي لا يرتاد الكنيسة، رونالد ريغان، لم يبد اهتماما يتعدى المصلحة الانتخابية بقضاياها، ثم شرع يعقد سلامه مع عدو المسيح السوفياتي. وفي اوروبا الشرقية فان الحركة الاحتجاجية الأشد تأثرا بالدين، نقابة «تضامن»، التي لم تكن حركة اصولية حسب التحديد المُستَخدم هنا، لم تصل الى السلطة في بولندا إلا لتفقدها مرة اخرى الى الشيوعيين المصلحين ولترى تشريعها عن الانجاب موضع تجاهل في الاساس من جانب السكان. ولكن البعض من هذه هو حركات قد تكون معنا لزمن طويل بحكم ازمة البلدان التي ظهرت فيها، وبحكم ارادتها ذاتها. وفي ايران والسودان يمسك الاصوليون مقاليد السلطة. ومن الجائز تماما ان يأتوا الى السلطة في الجزائر ويمكن ان يفعلوا ذلك في مصر. وفي اسرائيل يمكن للاصولية ان تمارس تأثيرا شنيعا بكل تأكيد. وفي المجتمعات الغربية ما زال للاصولية اقوى مواقعها في الولايات المتحدة حيث يُزعم انها بشكلها الانجيلي (البروتستانتي) تتمتع بولاء نحو ٤٠ مليون شخص: قد لا تكون على وشك الوصول الى السلطة ولكنها تستمر في اثارة الكثير من المتاعب محاولة تشريع قوانين حول ما يجوز وما لا يجوز ان تفعله المرأة وحول قضايا «منفردة» ذات صلة. وفي اوروبا، حتى الآن، كانت الحركات اليمينية واليسارية الراديكالية حركات علمانية بل ومعادية للمسيحية، ولكن قلة يستطيعون التنبؤ بالمنحى الذي سيتخذه تطور الوضع في الشرق خلال السنوات القادمة. نأتي هنا الى

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسألة الرد - على مستويين، السياسي والفلسفي. سياسيا، لا يمكن تجاهل الخطر الذي تشكله هذه الحركات على مواطني البلدان التي تعيش فيها، وامتدادا لذلك، على العالم. فان الثورة في ايران وصعود الاصولية في اماكن اخرى ادى الى ازهاق ارواح كثيرة، مثلما سيؤدي، ربما على نطاق اوسع، انتصار الجبهة الاسلامية للانقاذ في الجزائر. ويتعين صوغ رد سياسي على اساس ثلاثة مبادئ على اقل تعديل. أولا، علينا ان نشخص مصادر بل ومشروعية احتجاج هذه الحركات، ومعالجة القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي جاءت هذه الحركات رد فعل عليها. ولا يمكن التوصل الى حل للازمة في الجزائر من دون تغيير في الاقتصاد سيوفر فرص العمل، واصلاح دولة فاسدة تزداد فسادا. وبالقدر نفسه يجب ان ندرك كيف ان طائفة من القضايا تشحذ نزعة التطرف القومي والديني بين الناس: في حالة العالم الاسلامي عمل التجاهل الغربي بشأن قضيتي فلسطين والبوسنة، على الهاب العداء الديني للامبريالية. وفي حالات عديدة، فان صعود الاصولية، أكان في غزة أو البوسنة أو بين الجاليات الاسلامية في اوروبا الغربية، يأتي ردا على الظلم الذي تشعر به هذه الجماعات ورد القوى العلمانية القاصر على ما يبدو في مواجهته، سواء في البلدان ذات العلاقة أو على الصعيد الدولي. ويُكثر العنصريون والهلعيون من الحديث عن وجود طابور خامس داخل اوروبا الغربية: ينبغي ان ننظر اولا الى كيف ولماذا توجه اناس جرى تشجيعهم ودعوتهم للمجيء والعمل في اوروبا، الى تحديد هويتهم تحديدا دينيا ونضاليا اشد ازاء المشاكل التي تعرضوا لها. فان مشكلة «الاسلام» في اوروبا الغربية هي في المقام الأول مشكلة اقرانهم من المواطنين المسيحيين ومشكلة الحكومات لا مشكلة تهديد اسلامي للمجتمع الأكبر: هناك نحو ستة ملايين مسلم في اوروبا الغربية ذات الـ٢٥٠ مليونا.

❖ أكبر جرائم القرن لم يرتكبها أصوليون

❖ ثانيا، يتعين، في تحليلنا وتغطيتنا نحن، ان نبتعد عن التبسيط والتنميط الذي يساوي المسلمين بالاسلامويين: غالبية المسلمين ليسوا اسلامويين مثلما ان غالبية

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الهندوس واليهود والمسيحيين ليسوا اصوليين. ان «الاسلام» ليس تهديدا للغرب، بأي معنى جاد، لا عسكريا ولا اقتصاديا: الدول الاسلامية لم تشكل تهديدا عسكريا منذ القرن السابع عشر، واذا كان هناك تحدٍ اقتصادي اليوم فانه يأتي من الشرق الاقصى لا الاوسط. وليس هناك اسلام واحد أو مسيحية واحدة في ما نحن بصدده، ولا تسمية «المسلم» ينبغي ان تُستخدم للاشارة الى الاثنية. وما يضيع في احيان كثيرة في النقاش المعاصر هو تنوع وتباين هذه الاديان ذاته، أكان في القراءات الممكنة لنصوصها المقدسة أو في الثقافة والأدب والمعاني الحاضرة فيهما. واذا كان في الحضارة الاسلامية، مثلا، اتجاه دوغمائي، متطرف، متزمت، وهو امر تشترك فيه مع الاديان الاخرى، فان فيها ايضا الكثير مما هو شكوكي ومتعي وكوزموبوليتي وفكاهي وانساني. والقيمون على كل دين يتآمرون مع اعدائهم التنميطيين لبلبلة ذلك، كما جادل دوغمائيون في الماضي بأن الاشتراكية «الحقيقية» الوحيدة هي اشتراكية جوزيف ستالين أو انور خوجة. ولا يمكن التصدي لدعاوى الاصوليات بكونها التعبير الأصيل عن الثقافة القومية إلا حين يُدرك، وإلا اذا أُدرِك، هذا التنوع ذاته داخل الجماعات فضلا عن التنوع والتعدد الثقافي بينها. من الواضح بكل تأكيد ان المشروع التنويري الحداثي، كما جرى تصوره في القرن العشرين، أُعد اعدادا قاصرا بل وبدائيا في احيان كثيرة. فنحن لا نعيش في عالم يكون شكل ما من التقدم غير المتمايَز حتميا فيه أو عالم تسوده العلمنة والتحرر من الاوهام. وكانت قد جرت المغالاة في طرح دعاوى العقل، إن لم تكن تُفرض بالقمع. فان اكبر جرائم القرن لم يرتكبها اصوليون دينيون. وان المصطلح ذاته الذي يكمن في صلب هذه المناظرة، «العلمانية»، قد يفيد ايضا من المراجعة: اذ تعود صياغته في الأصل الى اربعينات القرن التاسع عشر بوصفه بديلا من المرجعية الدينية، جرى التسليم به على نحو مفرط في المجتمعات الديمقراطية. ولكن هذه المفاهيم التنويرية تبقى اساسا يمكن البناء عليه، بل اقول من الضروري البناء عليه بقدر ما يصح ذلك على مفاهيمنا في الديمقراطية والفردية والحقوق والتسامح. وينبغي ان نكون مستعدين لاعادة تحديدها والدفاع عنها. ولنكن واضحين تماما في هذا الشأن: ان الاصوليين من كل

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صنف لا يعرفون الهوادة والتراخي في تصميمهم على بلوغ اهدافهم وهم مستعدون تماما لاسكات مَنْ يقفون في طريقهم، وفي بعض الحالات قتلهم، وبالاضافة الى ذلك ارسالنا جميعا الى جهنم، ايا يكن ما تساويه هذه الرحلة. فمن جانب اولئك الذي هم غير اصوليين ينبغي ان يكون هناك عنصر اكبر من عناصر الوضوح والصلابة بل والنضالية قبل فوات الأوان.

(٤) ـ الإسلام لم يهدد المجتمعات الغربية كما فعلت الشيوعية والمطلوب من الغرب احترامه وفهمه لا معاداته

❖ حصار العثمانيين لمدينة فيينا عام ١٦٨٣ والحملات الصليبية لا تفسر السياسة الحالية بل تُستخدم من قبلها.

❖ سعى القيصر الروسي إلى قيادة المسلمين في الحرب العالمية الاولى ودعَم الاتحاد السوفياتي «الجهاد» والتحرر الوطني وقامت (سي آي إيه) بتمويل «المجاهدين» الأفغان في الثمانينات.

❖ جيلز كيبل يصور المسلمين في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة تصويرا خاطئا وكأنهم إلى حد بعيد من أنصار «مجلس المساجد في برادفورد» أو منظمة «المسلمين السود» ❖ جعل حزب الشعب الدنماركي العداء للمسلمين بندا مركزيا في برنامجه وأنتجت هوليوود فيلم «الحصار» عن الإرهاب الإسلامي وخاض حزب جاناتا الهندي حملته الانتخابية على أساس إلغاء التشريعات القانونية الخاصة بالمسلمين وإنهاء الوضع الخاص لمقاطعة كشمير

جاء في الحلقات السابقة من كتاب «ساعتان هزتا العالم» للأكاديمي الآيرلندي المعروف فريد هاليداي ان صعود الجماعات الاصولية لم يعقب الحرب الباردة نفسها بل هو نتيجة لا تنفصل عنها. ويرى الكاتب ان الحرب الباردة تركت وراءها «مزبلتين»: فالنظام السوفياتي ترك ترسانة من الاسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية والغرب خلف طائفة من العصابات الاجرامية من اونيتا في انغولا

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمهاجرين الكوبيين في الكاريبي وحتى الفصائل الافغانية. وعن الاصولية يقول انها ليست نتاج الاديان التوحيدية وحدها، بل شملت بعض الآيديولوجيات، وان اكبر جرائم القرن الماضي لم يرتكبها اصوليون. كما ينتقد الكاتب الاطروحة القائلة بأن الاسلام يهدد الغرب، ويقول ان العالم الاسلامي لم يشكل منذ ثلاثة قرون اي تهديد للغرب، واذا كان هناك تحد اقتصادي اليوم فانه يأتي من الشرق الاقصى وليس الاوسط. وفي هذه الحلقة يدعو الكاتب الغرب الى احترام الاسلام ودراسته وفهمه بدل رسم صور نمطية معادية لهذا الدين . ويرى ان الاسلام لم يمثل اي تهديد في السابق كما فعلت الشيوعية للمجتمعات الغربية. وفي ما يلي الحلقة الرابعة.

ما من موضوع في المناقشة العامة المعاصرة اثار جدلا ملتَبسا اكثر مما اثاره موضوع العلاقات بين «الاسلام» والغرب. وسواء أكان نقاش العلاقات بين الدول المسلمة والدول غير المسلمة أو مناقشة العلاقات بين غير المسلمين والمسلمين في البلدان الغربية، فان الميل لدى الطرفين، مع بعض الاستثناءات، كان نحو التخويف والتبسيط. ويتعلق التخويف بـ«التهديد» الذي يشكله «الاسلام» ضد العالم غير المسلم من جهة، والتهديد الذي يشكله «الغرب» ضد المسلمين، من الجهة الثانية. ويرتبط التبسيط من جانب غير المسلمين بعدة قضايا بديهية: الارهاب ـ كأن غالبية المسلمين ارهابيون أو غالبية الارهابيين مسلمون ـ ودرجة العدوانية الموجودة في العالم المسلم ومسؤولية المسلمين عن ذلك، واستعداد المسلمين للسماح بالتنوع والمناظرة واحترام حقوق الانسان. الاعلام الذي يبحث عن الاثارة ليس وحده الذي يكرس مثل هذا التمثيل الخاطئ بل ومعه كتاب عيونهم على الهواجس الراهنة للرأي العام القارئ، مثل في. اس. نايبول الذي أيد في عام ١٩٩٤ تدمير مسجد ايوديا، وصاموئيل هنتنغتون. التبسيط الاسلامي ذاته ذو وجهين: من جهة تنميط «الغرب»، ومن الجهة الثانية تأكيد وجود هوية واحدة للمسلمين كافة وتفسير واحد للنص والثقافة.

التبسيط الجوهري يتضمن هذه المصطلحات ذاتها: «الغرب» ليس حاصل جمع صائب للعالم الحديث، والتبسيط ينحو بسهولة بالغة الى الطروحات الاحادية، التآمرية في تناول التفاعل السياسي والاجتماعي. ولكن مصطلح «الاسلام» ايضا

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليس اختصارا صالحا يُجمل كيف يرتبط مليار مسلم موزعون على اكثر من خمسين دولة وما لا يُحصى من الاثنيات والفئات الاجتماعية، بالعالم المعاصر أو ببعضهم بعضا أو بالعالم غير المسلم. غير ان الابتعاد عن هذا التبسيط محال عمليا لأن مَنْ يعادون الاسلام ومَنْ يستحضرونه على السواء، يتمسكون بمثل هذه اليافطات. والأكثر من ذلك، كما يبين الكثير من هذا الأدب، ان اولئك الأشد تصميما على نقد الاحكام المتحاملة الغربية المعهودة على العالم المسلم، يستندون الى مجموعة اخرى من التبسيطات. وبدلا من الخوف من القوالب النمطية المعادية للمسلمين أو كرهها فاننا الآن مدعوون الى احترام «الاسلام» وفهمه ودراسته.

❖ معاداة الإسلام.. المركزية الأوروبية.. التنميط

❖ تمتد الأدبيات موضع المراجعة هنا عبر جوانب عدة من هذه المسألة. فان تقريري رانيميد وولتن بارك، يشخصان تفسيرات خاطئة، في الغرب في المقام الأول، للعالم المسلم ويدعوان الى علاقة اكثر تسامحا، عمادها المعرفة مع العالم المسلم. وهما يعكسان مقاربة مشتقة من العلاقات العرقية من جهة ومن الحوار بين الديانات من الجهة الثانية. وكلاهما يضعان الاحتكاكات الحالية في سياق العلاقات التاريخية المديدة بين المسلمين والعالم المسيحي، وكلاهما يضعان اليد على دور الاعلام في تكريس القوالب النمطية، وكلاهما يدعوان الى مناقشة اكبر بين الجماعات. ولعل الأكثر أهمية انهما يقبلان مصطلح «الاسلام» بوصفه طابع الهوية الاساسية للمسلمين. وهما يتفاديان مناقشة التنوع في المجتمعات المسلمة، سواء بمفردات الاثنية أو تأويل التقليد الاسلامي وتطبيقه على العالم المعاصر. عمل بوب سعيد، وهو سوسيولوجي يكتب بنفس نيتشوي ـ فوكوي، يتسم بنبرة أقل تهدئة. ويسعى سعيد الى تقديم «سرد مفهومي» نقدي يتناول كيف توصل العالم الغربي الى تشخيصه وجود تهديد اسلامي. وهو لا يرى مقولة «الاصولية» اساسا بمفردات عوامل اجتماعية أو سياسية تؤدي الى ظهورها في مجتمعات مسلمة محدَّدة، بل يشير الى رد فعل مركزي اوروبي من جانب الغرب على تحدي هيمنته التي كانت حتى الآن بلا منازع على العالم

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاسلامي. ويجادل سعيد بأن المركزية الاوروبية، التي ابتلي بها الكثير من التحليل الذي يتناول المنطقة، ليست نتاج هيمنة غربية تاريخية بقدر ما هي رد على التهديد الذي يشكله تفكيك مركزية الغرب الآن ضد هذه الهيمنة: انها دليل انحسار السطوة وليس دوامها.

الاسلاموية، في هذا السياق، شيء ينبغي الترحيب به: عودة المظلومين، رفض المسلمين للهيمنة الغربية. ويحمل سعيد على اولئك الذين حاولوا في العالم الاسلامي - أكانوا محدثين ليبراليين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أو كماليي القرن العشرين - الذين حاولوا التعلم من الغرب وبذلك تحديث مجتمعاتهم. كما يرفض سعيد المحاجَّة القائلة ان الاسلاموية تتضمن نوعا آخر من الخطاب الغربي الراديكالي معتبرا ان ذلك شكل آخر من اشكال الانكار من جانب القوة المهيمنة: الذين قالوا بذلك - عزيز العظمة، سامي زبيدة، أنا نفسي - نصيبهم هجوم لاذع. فالاسلاموية بناء جدلي يرفض الغرب، شكل من اشكال الحداثة غير غربي.

على النقيض من هذه الاعمال الثلاثة التي تعامل «الاسلام»، لاغراض محاجَّتها على اقل تعديل، بوصفه شيئا واحدا، والمسلمين بوصفهم جماعة واحدة، تؤكد الاعمال الثلاثة الاخرى تنوع المجتمعات المسلمة وردود افعال غير المسلمين عليها. ويعاين العملان اللذان حررهما كاي حافظ، وهو باحث في معهد الشرق في هامبورغ، التفسيرات التاريخية والحداثوية المختلفة للاسلام وتفاعلات المسلمين المختلفة مع الغرب. ويغطي العمل DerIslam underder Westen «الاسلام والغرب» الفكر السياسي ووضع المرأة والارهاب والاقتصاد الى جانب السياسات الخارجية لبلدان وشعوب اسلامية محدَّدة: ايران، الجزائر، تركيا، البوسنة، الفلسطينيون، اسيا الوسطى. ويقدم Islam and the Westin the Mass Media «الاسلام والغرب في وسائل الاعلام» عرضا ذكيا يبتعد عن وضع الجميع في سلة واحدة، لتغطية العالم الاسلامي بالارتباط مع اولويات استراتيجية مختلفة (مثل اللاتناسب الهائل في التغطية الاقليمية)، والتشويهات الموجودة في اعلام العالم الاسلامي والتغيرات الأوسع للعولمة.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو يتضمن فصلا غنيا بالمعلومات كتبته اليزابيث بوول عن تغطية الصحافة البريطانية للمسلمين.

دراسة هيو ونيكول بوب لتركيا تتناول مجتمعا مسلما قائما بالفعل. فان تركيا تجسد العديد من القضايا العامة في هذه المناظرة، مبينة توترات الحداثة، لا سيما بين دولة علمانية ومعارضة اسلاموية، وبين الدولة التركية والمعارضة الكردية المسلمة بالقدر نفسه، لكنها علمانية. واستثار تقويمهما للمشهد التركي المعاصر هجوما قويا من اولئك الذين يربطونهما باتجاه يُعرف بـ «الجمهورية الثانية»: المقصود به اولئك الذين يريدون التخفيف من عداء الدولة للمعارضة الكردية والاسلاموية من خلال السماح، على سبيل المثال، بارتداء غطاء الرأس أو العمامة في الجامعات، ومنح المناطق الكردية قدرا من الحكم الذاتي. ان قراءة دراسة ملموسة بمثابة نفحة من الهواء النقي: هنا يكف الاسلام عن كونه تجريدا احاديا ويصبح شيئا ملموسا ومتنوعا: العقيدة، التاريخ، الثقافة، الأدب، الرمز، القوى السياسية والاقتصادية. وهكذا يحاول الاسلامويون الاتراك، على نقيض ملحوظ من ايران، استحضار الماضي العثماني، لصالحهم. ومن الجهة الاخرى، فان الأقلية العلوية الشيعية علمانية بصلابة - خوفا من الأغلبية الاسلامية السنية. وأعرَضت الاحزاب الكردية عن الاسلاموية - حزب العمال الكردستاني علماني بقدر ما يستطيع المرء ان يكون علمانيا - ولكن الكثير من الاكراد يصوتون للاسلامويين. وكما في اماكن اخرى، فان الأمور ليست كما تبدو في الظاهر: في تركيا إبان الثمانينات، كما في الجزائر وباكستان ومصر والاراضي الفلسطينية التي تحتلها اسرائيل، قامت الدولة بتشجيع الاسلاموية كوسيلة لعزل اليسار لتجد أن وكيلها أفلت من السيطرة. وتكمن اهمية تركيا لا في كونها رمز النزاع العلماني - الديني في العالم الاسلامي، بل لأنها تبين كيف ان اشكالا اخرى من المصلحة والهوية تتفاعل مع الدين بطرق متنوعة. ان تحليل هيو ونيكول بوب، شأنه شأن الجزءين اللذين حررهما حافظ، يمكننا من الابتعاد عن القوالب النمطية للمواجهة والورع التي كثيرا ما تثقل هذا الموضوع.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ الحداثة والتنوع

❖ لكن تشخيص النزاعات بين المسلمين وغير المسلمين ليس كافيا لتفسير مثل هذه التوترات أو لتحديد طريقة حلها. وهنا يمكن ان يكون بعض التغطية، المتمثلة في تقريري رانيميد وولتن بارك، مفتوحا للتساؤل. فكثيرا ما يبدو ان النيات السياسية والانسانية الطيبة طغت على التحليل السوسيولوجي. وهناك، في المقام الأول، مسألة السياق التاريخي. ومن المغري، لكنه مضلل، ان يُربط العداء المعاصر للمسلمين بتاريخ الصراع المديد بين «الاسلام» والغرب. وهذا ما يفعله بوبي سعيد - «عودة المظلومين» - دون دليل يؤكد ما يذهب اليه. والأكثر من ذلك فان من الخطأ عزو العداء المعاصر للمسلمين الى نهاية الحرب الباردة، حيث يبدو ان الكثير من المعلقين يظنون انهم اذكياء بتفسيرهم هذا: يفترض هذا سلفا شيئا لا يوجد دليل يُذكر عليه، وهو ان المجتمع الحديث، «الغرب»، يحتاج الى عدو. وعلى المرء ان يمارس مع هذا التحامل، بل وفي دراسة التحامل بصفة عامة، النقد السوسيولوجي ذاته الذي يُمارس مع الايديولوجيات الاخرى: سيجادل اصحاب النزعة «الدائموية» بأن مثل هذه الايديولوجيات دائمة، أكانت معاداة الاسلام أو معاداة السامية. ولكن القراءة الحداثوية ممكنة ايضا وأكثر معقولية.

يوفر الماضي احتياطا مرجعيا ورمزا للحاضر لكنه لا يفسره. فان حصار العثمانيين لمدينة فيينا عام ١٦٨٣ والحملات الصليبية لا تفسر السياسة الحالية بل تُستخدم من قبلها. كما ان التفسير الحداثوي، في ما يتعلق بهذا التحامل كما بغيره، يمنح املا اكبر، يتيح امكان التغيير. واذا كانت المواقف السلبية من المسلمين مواقف مشروطة أكثر من كونها متأصلة في النفسية الجماعية أو الطابع القومي للمجتمع الغربي، فالأرجح ان بالامكان عمل شيء ما بشأنها. وهنا يجازف التحليل الذي يتضمنه تقرير رانيميد بالمغالاة في طرح قضيته: اذا كان لم يزل هناك في الصحافة البريطانية «القومية» الكثير من التشويه فان هذا يُمارس بقدر اقل في الصحافة المحلية والاقليمية. وتغطية شؤون المسلمين في مدينة برمنغهام أو كارديف، على سبيل المثال، تغيرت بمرور السنين استجابة للتعليم والاحتجاج السياسي: ليس

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوضع ثابتا كما قد يبدو، ولذلك اسباب حداثوية. يمكن ان تضاف الى هذه التأرخة وجاهة الاختلافات القومية لدى الجانبين. فعلى الجانب الاوروبي، كما يُبرز جزءا كاي حافظ، هناك اختلافات هامة في التركيز والتحامل والتدخل حسب التواريخ الكولونيالية والموقع الجغرافي وتكوين السكان المهاجرين. وتتباين قضايا النزاع داخل المجتمعات الغربية: سلمان رشدي في المملكة المتحدة، غطاء الرأس في فرنسا، الخلاف التركي ـ الكردي في المانيا، العنصرية المعادية للعرب في الولايات المتحدة. وبالقدر نفسه فان علاقة المجتمعات الاسلامية المختلفة بالغرب علاقة متميزة. وقد ابدت النزعة القومية العلمانية والشيوعية من المقاومة بقدر ما تبديه الاسلاموية. وكان التحالف والتعاون شائعين بقدر ما كان النزاع: سعى القيصر الى قيادة المسلمين في الحرب العالمية الاولى، ودعَم الاتحاد السوفياتي «الجهاد» والتحرر الوطني منذ العشرينات حتى السبعينات، وقامت وكالة المخابرات المركزية (سي.آي.ايه) بتمويل «المجاهدين» الافغان في الثمانينات. يمكن ان يضاف الى تنوع التاريخ تنوع الهويات. فكل مَنْ هم مسلمون لا ريب يعتبرون الاسلام جزءاً من هويتهم. وهم يحترمون اركان الاسلام الخمسة ويمارسون طقوس الحياة بطريقة اسلامية ويحتفلون بالاعياد الاسلامية ويطلقون على اطفالهم اسماء اسلامية. وبالقدر نفسه من الأهمية والمركزية لهذه القضية فهم يشعرون بدرجة من الهوية المشتركة مع المسلمين المقهورين في اماكن اخرى ـ أكانوا في فلسطين أو البوسنة أو كشمير. ولكن هذه السمات المشتركة في الدين والممارسة والتضامن ليست القصة كلها. فالاسلام يمكن، في بعض السياقات، ان يكون الشكل الاساسي للهوية السياسية والاجتماعية ولكنه ليس الشكل الوحيد ابدا وكثيرا ما لا يكون الشكل الاساسي. وفي داخل المجتمعات المسلمة تكون الانقسامات الإثنية ذات اهمية بالغة، وفي احيان كثيرة ذات اهمية اكبر من الهوية الدينية المشتركة. ويصح هذا بالقدر نفسه على الهجرة. فهناك اختلاف بين الجنسين، بين الطبقات، بين اصحاب السلطة والثروة من جهة والمحرومين من الجهة الثانية. ولا يمكن فهم سياسة تركيا أو باكستان أو اندونيسيا

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مثلا على اساس الاسلام وحده. ورغم الخطابية فان الاسلام لا يفسر الكثير مما يحدث في هذه المجتمعات.

❖ الاختلاف والالتقاء

❖ لذلك فان الادعاء بوجود هوية اسلامية مشتركة تشويه اذا كان يراد به ان يعني اولوية مثل هذه الهوية. وهو تشويه بالقدر نفسه اذا كان يعني تفسيرا مشتركا أو معطى للتقليد. ولعل اكبر ضرر تلحقه استدعاءات «الاسلام» والجماعة والتقليد - بل خطابية اليوم عن الجماعية والهوية كلها - بعملية الفهم هو تشويه مدى التنوع والتغير في ما يُقَدَّم على انه «الاسلام» أو أي دين آخر. ودعوى الاصوليين، بل سائر النخب الدينية أو القومية التي تدعي تفسير ما هو دائم، تذهب الى انهم ممثلو شيء «معطى»: هنا تكمن المرجعية. لكن الحال ليست هكذا على الاطلاق. ويُفسر هذا تفسيرا جيدا في دراسات «الاسلام والغرب»، وهو جوهر التفسير الحداثوي للاسلاموية والفكر الاسلامي. بوب سعيد يرفض بشدة تفسير الاسلام تفسيرا احاديا ولكنه لا يقدم تحليلا محدَّدا مدروسا لما قاله المفكرون المسلمون أو لمفاهيمهم. والحق ان رفضه ذاته لاصلاحيين مثل الافغاني وعبده سيبدو وكأنه يعني التطلع الى نظرة مماثلة في جوهريتها وثباتها الى الاسلام.

ما يعنيه هذا لدراسة المجتمعات المسلمة ودراسة المسلمين في اوروبا الغربية هو تحليل «الاسلام» تحليلا اقل عمومية بكثير واقل اطلاقية بكثير مما كانت الحال في الغالب، أو كما يدعي ممثلو مجتمعات مسلمة كثيرا ما يكونون بطريركيين وطائفيين نصَّبوا انفسهم ممثلين بأنفسهم. فمن جهة، ما يُقدَّم على انه «اسلام» قد يكون اسلاما بحق ولكنه ليس التفسير الوحيد الممكن بأي حال. واظهر عزيز العظمة بوضوح، على سبيل المثال، في عمله «الاسلام والحداثات»، كيف ان رمز الاسلاموية المعطى في الظاهر، أي الشريعة، هو ذاته اختراع حديث وقابل للعديد من التفسيرات المشروطة: ليست هناك شريعة واحدة يستحضرها الاسلامويون. فان تفسير طالبان لموقع المرأة في المجتمع أو حظر صور الاشكال البشرية هو وجهة نظر واحدة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكنها وجهة نظر اقلية الى حد بعيد. وعلى الغرار نفسه تمثل اراء الاصوليين ضد تعلم النساء في الغرب ليكن طبيبات أو مهندسات تفسيرا اقليا آخر. وكان خطأ المناهضين للتحامل على المسلمين قبول صيغ محدَّدة وفي احيان كثيرة صيغ محافظة لذلك التقليد بوصفه «الجواب الاسلامي الحقيقي الوحيد». وحتى اكثر من ذلك التشويه الذي تمثله مماهاة المسلمين بمؤيدي الارهاب أو الجماعات الاصولية. فان عملا مثل مؤلَّف جيلز كيبل الذي خلاف ذلك يتحلى بالفطنة في احكامه Allah in the West «الله في الغرب»، يصوّر المسلمين في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة تصويرا خاطئا وكأنهم الى حد بعيد من انصار «مجلس المساجد في برادفورد» أو منظمة «المسلمين السود». وبنَفَس اشد تطرفا زعم الشيخ عمر بكري محمد من جماعة «المهاجرون» في يناير (كانون الثاني) ١٩٩٩، خلال الجدل حول اعتقال رعايا بريطانيين في اليمن، ان في كل مسجد في بريطانيا والشرق الاوسط يتلقى شباب مسلمون تدريبا عسكريا.

ما يتسم بالتحدي الأكبر من وجهة النظر التحليلية، دراسة التقاطع بين الهويات. اذ من السهل زيارة بلد مسلم أو دراسة جماعة مهاجرة ثم تقديم الجميع بمفردات الدين. ولكن ذلك يغفل هويات اخرى ـ هوية العمل والمكان والاثنية ـ وليس أخيرا، الطرق التي يتواصل بها المسلمون على اختلافهم بين بعضهم بعضا. وكل من لديه ابسط معرفة بحياة العرب الداخلية في بريطانيا أو الجاليات الباكستانية أو البنغالية سيعرف ان هناك من الاختلاف بقدر ما هناك من الالتقاء. والنزاعات المتكررة على اماكن العبادة ـ نزاعات شائعة بين المسلمين والهندوس والسيخ واليهود ـ تشهد على تدخل عوامل اخرى، علمانية، وعلى تفسيرات مختلفة للتقليد. والتحدي التحليلي يتمثل في تحديد كيف يجري تشكيل التقليد والدين، وكيف يُقدّم الحديث على انه التقليدي وكيف تلعب دورها عوامل اخرى تتعلق بالاثنية والطبقة والطائفة. لذا قد توجد حالات يكون «الاسلام» الهوية الرئيسية أو الوحيدة فيها، لا سيما حين يتعرض أناس الى الهجوم على هذا الاساس، ولكن مثل هذه الحالات نادرة. ولنأخذ القضية الدولية الاشد اثارة للانقسام في عقد التسعينات: اذا كان التضامن الاسلامي مع

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صدام حسين ممكنا فان بالامكان التضامن ايضا مع بلدان هاجمها العراق، وبالتحديد ايران والكويت، تماما مثلما توجد معارضة اسلامية قوية من جانب العراقيين ضد نظام صدام.

❖ معاداة الإسلام أم معاداة المسلمين

❖ ان مثل هذه المعالجة التي تعتمد التاريخية وتبتعد عن وضع الكل في خانة واحدة، صالحة لقضية تحديد التحامل على المسلمين وان يكون هناك شيء اسمه «معاداة الاسلام» فهذا صحيح بلا ادنى ريب. وليس من الصعب العثور على امثلة حديثة العهد في الصحافة البريطانية. ويمكن ان نرى اتجاهات مماثلة في اماكن اخرى: في الدنمارك جعل حزب الشعب مثل هذا العداء بندا مركزيا في برنامجه. وفي عام ١٩٩٨ انتجت هوليوود فيلم «الحصار»، الذي يركز على الارهاب الاسلامي ـ على نقيض لافت، كما تنبغي الاشارة، من المعاملة المتساهلة مع النزعة الجمهورية الايرلندية. ولا يقتصر هذا على العالمين المسيحي أو اليهودي. ولعل المثال الاسطع على معاداة المسلمين اليوم نجده في الهند. فان حزب جاناتا خاض الحملة من اجل اعادة انتخابه في عام ١٩٩٧ على اساس ثلاث قضايا معادية للمسلمين: اعادة بناء معبد ايوديا والغاء التشريعات القانونية الخاصة بالمسلمين وانهاء الوضع الخاص لمقاطعة كشمير. وتتبع قضايا اخرى ـ اعادة تسمية بومباي كناية بإلهة هندية واعادة كتابة كتب التاريخ ـ منطقا مماثلا. ان تقديم ماضٍ تاريخي متواصل من المجابهة قد لا يكون دقيقا من الناحية التاريخية فحسب بل يمكن ان يعزا السبب الى الدين، الى عامل ازلي، في حين يمكن ان تكون هناك اسباب اخرى، اكثر مشروطية ومعاصرة، تقوم بدورها. كما ان هذا الطرح يغفل المسألة المتعلقة بالشيء الذي يجري الهجوم عليه: «الاسلام» كدين كان العدو في الماضي، في الحروب الصليبية أو في استعادة الاندلس من المسلمين، انه ليس العدو الآن: الاسلام لا يهدد بكسب قطاعات واسعة من مجتمع اوروبا الغربية الى دينه، كما هددته الشيوعية، أو السجال في

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصحافة والاعلام أو التصريحات السياسية ضد الدين الاسلامي. ولا تصدر كتب تضع تعاليم محمد والقرآن موضع تساؤل. فالهجوم الآن ليس موجها ضد الاسلام بوصفه دينا وانما ضد المسلمين بوصفهم جماعة، بمن فيهم بل على الاخص، المهاجرون. وبالقدر نفسه، فان الهجوم المعادي للاسلام موجه ضد دول قد تكون من اكثر الدول علمانية في العالم مثل دولة صدام حسين. واذا تناولنا الدراسة بوصفها دراسة تنميط سلبي، لما يُسمى بالالمانية Feinbild «صورة العدو» فان العدو ليس ديانة أو ثقافة بل شعب. ومن هنا فان التسمية الادق ليست «معاداة الاسلام» بل «معاداة المسلمين». يمكن لاستعمال مصطلح «معاداة الاسلام» ان يوحي بعلاقتين اخريين مضللتين. احداهما ان المصطلح يعيد انتاج التشويه، الذي سبق بحثه، بأن هناك اسلاما واحدا. و«معاداة الاسلام» تركز على الامتثال والتسلط في المجتمعات الاسلامية: لا يستطيع المرء ان يتفادى الاحساس، في ما يتعلق بعمل مثل تقرير رانيميد، بأن عالم العلاقات العرقية استسلم لهذا المصطلح لاسباب تتعلق بالنفعية السياسية. كما ان استخدام «معاداة الاسلام» يتحدى امكان الحوار القائم على مبادئ كونية. وهو يشير، كما يفعل تقريرا رانيميد وولتن بارك، الى ان الحل يكمن في اجراء حوار اوسع، ومد جسور، واحترام الجماعة الاخرى. ولكن من المحتم ان يتعرض هذا الى خطر نفي الحق في نقد ممارسات اولئك الذين يجري الحوار معهم أو امكان مثل هذا النقد. فان اولئك الذين يعترضون على عناصر في التقليد الاسلامي أو الخطابية الاسلامية الحالية من منطلق حقوق الانسان العامة ليسوا وحدهم الذين يمكن بسهولة ان يُصنّفوا على انهم «معادون للاسلام» بل معهم اولئك الذين يتحدون القراءات المحافظة من الداخل. والدعوة الى الحوار، وهي دعوة تفترض مسبقا وجود جماعات متجانسة، تشدد على فهم «الآخر» بدلا من الاشتباك مع الطرق التي تنتهك بها جماعات، قومية كانت أو دينية، حقوقا كونية. والخطر في هذه التقارير هو ان مَنْ يحددها، إن لم يكن مَنْ يحتكرها، هم ممثلو هيئات دينية ومنظمات اجتماعية يطبقونها على مواضعات الحوار بين الاديان. وللكنائس دور في تثقيف اتباعها

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بمذهبها ولكن ايضا في توعيتهم بالحياة اليومية والمظالم السياسية عند المذاهب الاخرى، بمن فيها المسلمون. ولا يمكن ان يكون هذا بل ينبغي ان لا يكون على حساب المعاينة النقدية للطريقة التي تعامل هذه الاديان بها اعضاءها. «معاداة الاسلام» قد تكون ذات نتائج عملية تثير البلبلة ايضا. فالمظالم التي يعبر عنها المسلمون في أي مجتمع يمكن ان يكون لها ارتباط مباشر بقضايا دينية، تتعلق بالمناهج المدرسية، الملبس، التغذية، الاحتفال بالاعياد. ولكن الكثير مما يُقدَّم على انه نقد اسلامي للغرب لا يمت بصلة تُذكر أو لا يمت بأي صلة الى الدين. انه احتجاج علماني وكثيرا ما يكون احتجاجا قوميا دون ان ينتقص هذا من مشروعيته.

ودعم الفلسطينيين، وشجب هيمنة الغرب في السوق النفطية، والتضامن مع العراق، واستنكار الامبريالية الثقافية، والاحتجاج على المعايير المزدوجة حول حقوق الانسان ـ هذه كلها جزء من ادانة «المسلمين» للغرب ولكنها ليست بالضرورة دينية في مضمونها أو خاصة بالعالم الاسلامي. فشجب الصين للتدخل الغربي في مجال حقوق الانسان على اساس انه انتهاك للسيادة هو نفسه الشجب الايراني لهذا التدخل، ولا يمت بصلة تُذكر الى الايمان ولكنه يمت بصلة قوية الى السلطة السياسية في العالم المعاصر. وعلى الغرار نفسه، فان قضايا الهجرة والاسكان والعمل والتحامل العنصري والعنف ضد المهاجرين في المجتمعات الغربية ليست قضايا دينية تحديدا. تسمية «باكي» Paki البريطانية يمكن في اعتداء عنصري يرتكبه شبان بيض، ان تستهدف احدا من الهندوس أو السيخ أو مسيحيا من تاميل نادو بقدر ما تستهدف مسلما. كما ينبغي عدم اغفال الدلالات الدولية لهذا كله لأسباب، ليس اقلها انها تؤثر تأثيرا مباشرا في مستوى الحوار داخل المجتمعات الغربية: انتهاك حقوق الانسان باسم الدين أو السطلة العلمانية يُمارَس في عدة مجتمعات مسلمة. والتحليل الذي يجري في الغرب للمواقف من الاسلام وتمثيلات التقليد الاسلامي لا يمكن ان يكون بمعزل عما يجري «داخل المجتمعات المسلمة نفسها»: هنا تُرتَكب انتهاكات فظيعة لحقوق الانسان ضد المسلمين باسم الدين. والمعركة ضد الاصولية ليست بين

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغرب والعالم الاسلامي، كما يصورها ادوارد سعيد، وانما هي معركة داخل العالم الاسلامي نفسه: ابسط قدر من الاطلاع على التاريخ الأخير لايران أو افغانستان أو باكستان أو مصر أو الجزائر سيؤكد ذلك. والذين يحتجون بأعلى صوت على مثل هذه الانتهاكات هم مواطنو هذه البلدان، أي المسلمون انفسهم: احتجاجاتهم تصاغ بمفردات كونية وتطالب برد كوني. ويصح هذا على السجناء السياسيين والنقابيين والصحافيين والنساء مثلما يصح على ممثلي الجماعات الاثنية المحرومة من الاعتراف والحقوق داخل البلدان المسلمة. ثمة قضايا صعبة ـ كما في أي نقاش لحقوق الانسان ـ تتعلق بدقة المعلومات والمقاربة المعتَمَدة والحياد. ولكن نفي حقهم في الاحتجاج على اساس انه لا يمكن ان يكون هناك إلا صوت اسلامي واحد، أو ان استنجادهم بمبادئ كونية ينتهك التقليد، انما هو استنتاج متناقض يخلص اليه الذين يبدأون بالاحتجاج على تمييز غير المسلمين ضد المسلمين. ان «معاداة الاسلام»، شأنها شأن سلفها «الامبريالية»، يمكن ان تُستخدم بكل سهولة لاسكات خصوم الدول القومية ونخبها.

❖ عودة إلى الكونية

❖ تكمن في اساس الكثير من هذا النقاش والمناظرات السياسية المسألة المتعلقة بمدى قدرتنا على تطبيق مقولات كونية في التحليل والاخلاق على جماعات دينية وسياسية مختلفة. وتذهب الموضة الراهنة الى ان هذا لم يعد ممكنا أو مرغوبا فيه: هنتنغتون على اليمين وادوارد سعيد من اليسار، سيتفقان كل بطريقته، وكذلك الاسلامويون وخصومهم المعادون للمسلمين في الغرب. ولكن من الجائز أن الأمر كله ليس نسبيا كما يبدو. ففي المقام الأول، فان الكثير من اللغة السياسية للاحتجاج والاختلاف ذاته جزء من قاموس كوني: يصح هذا على استحضار الحقوق كونيا بقدر ما يصح على مبادئ السيادة والاستقلال الوطني، وهي مبادئ كونية وحديثة للغاية. وعلى الضد من بوب سعيد اتمسك بالمحاجَّة الحداثوية القائلة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ان الكثير من خطابية الخميني، مثلها مثل خطابية الاسلامويين في اماكن اخرى، مشتقةّ من قاموس شعبوي وثوري حديث وغربي. وعلى الرغم من كل رفض الاسلامويين لجوانب من العالم الحديث فانهم يتصارعون مع قضايا مماثلة ويستخدمون ادوات مماثلة تتبوأ الدولة الحديثة وموارد الاقتصاد الحديث موقعا مركزيا بينها. ومن ابرز التوكيدات على هذه الكونية واكثرها اصالة ما جاء على لسان الرئيس الايراني محمد خاتمي: يجادل خاتمي انطلاقا من توافر عقل مشترك وتفاعل ثقافي وفكري متبادل لصالح امكانية وجود قيم مشتركة. ولا يكون هذا السياق الحديث مهما بقدر اهميته في ما يتعلق بالانقسام الذي يباعد، ربما اكثر من اي انقسام آخر، بين المسلمين ومواطنيهم غير المسلمين أو بين الدول الاسلامية والغرب، وهو اللامساواة بين الاغنياء والفقراء في العالم المعاصر. والاسلاموية شكل من اشكال الاحتجاج - السياسي والأشمل - على الهيمنة الخارجية مثلما ان الحركات الاسلاموية داخل هذه المجتمعات احتجاج على السلطة الاجتماعية والسياسية التي تستبعدها. ولكن من المهم، وهذه نقطة ينساها اصدقاء المقاومة ما بعد الحداثويين، ان يُلاحظ ان الاسلامويين بعيدون عن كونهم اول من تحدى لامساواة الحداثة: القومية من جهة والحركات الاشتراكية والشعبوية والشيوعية من الجهة الاخرى، نازلت الهيمنة الغربية زمنا طويلا. وكان القرن العشرون قرن رفض لا هوادة فيه للهيمنة الغربية قبل زمن طويل من ظهور الخميني والجبهة الاسلامية للانقاذ على المسرح.

ولكن المشاكل المطروحة هي ليست ما اذا كان بامكان هذا التحدي ان يتكلل بالنجاح بل ما اذا كان من الممكن ان تُرتكب انتهاكات للحقوق في طرح مثل هذه التحدي. فان علاقات القوة والتشويهات التي تتعرض لها الحقيقة والتاريخ تحدث داخل الحركات الاحتجاجية بقدر ما تحدث في العلاقات بين هذه الحركات ومضطهدِيها. ومن هنا الانقاذ الكاذب الذي يعد به مَنْ يسعون، بدافع وحدة عالمية حسنة النية أو التزام متحزب، الى استبعاد امكانات الحوار النقدي ازاء اولئك الذين

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يستحضرون الخطاب الديني. ان البديل من صدام الحضارات لا يكون بالضرورة المداراة المتبادلة بين الجماعات.

(٥) بعد عقد على الغزو.. تململ في الكويت

❖ معرض الكتاب السنوي الذي تشارك فيه دور نشر عربية تعرض خلال العامين الأخيرين إلى ضغوط من الإسلامويين

❖ تردد بأن السفير الإيراني في الكويت أبلغ خطباء المساجد الشيعة أنه لا يريد أي مشاكل منهم.

❖ حين التقيتُ الوزير الصبيح وعد بتقصي السبب وراء منع كتابي «الإسلام وخرافة المواجهة» وبعد أيام قليلة أُعفي من منصبه

❖ غالبية الناس ترى أن الغرب هو الذي يبقي صدام في السلطة

❖ جاء في الحلقات السابقة من كتاب «ساعتان هزتا العالم» للأكاديمي الآيرلندي المعروف فريد هاليداي، ان صعود الجماعات الاصولية لم يعقب الحرب الباردة نفسها بل هو نتيجة لا تنفصل عنها. ويرى الكاتب ان الحرب الباردة تركت وراءها «مزبلتين»: ترسانة من الاسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية، وطائفة من العصابات الاجرامية من اونيتا في انغولا والمهاجرين الكوبيين في الكاريبي وحتى الفصائل الافغانية. وعن الاصولية يقول انها ليست نتاج الاديان التوحيدية وحدها، بل شملت بعض الآيديولوجيات، وان اكبر جرائم القرن الماضي لم يرتكبها اصوليون. كما ينتقد الكاتب الاطروحة القائلة بأن الاسلام يهدد الغرب، ويقول ان العالم الاسلامي لم يشكل منذ ثلاثة قرون اي تهديد للغرب، واذا كان هناك تحد اقتصادي اليوم فانه يأتي من الشرق الاقصى وليس الاوسط. كما دعا الغرب الى

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

احترام الاسلام ودراسته وفهمه بدل رسم صور نمطية معادية لهذا الدين. ويرى ان الاسلام لم يمثل اي تهديد في السابق كما فعلت الشيوعية للمجتمعات الغربية. وفي هذه الحلقة يتطرق الكاتب الى تداعيات الغزو العراقي للكويت ويقول ان الكويتيين يعيشون تململا في عدة مناح. وفي ما يلي الحلقة الخامسة.

❖ بعد ما يزيد عن عشر سنوات على غزو العراق الوحشي المباغت، توحي الكويت، من الوهلة الاولى، بالعودة الى الحياة الطبيعية. فالاضرار التي الحقها العراقيون بالمباني أُصلحت كلها عمليا، وحقول النفط عاملة، وللدولة علاقات دبلوماسية طبيعية حتى مع بلدان مثل الاردن واليمن والسودان كانت قد اختلفت معها في ١٩٩٠ - ١٩٩١. وما زال الأمير جابر والشيخ سعد رئيس الوزراء وولي العهد، والشيخ صباح وزير الخارجية، في مناصبهم. وهناك حتى بعض النتائج الايجابية للاحتلال. فالبرلمان الذي حله الأمير في عام ١٩٨٦، أُعيد فور التحرير. والمئات من الديوانيات، أو حلقات النقاش الاجتماعية والسياسية، التي يتوافد عليها الرجال الكويتيون، وبصورة منفصلة، النساء، في أوج نشاطها. والصحافة متميزة بمدى حريتها، الأوسع في منطقة الخليج. وانحسر النزاع بين السنة والشيعة من السكان، الذي أذكته الحرب الايرانية - العراقية في السنوات ١٩٨٠ - ١٩٨٨، وعدد من الأعمال الارهابية داخل الكويت. حتى البيئة تمتعت بآثار جانبية ايجابية من النزاع: خففت انقاض الحرائق النفطية التي اشعلها صدام حسين عند رحيله من وطأة العواصف الرملية.

❖ الكويتيون: صدام لم يتغير ذرة واحدة

❖ ولكن تحت سطح هذه المدينة، التي لها مركز يشبه طراز مدينة اميركية حديثة من غير كحول، يستمر جُرح ١٩٩٠ - ١٩٩١، وبحدة أشد في بعض النواحي. فان صدمة وقوع غزو مباغت، حتى وإن كان غزوا حدث عندما كان اكثر من نصف السكان خارج البلد في ذروة حرارة الصيف، اصابت الجميع: الوف قُتلوا، ومكاتب ومبان رسمية وبيوت عائلات نُهبت. وفي مركز الابحاث والدراسات

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكويتية ينتجون سيلا من الأدبيات والمؤلفات القائمة على نصف مليون وثيقة خلَّفتها قوات صدام وراءها اثناء هروبها: شهادات المقاومة الكويتية معروضة في وثائق ضباط المخابرات العراقية، وخطط لتدمير حقول النفط، وقوائم بالبضائع المعدة للسرقة والنقل الى العراق. والذين نهبوا المتحف الوطني كانوا يعرفون ما يبحثون عنه. أخذوا ايضا حيوانات من حديقة الحيوانات. كما أُخذت طائرات قيمتها بلايين الدولارات، بعضها دُمر على الارض في العراق، وبعضها الآخر نُقل الى ايران ثم أعادته طهران بعد مفاوضات مديدة. الجميع يعرف ان ما حدث يمكن ان يتكرر ثانية، كما شعر التشيكي أو البولندي في عام ١٩٥٥ بأن هتلر ما زال هناك متربصا في الجوار بدروع مجهولة، يزيد عائداته النفطية شيئا فشيئا. الوف العسكريين الاميركيين والبريطانيين يتمركزون خارج مدينة الكويت، غالبيتهم مسموح لهم بزيارتها، مع ابقاء الطيارين بعيدا عن الانظار خشية الاعمال الانتقامية. الاحتياطات الأمنية في السفارات الغربية لا تترك مجالا للشك في ان تهديد الاعمال العراقية تهديد دائم. اتناول العشاء في منزل سياسي كبير من المعارضة. في السبعينات كان يزور صدام بوصفه مبعوثا خاصا من الأمير على أمل التوصل الى حل وسط على الحدود. وبعد حادث وقع في عام ١٩٧٣، عندما قامت القوات العراقية بتعرض محدود ضد القوات الكويتية على امتداد الحدود، عنَّفها صدام لما ابدته من ضبط النفس. «حين تزعجك قطة، لا تجر ذيلها بل تقطع رأسها». بعد عام ١٩٧٩ عندما قتل صدام العديد من رفاقه القريبين وشرع في السير على طريق العدوان الذي قاد اولا الى الحرب مع ايران ثم الى الحرب مع الكويت، قُطعت جميع الاتصالات. يُريني مضيفي كيف اشعل الجنود العراقيون النار في جزء من بيته حين كانوا يطهون في غرفة الجلوس. صديق شكل لجنة للدفاع عن حرية التعبير في الكويت ضد الاصوليين، يروي لي، في الطريق الى منزله، خبراته اسيرا في العراق: الوف محشورون في ثكنة متداعية بلا مرافق صحية، لا شيء للنوم عليه، النزلاء يتبولون على بعضهم بعضا، صديق يموت بمرض السكري لعدم توفر الدواء، رعب القصف خلال الحرب الجوية، المصادفة التي كادت تكون مميتة عند حاجز للثائرين على صدام ايام انتفاضة مارس

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(آذار) التي اعقبت الحرب. صديقي، الذي امضى حياته معارضا للهيمنة الغربية في المنطقة، انطلق مع كل اصحابه هاتفا «عاشت اميركا» حين مروا بأولى الحواجز الغربية في طريق العودة الى الوطن. ما زال هناك احساس دفين، دائم بانعدام الأمن. فان صدام لم يتغير ذرة واحدة، والجميع يعرف ذلك. وهو قادر على ان يبدأ الأمر كله ثانية صباح غد. في عموم المدينة اشارات تدل الناس الى اقرب ملجأ ضد الغارات الجوية. المناورات التي تجري في الامم المتحدة لتخفيف العقوبات تثير قلق الدبلوماسيين. وهناك في المقام الأول، قضية المفقودين التي ما زالت تدمي القلوب: الوف عادوا ولكن أكثر من ٦٠٠ آخرين لم يعودوا، اسماؤهم في قوائم، ووجوههم على ملصقات. بعد انقضاء عشر سنوات لم يُسمع نبأ عنهم بالمرة: العراقيون يرفضون ان يؤكدوا أو ينفوا انهم احياء. حتى قادة حزب البعث الكويتي الذين رفضوا تأييد الغزو، في عداد المفقودين. وما يديم الأمل بأنهم قد يكونون احياء ظروف اعتقالهم قرب نهاية الحرب، والكشف مؤخرا بأن العراق احتجز ايرانيين، بدون علم أحد، طيلة سنين بعد الحرب مع ايران. كل عائلة منكوبة، مباشرة أو بقريب. أزور مسؤولا كبيرا في وزارة الخارجية يعبر عن قلقه من العراق. لم أعلم إلا بعد مغادرتي، من احدهم بأن له ابنين ما زالا مفقودَين.

❖ تصحير المجتمع الكويتي

❖ في تلك الحرب وقفت الكويت الى جانب العراق - «لم يكن لدينا خيار»، كما قال احد المسؤولين - وتردت العلاقات مع الشيعة الذين يشكلون ٢٥ في المائة أو نحو ذلك من السكان. وجرت محاولة لاغتيال الأمير في عام ١٩٨٥ الى جانب حوادث اخرى. فقد الشيعة نفوذهم في القوات المسلحة والادارة لصالح العناصر القبلية. ورغم ان الشيعة قاموا في عام ١٩٩٠ بدور بارز في المقاومة، واضعين نصب اعينهم مصير اقرانهم في العراق، فان الغزو، بالقائه اعباء اكبر على عاتق المجتمع، دفع هذه العملية في تقوية التوجه المحافظ شوطا ابعد. وكانت النتيجة ما يسميه احد السوسيولوجيين «تصحير» المجتمع الكويتي. لم يكن وضع الشيعة في الكويت :

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وضعهم افضل منه في أي بلد عربي سني آخر. وقد منحهم الاصلاح الأخير في النظام القانوني محكمة تمييز خاصة بهم. وهم لديهم نوابهم في مجلس الامة الكويتي. كما ان تحسن العلاقات مع ايران بعد ١٩٩٠ ساهم بقسطه: تردد بأن السفير الايراني ابلغ خطباء المساجد الشيعة مؤخرا انه لا يريد أي مشاكل منهم. كانت ايران تحتاج الى علاقات سياسية ومالية طيبة مع الكويت. ولكن صعود الاصولية السنية، يقلق الشيعة بقدر ما يقلق الليبراليين. جماعة «الاخوان المسلمين»، الأكثر حذرا، منظَّمة في «الحركة الدستورية الاسلامية»، تدَّعي انها قطعت منذ عام ١٩٩٠ صلاتها مع نظيراتها السنية (التي دعمت العراق) في اماكن اخرى. ودعا رئيس الوزراء مؤخرا الى غلق «الصناديق الخيرية» التي يضعها الاصوليون في انحاء البلاد. وكان رد فعل احد القادة الاسلامويين بالقول انه، اذا حدث ذلك، سيدعو الى غلق جميع الكنائس والحسينيات غير المرخص بها في البلد. وعندما اتخذت الحكومة اجراء يحظر على المرأة وضع النقاب خلال قيادة السيارة انطلقت دعوات الى الرد بالعنف. وتتنامى بلا هوادة معارضة اسلاموية خارج اطار البرلمان. وثمة الكثير من الاستنكار ضد «الغزو الثقافي» ولكن هذا المصطلح يطاول ايضا أي جهات قريبة (حتى الشيعة). القضية التي تَبَلور حولها هذا النزاع الذي بات الآن ثلاثيا هي قضية حق المرأة في التصويت. فمنذ الاستقلال في عام ١٩٦١ اقتصر حق التصويت والترشح في الانتخابات على الرجال الكويتيين وحدهم. خلال الاحتلال العراقي وعد الأمير بأن المرأة التي قامت بدورها في حركة المقاومة الوطنية ستُمنح حق التصويت بعد التحرير. وقد ماطلت الطبقة السياسية فأصدر الأمير، بعد حل البرلمان والدعوة الى انتخابات جديدة، المرسوم رقم ٦٠، حول مشاركة المرأة في الانتخابات القادمة عام ٢٠٠٣، وقد أُجهض المرسوم بتصويت المعارضين لحق المرأة في الانتخاب الذين انضم اليهم اخرون قالوا انهم مع هذا الحق لكنهم لا يريدون من الأمير أن يلقنهم بشأن الاصلاح السياسي. ثم طُرح المرسوم على التصويت مرة اخرى، وفيما تجمعت النساء في المقصورات العلوية لمبنى البرلمان الأبيض الدرامي، العديد منهن يرتدين قمصانا برتقالية كتب عليها «نعم للحقوق في ٢٠٠٣»، مارس النواب الذين كلهم من الرجال، تحتهن، ادوارهم المعدَّة.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

استُقبلت بالتصفيق محاجَّة حسن جوهر حياة، وهو عالم سياسي، بأن لا شيء في الدستور يمنع المرأة من التصويت. ولكن في النهاية انتصرت المماطلة والبطريركية مرة ثانية: كانت النتيجة بأغلبية ٣٢ مقابل ٣٠ صوتا ضد حق المرأة في التصويت. ولمس عالم سياسي طاف على ديوانيات نواب معارضين بعد التصويت مزاجا من البهجة بين الرجال الذين تجمعوا فيها.

❖ السفير الأميركي وحق المرأة في التصويت

❖ نائب اسلامي روى حكاية امرأة يعرفها كانت تسهر على والدها المريض في المستشفى: لو كانت نائبة لما تمكنت من القيام بذلك. آخرون استشهدوا بنصوص من القرآن والحديث. الموضوعات البطريركية العامة مغلفة في شكل محلي وجماعوي، كانت واسعة الانتشار. البعض لام السفير الاميركي لمجاهرته بدعم الحملة من اجل حق المرأة في التصويت. ففي الكويت، كما في بلدان اخرى مثل مصر، يتخذ التحالف بين الاسلامويين واعداء الامبريالية من اليساريين السابقين، مواقف متزمتة من القضايا الاجتماعية. واصبح عبد الله النفيسي، قائد معسكر المستقلين سابقا، حبيب الاسلامويين. وفي الحقيقة كان تصويت البرلمان اسوأ بكثير من الهزيمة بـ ٣٢ مقابل ٣٠ صوتا لأن معسكر المؤيدين ضم حوالي ١٢ وزيرا معينا في البرلمان بقرار من الأمير. غضب النساء المحتشدات كان باديا. وفي الجامعة اعطت استاذة ملتزمة بهذه القضية منذ زمن طويل، اشارة السقوط بابهامها عن نتيجة التصويت عند مرورها بصف في ساعة الامتحان. احد طلابي في كلية لندن للاقتصاد سألني قبل يوم من مغادرتي، «لماذا حاربنا للدفاع عنهم اذا كانوا لا يريدون منح المرأة حق التصويت؟». في اليوم التالي وصلت شبكة «سي ان ان» لتغطية القصة. يوم سيئ للكويت ولاصدقائها، ولسمعة العالم العربي والاسلام.

القضية الاخرى التي كشفت الاسلاموية عن نفسها فيها هي الرقابة. فلقد كانت لدى الكويت منذ زمن طويل وما زالت لديها اكثر وسائل الاعلام حرية في العالم العربي. ولكن معرض الكتاب السنوي الذي تشارك فيه دور نشر من سائر انحاء

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العالم العربي، تعرض خلال العامين الاخيرين الى ضغوط من الاسلامويين. وتقوم لجنة رقابة بفحص جميع الكتب. في عام ١٩٩٨ مُنع حوالي ٤٠ كتابا، وفي عام ١٩٩٩ ارتفع الرقم الى ٢٠٠٠ كتاب. ومن بين الممنوعات اعمال عن تاريخ الاسلام ومؤلفات كتبها محمد اركون وآخرون. كتابي «الاسلام وخرافة المواجهة»، الذي صدر بالعربية عن دار الساقي، من بين الكتب الممنوعة. جميع الكتب التي تشير الى الاسلام تحال على لجنة في وزارة الاوقاف. وحين التقيتُ الوزير الدكتور عبد الخالق الصبيح وعد بتقصي السبب وراء منع الكتاب والكتابة الي. قال ربما هناك خطأ في الترجمة. وقد لا اعرف ابدا، فبعد ايام قليلة أُعفي الدكتور الصبيح من منصبه. في معرض الكتاب كان في جناح دار الساقي الكثير من الأدبيات ولكن عشرات من الكتب الأخرى لم تكن هناك. مجلتها «ابواب» كانت معروضة للبيع ولكن اعدادا منها مُنعت ايضا. قضايا كان من الجائز ان تثير قلقا لم تفعل ذلك: احد الناشرين عرض مجموعة ترجمات لكتب تشي غيفارا. كانت من بين الحاضرين الأديبة الكويتية ليلى العثمان التي كانت مع كاتبة اخرى موضع محاكمة في قضية قصص كتبتها قبل عشر سنوات. قصص ليلى العثمان تتحدث عن عالم متقد عاطفة، زاخر بالتوتر، مترع بالتحول، تعيشه المرأة الكويتية. غدر الاقارب والجيران يطارد صفحاتها. «زهرة تدخل الحي» تروي كيف يشتري حديثو النعمة مناطق كانت مغلقة بوجه الغرباء. «تهديم الاسوار» قصة مريرة ترويها امرأة محبوسة الآن، لانجابها طفلا غير شرعي، بعدما استدرجها زوج اختها اثناء وجودها للعناية بأطفاله. توترات مخفية، البحر، تقلبات الدهر تتخلل صفحاتها. لا ريب في ان هناك الكثير مما يشغل الاسلامويين المهوسين بالجنس. وفي الآونة الأخيرة كان كاتبان آخران من علماء السياسة، موضع ملاحقة قضائية: احدهما علي بغدادي رئيس القسم الجامعي، أُفرج عنه بمرسوم من الأمير بعد اسبوعين من حكم بالسجن اربعة اسابيع. والثاني الدكتور شملان العيسى، غادر البلد الى واشنطن لمدة عام احتجاجا. امرأة ناضلت طويلا ضد تأويل الدين تأويلا محافظا تواصل تحديها: تقول لي «يجب ان نلوي اعناق هذه النصوص لنستخرج احسن ما فيها». ان الفشل في تمرير مشروع حق المرأة في

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التصويت عبر البرلمان، واجواء التضييق العامة على حرية التعبير يسلطان الضوء على ما هو احساس كامن بالضياع السياسي، أو «الركود»، حسب التعبير العربي. كانت الحكومة مع حق المرأة في التصويت واصدار قانون للضمان الاجتماعي اجهضه الاسلامويون ايضا على اساس انه قانون «لا اسلامي»، ولكنها لم تتحرك بشكل حاسم لحشد التأييد. وبوجود القادة انفسهم في الحكم منذ ما يربو على عقدين ثمة شعور واسع الانتشار بخمول في القمة. ثلاثة امثلة ستكون وافية: المتحف الوطني الجديد لم يفتح ابوابه مجددا بعد عام ١٩٩٠ لما يتردد عن اندلاع شجار بشأنه. قرار ببناء معمل للالمنيوم معطل منذ سنوات لغياب التفويض بشأن بنود المشروع وعدم التأكد من موثوقية التيار الكهربائي (في منتصف الصيف عندما يقوم سائر المواطنين الكويتيين بتشغيل مكيفاتهم) واجور الكهرباء. المفاوضات متعثرة مع شركات نفط اجنبية حول تطوير حقول نفطية جديدة في الشمال بسبب عدم الاتفاق على شروط الامتياز. مجلة «الزمان» الاسبوعية التي يملكها الشيخ ناصر، احد ابناء وزير الخارجية الشيخ الصباح، تعبر عن القلق من الجمود ولكن بلا جدوى حتى الآن.

الذين يجاهرون برأيهم قد يتعرضون الى التمييز، ولكن لم تقع اعمال عنف بمستوى اغتيال نائب يساري معروف بمواقفه النقدية بعد التحرير بفترة قصيرة، ولكن ما زالت هناك اشكال ضغط اقل تفجرا، من تحت بقدر ما تمارس من فوق. مشاعر الاحباط بغياب التغيير محسوسة في الوزارات والمؤسسات الاكاديمية. ومن الامثلة الكلاسيكية على الشلل اخبار التلفزيون الكويتي باللغة الانجليزية: نسخ للنشرات العربية الرسمية، بسيل لا ينتهي من البيانات الجافة والرتيبة عن فعاليات الحكام بانجليزية اميركية جامدة يقرأها مذيعون في دشاديش. شخص كان يدرّس في احد اقسام الأدب الانجليزي قال لي انهم لا يستطيعون تناول ادباء من اميركا واستراليا لأن لغتهم لا يُعترف بها لغة «انجليزية». وفي المجتمع بصفة عامة فان هذه الخمول عاجز عن مضاهاة النشاط في القاعدة. الحصيلة ان قائمة الكتب والقصائد المسموح للمدرسين باعطائها لطلابهم كي يقرأوها، اخذت تقصر مع امتداد منع اسلاموي مبهم، غير رسمي لكنه لا يُقاوم الى كتب وقصائد اكثر فأكثر. آن

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آيدرس مردوك ممنوعة لأنها مع المثليين. جون دون أو بايرون ممنوعان لأنهما يتحدثان عن الحب. تبقى هناك اعمال مأمونة الجانب: تشوسر، هربرت، جوزيف كونراد، عمل جيمس جويس «صورة الفنان في شبابه».

ولكن في الكويت اجواء من التسامح الديني الواسع. ليست هناك مساجد سنية في طهران. في الكويت، على الضد من ذلك، لا تتعايش الطائفتان المسلمتان جبنا الى جنب فحسب بل هناك ايضا ممارسة علنية للشعائر المسيحية. وفي مجموعة من الكنائس قرب فندق شيراتون تقام قداسات بالانجليزية والعربية (شعائر لاتينية ومارونية) ولغات الجنوب الاسيوي: تاميل، تاغالوغ، كونكاني، مايلالام. في الاحمدي في الجنوب يرتاد المتعبدون كنيسة «سيدتنا في الجزيرة العربية».

❖ علاقات سليمة لكن متوترة

❖ بيد ان هذا التسامح ينتهي عندما يصل الى العلاقة مع غير الكويتيين في الاقتصاد والحياة الاجتماعية. فالطفرة النفطية استقدمت، على مر العقود، جيشا جرارا من المهاجرين الذين يتولون القسم الأعظم من العمل. قبل عام ١٩٩٠ كان كثير من هؤلاء عربا ولكن الغالبية العظمى أُبعدت. الجالية الفلسطينية انخفضت من حوالي ٣٥٠ الفا الى ما يقدر بـ ٣٥ الفا اليوم. في الاسابيع التي اعقبت التحرير كانت المعاملة السيئة مورست على نطاق واسع. واليوم هناك عشرات الالوف من المصريين كثيرون منهم يعيشون في ظروف اشبه بحياة الثكنات. وفي اعمال شغب اندلعت مؤخرا في ضاحية خيطان، نتيجة مشاجرة مع صاحب متجر اسيوي، قُتل عدة مصريين. وهذا موضوع يثير شعورا بالقلق. وكان وزير كبير شبَّه مؤخرا وضع العمال الاجانب، من فراشي الدوائر الرسمية الذين يتقاضون ١٧ دينارا كويتيا في الشهر، بالعبودية. مثقف عربي زائر، خاطر بسمعته مدافعا عن الكويتيين في عام ١٩٩٠، يجد ان هناك اجواء من العنصرية والحساسية المفرطة. المقيمون الاجانب يتحدثون بحرارة عن الحياة في الكويت، عن الود والأمن الذي يعيشونه. التأخيرات البيروقراطية التي يتعرضون لها يلقون مسؤوليتها على المصريين. ثم يضيفون بهدوء،

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

«لكن عليك ان ترى الطريقة التي يعامل بها الكويتيون خدامهم». العلاقات مع العالم الخارجي علاقات سليمة الآن من حيث الاساس لكنها متوترة بسبب الجيران. الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية الذي كان يوزع المال على نطاق واسع قبل عام ١٩٩٠ ثم رأى ان العديد من متلقيه الكبار يدعمون العراق، ما زال يحجم عن تقديم مساعدات الى الاردن واليمن والسودان. وتذهب المساعدات الآن بدلا من ذلك الى البوسنة والبانيا. وقد عاد بعد سنوات السفيران اليمني والسوداني وقدما اوراق اعتمادهما الى الأمير. وتضم الكويت صوتها الى جانب القضية الفلسطينية، وتنشر صحافتها حملات عفا عليها الزمن ضد «الصهيونية» حتى مع استمرار المواقف القاسية من الفلسطينيين. العلاقات مع بريطانيا واميركا وثيقة ولكن هناك توجسا من نيات مرشحي الرئاسة الاميركيين القادمين ونزق الرأي العام الغربي.

على بعد ساعة بالسيارة الى الشمال من الكويت، عبر تضاريس طُهِّرت من المظاهر الابرز للحرب الأخيرة، يتبدى واقع هذه المواجهة المشلولة امام الانظار. فعند بوابة معسكر خور، مخفر الامم المتحدة داخل الاراضي الكويتية مباشرة، يتحدث افراد الكتيبة البنغلاديشية، أو «بنبات» BANBAT بأدب ولكن بحزم: لا تخويل، لا دخول. نحتسي مشروبات غازية في احد بيوت الحرس حيث اوامر بالبنغالية والانجليزية معلقة على الحائط. ملاحظة تأمر بتسيير دوريات طوال الليل للتوثق من انارة اعلام الامم المتحدة في موقعهم. ينتقل الحديث مع افراد كتيبة «بنبات» الى العلاقات الدولية. يسألني احد الضباط «ما هو دور عمليات حفظ السلام في عالم احادي القطب؟» هنا تحت شمس الجزيرة العربية اللاهبة يتبدى واقع حفظ السلام الذي ندرّسه في محاضراتنا. «سلام العالم يقع على عاتقنا»، يقال لي، وأنا أؤمن بذلك.

يصل ضابط. نؤخَذ الى قاعة للمؤتمرات الصحافية مليئة بالخرائط. لجنة الدفاع في مجلس العموم غادرت لتوها. يونيكوم تراقب المنطقة منزوعة السلاح التي تمتد خمسة كيلومترات داخل الاراضي الكويتية وعشرة كيلومترات داخل العراق لمسافة ٢٠٠ كيلومتر على الارض وصولا الى حيث تلتقي الحدود الكويتية ـ العراقية بالعربية

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السعودية، و٦٠ كيلومترا في البحر. وفي هذه المنطقة لا يمكن للكويتيين والعراقيين إلا ان يكونوا من افراد الشرطة وألا يحملوا إلا اسلحة شخصية خفيفة. تتألف يونيكوم، التي يقودها حاليا جنرال ايرلندي، من مراقبين ينتمون الى ٣٢ بلدا، بينهم ٧٥٠ رجلا هم افراد كتيبة «بنبات» وفريق طبي الماني ومجموعة لوجيستية ارجنتينية ووحدة هندسية. ولدى كل من الاعضاء الدائمين في مجلس الامن الدولي مراقبون ولكن منذ عملية «ثعلب الصحراء» في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٩٨ لا يُسمح للعسكريين البريطانيين والاميركيين بتسيير دوريات داخل الاراضي العراقية لأن بغداد قالت انها لا تستطيع ان تضمن سلامتهم. التفويض الذي منح للبعثة، كما نص عليه في البداية قرار مجلس الامن رقم ٦٨٧ الصادر في عام ١٩٩١، له ثلاثة جوانب: مراقبة المنطقة منزوعة السلاح على الارض وفي البحر، وردع أي انتهاك للمنطقة، ومراقبة انتهاكات المنطقة من جانب أي طرف، بما في ذلك الطائرات الغربية، والابلاغ عنها. ومنذ ترسيم الحدود في عام ١٩٩٣ يخول التفويض ايضا يونيكوم «منع ومعالجة» الانتهاكات من دون اللجوء الى مجلس الامن، ومراقبة المنشآت العسكرية العراقية على ما اصبح الجانب الكويتي من الحدود. والى جانب قاعدتي المراقبة الرئيسيتين في المنطقة منزوعة السلاح ـ معسكر خور وأم قصر ـ والعديد من مخافر المراقبة داخل المنطقة، فإن للامم المتحدة ايضا مكاتب ارتباط في الكويت وبغداد. ارتُكبت خلال الاعوام الماضية ثلاثة انتهاكات كبيرة: اطلاق نار من آليات في اواخر ١٩٩٧ على قاعدة لدوريات يونيكوم جرح فيه مراقب غاني. قيام مدنيين عراقيين بخطف احدى آليات الامم المتحدة ـ أُفرج عن ركابها على جانب الطريق المؤدي الى بغداد. وحادث اطلاق نار في سبتمبر (ايلول) ١٩٩٩ اصيب فيه شرطيان كويتيان في ظروف غير معروفة حتى الآن.

❖ الخيال الجيوسياسي

❖ النشاط الأكبر يجري ليلا وهو يرتبط بالتهريب: شاحنات محملة بالحاويات تابعة لشركة تصدير اسكوتلندية معينة تصل الى أم قصر وتواصل محتوياتها الرحلة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عبر نقاط على الحدود. وتحت جنح الظلام ينقل المهربون هذه الصناديق الى شاحنات تنتظر على الجانب الكويتي. انها عملية حسنة التنظيم ولا يملك المسؤولون سوى التكهن بمكان الايدي التي تنقل الصناديق من احد جانبي الحدود الى الجانب الآخر. الجانب الكويتي من الحدود مقفر تماما ولكن الجانب العراقي ليس مقفرا بكل تأكيد: عشرات الوف الناس يعيشون في أم قصر وعبدلي وصفوان، ويتنقلون بحرية بين المنطقة منزوعة السلاح والعراق. ويأتي الخطر الأمني الأكبر على هؤلاء العراقيين من الالغام الارضية - الكويتيون ازالوا الالغام على جانبهم. وفي المخفر الحدودي الواقع في عبدلي، يتمركز افراد الكتيبة «بنبات» على جانب والعراقيون على الجانب الآخر. ونستطيع ان نرى على مبعدة رافعات أم قصر، الميناء العميق الوحيد لدى العراق. الستار، أو الجدار الترابي يرتفع عاليا على الجانب الكويتي، وخندق عميق وسياج مكهرب يمتدان على طول الحدود. وعلى مسافة ياردات قليلة داخل العراق يلعب اطفال في بيوت متداعية. عراقيون ببدلاتهم الخضراء الداكنة التي يتميزون بها، يصوبون انظارهم نحونا بعيون مفتوحة. على بعد مئتي ياردة، في مستشفى بحري عراقي جرى تحويله، توجد قاعدة يونيكوم الرئيسية. وهي ايضا موقع حانة يونيكوم. قبل مدة اندفع مدنيان اميركيان نحو الجانب العراقي لتناول كأس من المشروب: وجدا نفسيهما رهن الاعتقال طيلة اسابيع حسب مشيئة السلطات العراقية. لا يبدو انها حدود آمنة للعبور بدون اذن. ان الصدمة الناجمة عن حرب ١٩٩٠ - ١٩٩١ إن فعلت شيئا فهي عززت الميل الى الخيال الجيوسياسي الذي يصعب تفاديه في هذه المنطقة وغيرها بدلا من استجلائه. وتطلق دعاوى كثيرة عن دور الولايات المتحدة قبل الغزو في اغسطس (آب) ١٩٩٠ والتشجيع الذي تلقاه صدام. كما تُحمل بريطانيا ايضا مسؤولية عن تقارير يُزعم العثور عليها بين وثائق لوزارة الخارجية رفعت عنها السرية، بشأن الاستعداد الذي ابداه وزير الخارجية في حينه سلوين لويد للسماح للعراق بالاستيلاء على الكويت في الخمسينات. وترى غالبية الناس، بشكل أو آخر، ان «الغرب» هو الذي يُبقي صدام في السلطة وإلا لتخلصوا منه بكل تأكيد. وثمة تكهنات عن دور السفير الاميركي - المندوب السامي، كما يُسمى في عودة الى

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الماضي الكولونيالي، اذ يقال لي انه تلقى تعليمات بالبقاء سنة اضافية لأن شيئا ما يجري طبخه للعراق. ويُذكر الأمير الاردني الحسن بوصفه مرشحا ليكون ملك العراق في المستقبل وبذلك اعادة الأسرة الهاشمية التي اطيحت عام ١٩٥٨. وغني عن القول ان بريطانيا والولايات المتحدة تعدان مرشيحيهما للوراثة من داخل العائلة المالكة. من جهتها تحمل المعارضة الاسلاموية على العولمة التي يُراد بها افساد الاخلاق العربية والاسلامية، وعلى حرية التجارة التي تقضي بها منظمة التجارة العالمية. تعيش الكويت حياة متوترة، كثيرا ما تكون متقوقعة على نفسها. وقال لي صحافي عربي، «لو اقمتَ هنا شهرا لحسبتَ ان هذا البلد شاسع وهام كالارجنتين». الدولة نفسها تقوم على ازدهار مؤكد لكنه محفوف بالاخطار من بعض النواحي كونها المستفيدة من عائدات نفطية تبلغ نحو ٧ بلايين دولار ومردود مقارب على اقل تعديل من استثماراتها خلال السنوات الخمسين الماضية. وفي كل نواحي الحياة تقوم المحسوبية والواسطات بدور مركزي. ولم يكن هناك قدر كبير من التحمس للحد من سيطرة الدولة على الاقتصاد أو توسيع قاعدة الحكم الاقتصادية. وتواجه مقترحات البنك الدولي بخصخصة قطاعات من الاقتصاد أو رفع اسعار الخدمات، مقاومة. الكويت دولة رخاء تدفع للمواطنين كي لا يعملوا، حيث الهواتف مجانية، ولا وجود للضرائب، والكثير من سكان البلاد يغادرونها حين ترتفع درجة الحرارة، حيث يتولى مليون عامل من جنوب اسيا وغيرها تسيير الأمور، انما هي واحة نادرة للاستقرار والسلوك المتحضر. ولكن هذه اشد مدن العالم حرارة، واقساها فيزيائيا من بعض النواحي.

(٦) ـ خيارات صعبة تضع إيران أمام مفترق طرق

كتاب «الرجال من المريخ والنساء من الزهرة» من أكثر الكتب مبيعا في طهران

❖ تدرك السلطة الإيرانية اليوم أنها دفعت ثمنا باهظا للبطش الداخلي وحملات تصدير الثورة إلى الخارج

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ الثورة الثقافية التي تفجرت في الجامعات عام ١٩٨٠ استهدفت التنوع الثقافي الداخلي.

❖ الأشهر القليلة القادمة يمكن أن تكون حاسمة لاتجاه إيران ومصير نظامها الثوري.

❖ يتحدث مسؤولون إيرانيون في مجالسهم الخاصة عن خطأين: الاستيلاء على السفارة الأميركية والامتناع عن عقد سلام مع العراق عام ١٩٨٢ م.

❖ جاء في الحلقات السابقة من كتاب «ساعتان هزتا العالم» للأكاديمي الايرلندي المعروف فريد هاليداي، ان صعود الجماعات الاصولية لم يعقب الحرب الباردة نفسها، بل هو نتيجة لا تنفصل عنها. وعن الاصولية يقول انها ليست نتاج الاديان التوحيدية وحدها، بل شملت بعض الآيديولوجيات، وان اكثر جرائم القرن الماضي لم يرتكبها اصوليون. وان الحرب الباردة تركت وراءها «مزبلتين»: ترسانة من الاسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية، وطائفة من العصابات الاجرامية من اونيتا في انغولا، والمهاجرين الكوبيين في الكاريبي، وحتى الفصائل الافغانية. كما ينتقد الكاتب الاطروحة القائلة بأن الاسلام يهدد الغرب، ويقول ان العالم الاسلامي لم يشكل منذ ثلاثة قرون اي تهديد للغرب. كما دعا الغرب الى احترام الاسلام ودراسته وفهمه بدل رسم صور نمطية معادية لهذا الدين. ويرى ان الاسلام لم يمثل اي تهديد في السابق كما فعلت الشيوعية للمجتمعات الغربية. كما تطرق الى تداعيات الغزو العراقي للكويت، ويقول ان الكويتيين يعيشون تململا في عدة مناح. وفي هذه الحلقة يستعرض الكاتب الخيارات الصعبة التي تواجهها ايران ويقول انها الآن امام مفترق طرق. وفي ما يلي الحلقة السادسة.

جوّ من الغموض والقلق يلف طهران التي هي الآن مدينة ذات ١٢ مليوناً، مثقلة بخليط من الدخان والضباب. لا يعرف أحد، إيرانياً كان أو أجنبياً، على وجه التأكيد ما ستحمله الأشهر القليلة القادمة، أو ما إذا كان التيار الإصلاحي الذي اجتاح البلاد منذ عام ١٩٩٧ سيتواصل أو ينكسر أو ينقلب في مواجهة معارضة محافظة مصممة وربما عنيفة. وبدا أن الانتخابات الرئاسية في عام ١٩٩٧، التي فاز

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيها محمد خاتمي بوصفه مرشحاً إصلاحياً، وانتخابات المجلس (البرلمان) في فبراير (شباط)، تؤكد وجود غالبية قوية تؤيد الإصلاح، لكن هذه الرسائل من القاعدة تصطدم بنخبة حاكمة منقسمة، قطاع منها مذعور من الدعوات إلى التغيير.

إن ثورة اكتسحت في عام ١٩٧٩ كل ما وقف في طريقها، تواجه الآن خيارات صعبة، في الخارج والداخل.

❖ خيارات صعبة

❖ تقترن الضغوط من أجل التغيير السياسي والاجتماعي في إيران بمناظرة واسعة النطاق حول الاتجاه الذي تسير فيه البلاد، حول تطور الثورة اللاحق وحول الإسلام والعالم الحديث. ولا شيء أبعد عن الصواب في ما يتعلق بالنقاش في إيران وعلاقتها مع العالم الخارجي من وضع القيم والأفكار «الإيرانية» و«الإسلامية» بشكل مبسط في مواجهة القيم والأفكار «الغربية»: ثمة من التنوع في إيران وفي إطار النقاش الإسلامي، بما في ذلك المؤسسة الدينية، بقدر ما هناك في البعد الدولي بين الشرق والغرب. ولذوي التوجه العلماني، فإن نفوذ الماركسية، الذي كان واسع الانتشار حتى قبل عقدين من الزمان، رضخ الآن للاهتمام بالتفكير الليبرالي: بوبر وميل، ناهيكم من نظريات «المجتمع المدني»، و«الطريق الثالث»، حلا محل لينين وماو. وهناك في إيران مَن يريدون إبقاء النظام الذي أقامه آية اللّه الخميني بالثورة وحرب السنوات الثماني مع العراق. وهناك كثيرون يعتقدون أن النظام ينبغي أن يتغير، وبعض الذين يتمنون أن يبقى على حاله، لكنهم يدركون ويخشون أنه سيُجرَف إذا لم يتغير. مصير الشاه وغورباتشوف ماثل بقوة في أذهان النخبة السياسية الإيرانية.

مع ذلك أحدثت الانتخابات الدرامية في السنوات الأخيرة تغييراً في المناخ السياسي في إيران. وهناك حركة قوية من أجل التغيير سُميت بالتاريخ الفارسي لانتخاب الخميني، دووم خورداد ٢، أو ٧ مايو (أيار) ١٩٩٧. جزء من هذا الاحتجاج يأتي من فوق، ويعبر عنه خاتمي في دعوته إلى حكم القانون وبناء مجتمع مدني، لكن ما هو أهم أنه يأتي من تحت.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على هذه الخلفية كانت القضية التي أثارت أكبر قدر من الجدال في السنوات الأخيرة قضية حرية التعبير وحرية الصحافة. وزارة الارشاد الإسلامي تفرض رقابة، لكن نشر الكتب يُمارس نسبياً بحرية في إيران، شريطة عدم التعرض الى قضايا جوهرية تتعلق بالدين والدولة. وبالإمكان شراء كتب حول طائفة من المواضيع ذات الصلة بالتاريخ الإيراني الحديث. وكان كتاب جون غراي، «الرجال من المريخ والنساء من الزهرة» Men are From Mars, Women are From Venus، من أكثر الكتب مبيعا، ولاقى «رماد انجيلا» Angela's Ashes، رواجاً واسعاً في ترجمته الفارسية، وهو نجاح ليس بعيداً عن الارتباط بتصويره لرجال الدين. وعلى النقيض من ذلك ما من ناشر علماني مستعد لطبع عمل ادوارد سعيد «الاستشراق». الصحافة قضية أخرى، فبعد عام ١٩٧٩، حدث انفجار بما صدر من صحف وأسبوعيات نقدية أتاحت مناقشة العديد من القضايا الاجتماعية والسياسية. وكان من بين هذه القضايا مناظرات لا تتناول النسوية والديمقراطية والليبرالية والتفسيرات المختلفة للتاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية فحسب، بل ومسائل حساسة، أكثر مباشرة: أرصدة رجال دين كبار في البنوك الأجنبية أو سلوك الأجهزة الأمنية.

ولكن مناهضي التغيير شنّوا هجوماً مضاداً، واتهمت محاكم دينية بعض الكتّاب المستقلين بمعاداة الإسلام أو معاداة الثورة، وفي عام ١٩٩٨ أُلقيت المسؤولية عن موجة من الاغتيالات التي طالت كتّاباً، على عاتق عناصر مارقة في قوى الأمن قُدّمت لاحقاً إلى المحاكمة. وفي عام ١٩٩٩، وقعت اشتباكات بين الطلاب وقوى الأمن. في عام ٢٠٠٠ تصاعدت الحملة، فبعد انعقاد مؤتمر حول إيران في برلين في ابريل (نيسان) برعاية معهد هاينرش بول، اعتُقل العديد من المشاركين وحوكموا لدى عودتهم إلى طهران. وكان بينهم اثنان من أنصار حقوق المرأة هما مهرانغيز كار وشهلة لهيجي، قائدة المنظمة الطالبية «دفتري تحكيم وحدت» (مكتب تعزيز الوحدة)، وحجة الإسلام حسن اشقروي، وهو عالم دين إصلاحي، ورؤساء تحرير ثلاث صحف مُنعت في ما بعد - رضا جلائيبور من صحيفة «عصر ازادغان» (عصر

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأحرار) وعزت اللّه صحابي من صحيفة «إيران فردا» (إيران الغد) وعلي رضا علويتبر من صحيفة «صبح امروز» (هذا الصباح).

وكان الأبرز بين سائر الذين اعتقلوا بعد مؤتمر برلين أكبر غانجي، وهو صحافي كتب عن ضلوع مسؤولين كبار في قتل المثقفين. وقد حُكم عليه بالسجن عشر سنوات والنفي خمس سنوات تالية إلى قرية نائية.

❖ إيران والصين والثقافة

❖ وكما هي الحال في ظل الأنظمة السلطوية الأخرى، استُخدم التهديد الخارجي لتبرير القمع الداخلي، لكن هنا أيضا يتبدى قدر من الانفراج. فالتغيرات التي حدثت في مضمار العلاقات الخارجية أكثر رسوخاً من بعض النواحي. وفي سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٠، عندما احتفلت البلاد بالذكرى العشرين لاندلاع الحرب مع العراق، غطّت طهران ملصقات تحتفي بـ«الدفاع المقدس» عن البلاد ضد الاعتداء. وكانت هناك بالمقارنة تصاوير قليلة للثورة نفسها. الملصقات والرسوم كانت تحيي ذكرى الجنود الذين سقطوا في حرب السنوات الثماني إلى جانب مجموعة من الدبلوماسيين الإيرانيين الذين قتلتهم حركة طالبان في أفغانستان عام ١٩٩٨، لكن هذا الاحتفال بذكرى الحرب لم يكن طريقة لتذكر الماضي وتعبئة التأييد للدولة فحسب، بل كان بمثابة مؤشر إلى معالم نهج ممكن للسياسة الخارجية الإيرانية في المستقبل. وثمة إحساس ملموس بالقومية في المناخ السياسي وبضرورة تحديد ما يخدم «المصلحة القومية» الإيرانية. ولهذا التوجه نحو القومية دلالاته لدعم إيران قضايا «إسلامية» أكبر ولفحوى المناظرة على الصعيد الداخلي.

تنسخ الثورة الإسلامية الإيرانية في خطابيتها وتحركها العديد من التوترات التي تعتري الثورات الأخرى: نضالية أممية ودفاع عن الدولة، التوجه إلى الشعوب المقهورة الأخرى وتمجيد شعبها ذاته. فالثورة الفرنسية أعلنت الأمة العظيمةLa grande nation وبعد قرنين تعيد الملصقات في طهران التذكير بكلمات آية اللّه الخميني الذي أشار إلى إيران بوصفها «ملت بُزورغ»، أو «هذه الأمة العظيمة»، كما نسخت الثورة الإيرانية

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في سياستها الثقافية ما مرت به الصين: يلاحظ مثقفون إيرانيون بتهكم إزاء الأجواء الراهنة لاعتقال الكتاب النقديين وملاحقتهم، ان بلدهم عمل عكس ما حدث في الصين. فإن حملة إيران تحت شعار «لتتفتح ١٠٠٠ زهرة»، جاءت بعد «ثورتها الثقافية». في الصين جرت الحملة في عام ١٩٥٧ وانقلبت إلى ملاحقة الذين سمحوا أو حتى قاموا بتشجيع حرية الكلام. وأعقبت ذلك هجمة شاملة بالثورة الثقافية التي بدأت عام ١٩٦٥، لكن الثورة الثقافية الإيرانية التي فُجرت كهجوم على الجامعات في عام ١٩٨٠ جاءت، على غرار سابقتيها الصينية والروسية، لا للهجوم على الأفكار والمؤثرات «الأجنبية»، هدفها المُعلن، فحسب، بل لتدمير ما في التقاليد والثقافة من تنوع داخل البلد نفسه أيضاً. وفي إيران اشتمل هذا على استهداف الاتجاهات المتعية في الشعر الفارسي ومنع الغناء النسائي وحتى منع لعبة الشطرنج لفترة قصيرة.

❖ الغلبة للمصلحة لا للآيديولوجيا

❖ وكما كان مآل أنظمة ثورية سابقة، تدرك الدولة الإيرانية اليوم أنها في السنوات الأولى من السلطة دفعت ثمناً باهظاً عن بطشها في الداخل الى جانب تصديرها الثورة إلى بلدان أخرى. ويعترف مسؤولون في المجالس الخاصة بخطأين كبيرين على الأخص: الاستيلاء على السفارة الأميركية واحتلالها في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٩، والامتناع عن عقد سلام بشروط مواتية مع العراق في يوليو (تموز) ١٩٨٢. ما زال الحرس الثوري يستخدم مجمع السفارة الأميركية في وسط المدينة، حيث تغطي جدرانها الملصقات المعادية للامبريالية، لكن يقال ما معناه ان الغلبة ستكون بعد الآن للمصلحة لا للآيديولوجيا. واحدى نتائج هذا التوجه الجديد الرغبة في تحسين العلاقات مع العالم العربي، فقد طرأ تحسن كبير على العلاقات مع الرياض والعلاقات الدبلوماسية أعيدت مع مصر والجزائر اللتين كانتا تُشجبان بوصفهما دولتين علمانيتين ظالمتين.

الدولة العربية التي لم تحسن إيران علاقاتها معها هي العراق، وقد ارتأى التوأمان المستهدفان بسياسة الولايات المتحدة في الاحتواء المزدوج، دائماً، ان من الأجدى أن

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يحاولا تصوير أحدهما الآخر على أنه العدو الحقيقي للاستقرار الدولي بدلا من التحالف فيما بينهما، وكلاهما يواصلان دعم فصائل المعارضة التي تعمل في البلدين من أجل اسقاط نظام الحكم في البلد الآخر. ويؤم الزوار والتجار الإيرانيون الآن بغداد والمراقد الشيعية في العراق، لكن الحرب الكلامية متواصلة. وعمد صدام في الأشهر الأخيرة إلى تصعيد حملته الإعلامية ضد إيران بوصفها عدو العراق. وتعرف إيران ان عراقاً يستعيد قوته يمكن، على المدى البعيد، ان ينقضّ عليها ثانية، كما فعل في عام ١٩٨٠.

لذا تشكل إعادة التفكير في السياسة الخارجية جزءا من المناظرة الأوسع حتى داخل إيران حول مستقبل الجمهورية الإسلامية ذاتها. ويكثر هنا الحديث عن شائعة الديمقراطية وعن «جمعي نداني» أو «المجتمع المدني». وفي ثلاث مناسبات سابقة في التاريخ الحديث، كان المجتمع الإيراني قد انفجر في تحرك احتجاجي ومدني من القاعدة: في الثورة الدستورية عام ١٩٠٦، عندما اعتصم نحو ١٥ ألف محتج في ارض السفارة البريطانية التي تمتد على رقعة واسعة مساحتها نحو ٤٠ فدانا، وفي عهد رئيس الوزراء القومي مصدق (١٩٥١ ـ ١٩٥٣)، وفي الأشهر التي سبقت وتلت سقوط الشاه (١٩٧٨ ـ ١٩٧٩). وقد سُحق كل من هذه التجارب الثلاث في مضمار المجتمع المدني ـ التجربتان الأوليان بتدخل أجنبي نشيط. والسؤال هو هل سيتكرر ذلك مرة أخرى؟ ان المناظرة الإيرانية تنطوي على الكثير من التكهن بشأن مستلزمات الديمقراطية نفسها، وتُوضع العقبات المعهودة في طريقها. فقبل عقود كانت هذه تتمثل بـ «الإمبريالية» أو «الاستبداد الشرقي»، والعقبة «المفضلة» حاليا هي أن إيران، بحكم ثروتها النفطية، مجتمع «ريعي»، أو، للأكثر علمانية، أنها الطبيعة اللاديمقراطية ذاتها للمؤسسة الدينية.

وبالقدر نفسه من الأهمية التركة الموروثة من هذا التاريخ السابق في مجال الأدب والنقد الاجتماعي. فإن إيران طيلة الأزمنة الحديثة، كانت لديها ثقافة أدبية متألقة، ثقافة تنهل من أعمال الماضي الفارسي، لكنها تفاعلت أيضاً مع الكثير من الأدب الغربي. وفي الخمسينات والستينات انطلقت حركة نشيطة لترجمة المؤلفات الغربية،

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم تقيدها إلا الرقابة على هذه الأعمال، كما حدث مع مسرحيتي «ماكبث» و«هاملت» اللتين تصوران قتل ملك. الكثير من هذه الأعمال، لكن ليس كلها، كان متأثراً بماركسية من النمط الشيوعي الارثوذكسي: غوركي وسارتر وجاك لندن كانوا من الكتاب المفضلين. وكان العديد من هؤلاء الكتاب أصحاب موقف نقدي من أشكال النزعة المحافظة الجاثمة على البلد، والنزعة المحافظة لنظام الشاه والنزعة المحافظة لرجال الدين الإسلاميين، لكن هذا الارتباط بالحداثة القادمة من الخارج اقترن بطاقة حيوية داخل العالم اللاهوتي تبدت في ثورة ١٩٧٩.

❖ خصوم التغيير

❖ خصوم التغيير يتهمون الكتاب الإصلاحيين بكونهم «معادين للإسلام»، وأعلن آية الله خامنئي في رسالته في أغسطس (آب) الماضي إلى «المجلس»، داعياً إلى فرض قيود على الإعلام، «إذا تسلّل الأعداء إلى الصحافة فإن هذا سيكون خطراً كبيراً على أمن البلاد ومعتقدات الشعب الدينية». آخرون يتحدثون عن «العدوان الصامت» و«العدوان الثقافي» من الخارج، بالتحالف مع الأعداء في الداخل، لكن ما هو غير مستهدف هو الطابع الإسلامي للدولة نفسها بمعنى الاحترام الواسع الذي تحظى به القيم الإسلامية والتاريخ الإسلامي، والقومية التي قامت الثورة بمفصلتها. ويجري في جنوب المدينة بناء مجمع ضخم حول ضريح الخميني الذي توفي عام ١٩٨٩، ويتحدث المواطنون هناك عن تحويله إلى واحد من أكبر المزارات. فوقه تخفق الراية الحمراء للإمام الحسين، حفيد النبي ومؤسس الاسلام الشيعي، الذي قُتل في عام ٦٨٠. وتزدحم المقتربات بحشود، بينها كثيرون من آسيا الوسطى. رجل حادثته، سائق لإحدى الوزارات في الثامنة والعشرين من العمر، انتقد النخبة الحالية من خلال المديح الذي كاله على الخميني: «كان الإمام رجلاً صادقاً، لم يكذب، لم يكن مثل الآخرين». عشرون عاماً من سوء الإدارة الاقتصادية والقمع السياسي ونقمة متزايدة على الفساد المرتبط بالعديد من رجال الدين، أسفرت عن تحول في الرأي داخل البلد. ولا يمكن التكهن إلى أي مدى سيمضي ذلك. بعض القيود ـ على ملبس المرأة ـ جرى

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تخفيفها، لكن البلد ما زال بعيداً عن السماح بذلك النوع من التمازج بين اللباس الإسلامي واللباس الغربي الشائع في دول مسلمة أخرى مثل مصر. والحركة الاحتجاجية متأثرة بالطموح الاقتصادي وبعالم غربي منظور إليه من خلال الفيديو والمجلات ومألوف من الشتات الواسع الذي أعقب الثورة.

لكن ليس واضحاً ما يريده الشعب وإلى أي مدى مستعد حتى خاتمي نفسه للذهاب، المؤكد أنه بعد أكثر من عقدين على قيام الثورة، لم تعد الشعارات القديمة صالحة. فالاقتصاد لا يعمل على الوجه المطلوب وهناك بطالة واسعة الانتشار. والكثير من الذين أيدوا الثورة وحاربوا ضد العراق يشعرون الآن بخيبة أمل، المواطنون الأصغر سناً يقاومون القيود الاجتماعية التي تفرضها الدولة. وثمة توق هائل إلى الحرية السياسية وحرية الكلام. وتشير التقارير إلى أن هذا الشعور الذي لا يقتصر على طهران وحدها بأي حال، فهو حتى أقوى خارج العاصمة منه فيها.

❖ شعار «الموت لاعداء الفقيه»

❖ لذا ليس هذا بموقف تقليدي من مواقف الاحتجاج الاجتماعي الذي يتحدى الدولة: الانقسام قائم في المعسكرين. فالحركة على مستوى القاعدة من تحت تواجه دولة منقسمة على نفسها. ويقف ضد الحركة الإصلاحية تحالف من القوى الدينية الملتفة حول الزعيم الروحي أو الفقيه آية الله خامنئي، وبعض العناصر في الجيش، مدعوماً من قوى الميليشيا المحافظة. وقد أصبح موقع الفقيه هو الأشد إثارة للجدل في إيران: الإصلاحيون يريدون تقليم موقع الفقيه وإخضاعه للانتخاب، والمحافظون يرفعون شعار «الموت لأعداء الفقيه». رجال الدين منقسمون، كما كانوا إبان الثورة. البعض منهم يؤيد الإصلاح الاجتماعي والسياسي وآخرون حتى يحمّلون الثورة مسؤولية الإساءة إلى الإسلام في أنظار السكان.

واحد من أشد خصوم النظام نضالية، عبد الله نوري، سُجن بعد محاكمة وضع فيها علناً استئثار رجال الدين بالسلطة موضع تساؤل وندد بالفساد واستغلال المنصب من جانب أقرانه الملالي. آخرون معششون في النظام وجمعوا ثروات وحققوا سطوة من

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خلاله: بفضل شبكة المؤسسات أو «بونياد» التي تحصل على المال من الدولة للقيام بنشاطات اجتماعية واقتصادية، يشكل هؤلاء الآن قوة مالية وثقافية، وهم لا يريدون أن يفقدوا هذه السطوة أو الامتيازات. واحد من كبار رجال الدين، آية الله جناتي، كان صريحاً بما فيه الكفاية عندما قال: «لا يمكن إنقاذ الإسلام بالليبرالية والتسامح»، ومضى جناتي، كما هو معهود من النمط الآيديولوجي، إلى التساؤل إن كانت هناك حاجة إلى الروايات في جمهورية إسلامية.

في الوقت الحاضر هناك استراحة معينة في صراع الإصلاحيين والمحافظين، فالعديد من قياديي حركة «دووم خورداد» الإصلاحية ورجال الدين وغيرهم من المثقفين يرزحون في السجون حتى في الوقت الذي تباع فيه كتبهم في عموم طهران. وثمة غموض بشأن الاقتصاد وقدرة خاتمي على تنفيذ الإصلاح الاقتصادي: يزداد هذا صعوبة لأن بعض مؤيدي الانفتاح في الحياة الاجتماعية والسياسية يعارضون الانفتاح في الاقتصاد مثلما يعارضون أي مراجعة للانتهاكات التي ارتكبت ضد حقوق الإنسان في السابق. وإحدى القضايا الخلافية على وجه التحديد قضية الاستثمار الأجنبي، فإن إيران لا تعرض على شركات النفط والغاز الدولية اتفاقيات المشاركة في الانتاج التي تعرضها دول منتجة أخرى، وليس هناك ما يشير إلى توافر تأييد سياسي كاف لمثل هذه الاتفاقيات في الوقت الحاضر.

لكن الأهم أن خاتمي قد لا يكون قادراً على الاحتفاظ بدعم أولئك الذين محضوه تأييدهم حتى الآن. والأشهر القليلة القادمة يمكن أن تكون حاسمة لاتجاه إيران في المستقبل ولمصير النظام الثوري. وبصرف النظر عما يحدث فإن كتاّب إيران وصحافييها سيكون لديهم الكثير مما يقولونه بشأن التطورات الجارية ومَن المسؤول عنها: ما ليس واضحاً هو إن كانت كلماتهم ستجد طريقها إلى الطبع.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٧) ـ النمط الأخير.. أميركا وخصومها من اليسار واليمين الأوروبي

من الصعب على البريطانيين والفرنسيين والإسبان والألمان الادعاء بالتفوق على الأميركيين في مجال ثقافة التسامح

❖ بعد حرب الخليج أبدت الولايات المتحدة نزوعا نحو الغطرسة الثقافية.

❖ يرجع الفضل في إثراء اللغة المنطوقة إلى الأميركيين بدون منازع.

❖ اليسار الأميركي وقع بسهولة في ابتذالات الصورة المعكوسة ويبني موقفه السياسي على ما تنشره «نيويورك تايمز».

❖ صدام ليس أسوأ من شرطة لوس أنجليس

جاء في الحلقات السابقة من كتاب «ساعتان هزتا العالم» للأكاديمي الايرلندي المعروف فريد هاليداي، ان صعود الجماعات الاصولية لم يعقب الحرب الباردة نفسها، بل هو نتيجة لا تنفصل عنها. وفي هذه الحلقة السابعة يقول. لندن، آب (أغسطس) ١٩٩١ كان من اوسع مبادئ اليسار انتشارا في صفوفه وأبعدها عن التحدي من جانب الآخرين عموما خلال العقود الاربعة الماضية أو نحو ذلك، معاداته للولايات المتحدة الاميركية: ليس معاداته للبعد الامبريالي من السياسة الخارجية الاميركية في علاقاتها الاقتصادية والعسكرية مع العالم الثالث، متبديا بأسطع صوره في الحرب الفيتنامية، فحسب بل معاداته للنظام السياسي والثقافي الاميركي بصفة عامة. «معاداة أميركا» مصطلح كثيرا ما يستخدمه المدافعون عن السياسة الاميركية لتفنيد أي انتقادات تُوجه الى ما تفعله واشنطن. ولكن المصطلح مجردا من هذا الطابع الذمي يحدد بكل دقة موقفا سائدا في اوساط واسعة من اليسار الاوروبي، ازاء كل ما تمثله اميركا، أو ما يُفترض ان تمثله.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ عيد العمال.. أميركي الأصل

❖ ثلاثة اشياء في هذا الموقف تتبدى واضحة على الفور. أولا ، انه في الوقت الذي كثيرا ما يُصاغ بمفردات اليسار ، فهو موقف ليس حكرا على اليسار بأي حال. فان العداء الواسع والمتعالي للولايات المتحدة وثقافتها وسياستها ، موقف شائع في قطاعات واسعة من اليمين الاوروبي، وخاصة في فرنسا. ثانيا ، ان هذا الموقف اذ يُتخذ على نطاق واسع في معسكر اليسار، ينسجم مع جهل لافت ومتفشٍ بالسياسة والمجتمع الاميركيين، وانعدام الاهتمام بهما: كل مَنْ ينظم مؤتمرا اشتراكيا أو برنامجا خطابيا سيعرف ان ايجاد خبير في شؤون نيكاراغوا أو فلسطين أو جنوب افريقيا اسهل بكثير من العثور على أحد يستطيع الحديث بدراية عن سياسة الولايات المتحدة الاميركية، الداخلية أو الخارجية. وبما اننا جميعا نعرف فظاعة البلد ، ومدى ما يتفرد به نفوذه من ضرر، يبدو وكأن الحاجة انتفت لمزيد من البحث فيه. ومهما يكن من أمر فان هذا الموقف يغالي في تصوير درجة التجانس داخل الولايات المتحدة، ويغفل القوى السياسية والثقافية بالغة التنوع التي تعمل فيه. المشكلة الثالثة والأكثر اهمية في هذا العداء الواسع لاميركا هي انه بسبب جهله بمدى تنوع الحياة السياسية الاميركية ونفوذها على وجه التحديد، يُخطئ في طرح التأثير الذي مارسته الولايات المتحدة مؤخرا في اوروبا الغربية وفي تطور اليسار في اوروبا. ان نشوء اليسار الاوروبي في الشطر الأول من هذا القرن لا يدين بالكثير للولايات المتحدة الاميركية، رغم انه من الجدير ان نتذكر بأن اليوم الذي يحتفل بنضال الطبقة العاملة، عيد الأول من مايو (ايار)، ذو اصل اميركي. ولكن في سياق ما بعد عام ١٩٤٥ ، كانت الولايات المتحدة، رغم كل الحديث عن العالم الثاني، الشيوعي، والعالم الثالث، اكبر مصدر للافكار الراديكالية في اوروبا: حركة الحقوق المدنية واشكالها اللاحقة، المناهضة للعنصرية، الحركة الطلابية، الحركة المناهضة للحرب، حركة تحرير المرأة، حركة حقوق المثليين. والحملات الراهنة من اجل لائحة حقوق وحرية المعلومات ومنح الاقاليم سلطة اوسع، كلها تستمد الدعم من

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مثال الولايات المتحدة، وكذلك المطالبة بأن يدفع رئيس الدولة ضرائب وان يكون التعليم الابتدائي والثانوي مجانيا.

❖ جوانب مؤذية

❖ هناك جوانب عديدة من المجتمع الاميركي هي جوانب مؤذية بالمقارنة مع اوروبا الغربية ـ غياب برامج الرعاية الاجتماعية، تفاقم الجريمة والمخدرات، انتشار الهيئات الدينية الاصولية ما هي جوانب ثلاثة نذكرها على سبيل المثال لا الحصر ـ ولكن موقف الاكتفاء الذي يتخذه اليسار واليمين في اوروبا سواء بسواء في ان المجتمع الاميركي بكل جوانبه اكثر تخلفا من مجتمع العالم القديم، موقف لا يصمد امام التمحيص. فالولايات المتحدة، لا سيما في اعقاب حرب الخليج، تبدي نزوعا قويا نحو الغطرسة الثقافية وغطرسة القوة الكبرى، ولكن من المستبعد ان يكون البريطانيون والفرنسيون والالمان، وحتى الاسبان، في موقع يبيح لهم ادعاء التفوق في هذا المضمار. فان النصب التذكاري للحرب الفيتنامية في واشنطن نصب رصين ومنضبط، على نقيض ملحوظ من الزخرفات العدوانية في العديد من الدول الاوروبية، بما فيها محطة واترلو وغار دواستريليتز. ولدى الولايات المتحدة، مثلها مثل المانيا، الكثير مما تعلّمه لهذا البلد، ولبلدان غيره، عن اللامركزية والحقوق الاقليمية. وموقف الدولة من الاعلام وحقوق المواطنين اكثر تفوقا بكثير من موقف دول اوروبا الغربية، المنغلقة والمتعجرفة. المواقف من الجنسين (الجندر) اكثر تقدما بكثير في الولايات المتحدة. وحول قضية تلوح، ربما، بوصفها المناظرة الكبرى في عقد التسعينات، وهي قضية الهجرة، تمتلك الولايات المتحدة خبرة تاريخية مختلفة تماما واكثر ايجابية: ليس هناك حديث يُذكر في الولايات المتحدة عن اخطار «التمييع»، والى حد ثلث الذي يعيشون في الولايات المتحدة ولدوا خارجها. وعلى الجبهة العنصرية كان الفشل الكبير الذي مني به المجتمع الاميركي معاملته للاميركيين الافارقة، نتيجة التاريخ والتخلف عن تجاوز تركته التي سيحسن الاميركيون صنعا بوضعها نصب اعينهم، وهم الذين لا يتوانون عن تقريع الاخرين على هوسهم بالماضي. ولكن الولايات المتحدة، من نواح اخرى، مجتمع متعدد الاعراق

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنجح بكثير وأكثر حيوية بكثير ويتيح فرصا اوسع للاندماج من أي مجتمع في عالم اوروبا الخانق. وصينيو هونغ كونغ الذين عزفوا عن المجيء الى بريطانيا واختاروا بدلا منها التوجه الى الولايات المتحدة كانوا يعرفون ما يفعلون.

❖ الأميركيون ينتهكون حرمة اللغة

❖ يميل العداء الاوروبي للولايات المتحدة الى الاستناد الى تناقض غريب. اذ يجري التشديد بقوة على «الابتذال» الذي يتسم به الكثير من الثقافة الاميركية، وتأثيرها الضار في التلفزيون واللغة والموسيقى وما شابه. والكثير من هذا النقد مصيب في ما يذهب اليه: ما يُنتج في الولايات المتحدة ويباع في انحاء العالم من ترهات يفوق ما ينتجه أي مجتمع آخر. ولكن التأثير الثقافي للولايات المتحدة كان ايضا ذا قيمة ايجابية هائلة: تأثير الجاز وموسيقى البوب وهوليوود ذات النوعية العالية والأدب الاميركي والمسرح والفن، ساهمت بقسط في ثقافة العالم لا يقل عن مساهمة أي شعب في القرن العشرين. وفي بريطانيا هناك حساسية خاصة من التأثير الاميركي في اللغة الانجليزية: هنا ايضا يمكن الجدال بان اثراء اللغة المنطوقة خلال السنوات الأخيرة هو نتيجة التأثير الاميركي بقدر أي مؤثرات اخرى، متوسطا في ايصال عناصر من اليديدية والغرب هندية والاميركية اللاتينية وغيرها فضلا عن التغييرات في الانجليزية المنطوقة في الولايات المتحدة نفسها. وسيكون من الشيق حقا لو هب اليسار مدافعا عن حرمة اللغة ومناعتها ضد التغيير.

حين يتعلق الأمر بالحكم على دور الولايات المتحدة في الساحة الدولية تنشأ مشاكل مماثلة في تحديد موقف نقدي من السياسة الاميركية والاطلسية المتخاذلة ولكنه موقف يختلف عن العداء الدوغمائي لاميركا. ومرة اخرى ليس الخيار بين النقد والقبول وانما بين النقد التبسيطي والنقد القائم على المعرفة والحساب. هناك قدر كبير من العداء المشروع للنفوذ الاميركي في اوروبا، ولكن التخلف عن التقدم بأي شيء سوى الشعارات البالية لمعاداة اميركا كان احد العوامل التي ساهمت في استمرار الوجود الاميركي في اوروبا، في شكل الناتو والتحالف الاطلسي. ولكي لا يستخف أحد بقوة الالتزام بهذا الشكل من الارتباط الاميركي عليه ان يتذكر

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كيف انه حتى في ذروة حركة السلام إبان مطالع الثمانينات كانت نسبة أصغر بكثير على استعداد للقطيعة مع الناتو: لهذا السبب تهربت «الحملة من اجل نزع السلاح النووي» (سي إن دي CND) من القضية. والفرصة متاحة الآن مع انتهاء الحرب الباردة لتجديد التحدي الموجه الى هذه العلاقة، لا باسم العداء لاميركا وانما باسم اقامة علاقة اكثر توازنا ومساواة بين جانبي الاطلسي. التحدي المتمثل باجراء تقويم نقدي مدروس أكثر للولايات المتحدة يُطرح بكل حدة بالارتباط مع العالم الثالث، وهنا في المقام الأول تتبدى مسؤولية الارثوذكسية اليسارية بكل جلاء. فلا مراء في ان الولايات المتحدة تصرفت تصرف القوة الامبراطورية، بالمفردات الاقتصادية والعسكرية، ازاء العالم الثالث منذ عام ١٩٤٥، ولكن النقد الذي يكتفي بسوق هذه النقطة يتجنب على اقل تعديل ثلاث نقاط اخرى ذات صلة إن لم تكن بشعوب العالم الأول فبشعوب العالم الثالث. النقطة الاولى ان النظام السياسي الاميركي من هذه الناحية ايضا ليس نظاما صوانيا كل سياساته محدَّدة سلفا: ثمة مجال للحركة السياسية داخل الولايات المتحدة بالعمل مع معارضي السياسة السائدة ايا تكن. وبالنسبة للعديد من الحركات والاحزاب المناضلة من اجل الديمقراطية والاستقلال في العالم الثالث فان شيئا من الارتباط الايجابي بالولايات المتحدة ضروري، أكان ذلك مع الكونغرس أو الصحافة أو وزارة الخارجية أو غيرها. والقول ببساطة ان هؤلاء امبرياليون واعداء يعني اغفال القضية الحقيقية. وما على المرء إلا ان ينظر الى ما فعلته حقا على مدى سنوات عديدة طائفة من الحركات العالم ثالثية: المؤتمر الوطني الافريقي الذي حمل الكونغرس الاميركي على فرض قانون عقوبات حاسم في عام ١٩٨٦، ومنظمة التحرير الفلسطينية التي حاولت اقامة حوار متواصل مع الولايات المتحدة، والاريتريون الذين اقاموا علاقة عمل مع الولايات المتحدة خلال السنوات السابقة، مؤدية، في جزء منها، الى تأمين استقلالهم حديث العهد كأمر واقع. والاولوية السياسية لهذه الحركات والعديد غيرها ليس نقد السياسة الاميركية، الذي تمارسه بالفعل، وانما ايجاد طريق للارتباط ايجابيا معها.

❖ قصر النظر القاتل

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ ثانيا، هناك قضية التدخل الاميركي، التي اثارتها بكل حدة حرب الخليج. ففي مواجهة سلسلة من التدخلات غير الشرعية والامبريالية التي قامت بها القوات الاميركية خلال عقود ماضية، نشأ ميل لدى المعارضة الليبرالية واليسارية، في اوروبا والولايات المتحدة، الى الوقوف ضد التدخل بما هو كذلك، بصرف النظر عن اشكاله. ولكن هذا الموقف مفتوح للتساؤل، تاريخيا وسياسيا. فبادئ ذي بدء هناك في هذا القرن حالات لافتة قامت فيها الولايات المتحدة، الامبريالية والانانية كما كانت، بدور ايجابي في السياسة العالمية: دعم وودرو ولسن لتقرير المصير الوطني بعد الحرب العالمية الاولى ساعد على تحقيق الاستقلال لطائفة من البلدان في اوروبا، ودور الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية كان من النوع الايجابي. ثانيا، هناك اليوم عدد من الحالات التي يكون فيها التدخل، في شكل ضغوط اقتصادية وعسكرية، موضع ترحيب من جانب شعوب البلدان ذات العلاقة نفسها. وهنا اشارت حرب الخليج الى قصر النظر القاتل للاجماع اليساري على جانبي الاطلسي: معارضة الحرب كانت قائمة على معاداة «نزعة التدخل الاميركية» وكأن هذا موقف يتمتع باكتفاء ذاتي. ولقد كان من المشروع التساؤل إن كانت معارضة احتلال العراق لبلد آخر جعلت الحرب حتمية، ولكن ليس من المشروع الجدال بأن التحرك الدولي ضد صدام غير مبرر لأن دوافع الولايات المتحدة كانت دوافع انانية، كما كانت بكل تأكيد. وأُثيرت القضية حتى بحدة أشد في اعقاب الحرب عندما بات واضحا ان ما كان يريده شعب العراق ويطلبه هو تحرك اميركي اكثر لا أقل لاسقاط النظام البعثي وتمكين العراقيين من تسلم مقاليد الحكم. القضية الثالثة، وهي قضية ذات مسؤولية خاصة لليسار المتروبوليتي، تتعلق بنوعية التحليل الذي يعالج المجتمع الاميركي والسياسة الاميركية نفسها. فالمعارضة، في مواجهة الاجماع الصواني للاعلام السائد والمنتوج الاكاديمي، كثيرا ما كانت تجنح الى اللجوء الى نظرية المؤامرة، والفضح والادانة الاخلاقية. هناك مؤامرات وفضائح بكل تأكيد، لكنها لا تشكل تحليلا بديلا شافيا. وما حدث في احيان كثيرة ان هذه الانتقادات السهلة من جانب اليسار الاوروبي والاميركي كانت تعتاش على نظريات المؤامرة التي تُنسَج

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فـي العـالم الثالـث نفسه: بـدلا مـن تقـديم تحليـل قـائم علـى المعرفـة، يتـيح امكـانيـة العمـل، فانـه فـي الغالـب يـؤدي الى التـضليل والعجـز عـن العمـل. والقـول ان الولايـات المتحدة معادية عداء لا رجعة فيه لهذا الـشعب أو ذاك ـ الفلـسطينيون، اليونـانيون أو أي شعب آخر ـ أو لـ«الاسلام»، أو ان النفوذ الاقتصادي الاميركي كله يتسبب فـي افقـار مَنْ يطاولهم، لا يسدي خدمة لشعوب العالم الثالـث. وهـي شعوب تحتـاج لمن يـدلها لا الى ما عليه الولايات المتحدة من شر مستطير وانما الى طريقة التعامل معه، وتحقيـق اكـبر المكاسب الممكنة من هذه الصفقات، أكانت سياسية أو اقتصادية. فـي هـذا الـسياق يقـع قـسط كـبير مـن المـسؤولية علـى عـاتق اليـسار الاميركـي نفـسه. فهـذا اليـسار المحاصَر، الشجاع، الصامد كما هو بالفعل، مع ذلك وقع بكـل سـهولة فـي ابتـذالات الـصورة المعكوسـة معتمـدا مـا لا يـروق لـه فـي الطبعـة الـصباحية لـصحيفة «نيويـورك تايمز» بوصفه الاساس الذي يبني عليه موقفه الـسياسي. والـبعض مـن خـصوم الـسياسة الاميركية يصرحون بأن ما يهمهم ليس مـا يجـري فـي بلـدان العـالم الثالـث، الـتي هـم غـير مـسؤولين عنهـا، وانمـا الاكـاذيـب والمنـاورات الـتي تمارسـها الدولـة الاميركيـة نفسها. وهذا الى حد بعيد هـو الموقـف الـذي يكمـن فـي اسـاس انتقـادات تشومـسكي المتواصلة والمقنعة للسياسة الخارجية الاميركية. ولكن هذه المقاربة، على ما توحي بـه من ثبات وامكـان للدفاع عنها، تعرض نفسها لعدد من المخاطر.

❖ قومية مقلوبة

❖ أولا، انها تشجع بخفة بالغة الرأي القائل ان السياسة العالمية كلها هي بـشكل أو آخر نتاج ما تفعله الولايات المتحدة. وهذا الطرح، على هـذه الـصورة، قوميـة مقلوبـة: انه لا يحـاول ان يضع ممارسـات الحكومـة الاميركيـة فـي سـياق دولـي اوسـع. وخـلال الحـركة المناهضة للحرب فـي اوائل الثمانينات أُنتج العديد من خيرة الانتقادات الموجهة الى سباق التسلح فـي الولايـات المتحـدة نفسها. ولكـن كـثيرين كـتبـوا وكـأن سياسـة التسلح الاميركية كـانت نتاج عوامل داخلية بالكـامل، كـما فـي الاتحـاد الـسوفياتي، وان العمليـات الـسياسية الدوليـة لا وجـود لهـا. وعلـى الغـرار نفسه، فـي نقـد الـسياسة الاميركية فـي الخليج، كـثيرا مـا كـان هنـاك ميـل الى الايحـاء بـأن الولايـات المتحـدة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانت، بطريقة أو اخرى، مسؤولة اصلا عن الأزمة كلها، بتسليحها صدام في السابق، أو باستدراجه الى غزو الكويت أو برفضها تمكينه من الانسحاب حين كان حقا يريد الانسحاب. القوى الاخرى لا يُحسب لها حساب: كل شيء كان من صنع الولايات المتحدة، ومسؤوليتها. ثانيا، ان التركيز حصرا على اعمال السياسة الاميركية، وسوء اعمالها، يمكن النظر اليه بكل سهولة على انه يتملص من قضية التقويم السياسي لما تفعله قوى في بلدان العالم الثالث ذاتها، وكيف يمكن للقوى الخارجية ان ترتبط بها. فاذا كان هناك تعذيب واضطهاد وغزو في بلدان العالم الثالث فان هذا لا يمكن ان يُعالَج بمجرد القول ان السياسة الاميركية في هذا السياق سياسة غير نزيهة. ومشكلة السياسة التي اتُّبعت تجاه كمبوديا في عهد الخمير الحمر، أو تجاه غزو صدام للكويت، هي ليست حصرا أو حتى بالدرجة الرئيسية مشكلة تشويه وتناقض اخلاقي اميركي بل تتصل أيضا بما كانت هذه الأنظمة نفسها تمارسه وكيف تستطيع القوى الخارجية، بما فيها الولايات المتحدة، ان تساعد الشعوب المبتلاة على مقاومته. وقصر الاهتمام على نقد الحكومة ذاتها انما هو شكل مقلوب من اشكال الوطنية والذاتية الاخلاقية: لُخِّص هذا الموقف على احسن وجه في ملاحظة غور فيدال خلال حرب الخليج بانه ليس شديد القلق من صدام لأنه ليس اسوأ من شرطة لوس انجليس. وكان افراد من شرطة لوس انجليس صوروا لتوهم على شريط فديو وهم ينهالون بالضرب على مشبوه اسود.

❖ ضحية وعي زائف

❖ ان الحاجة الى تقويم سياسي مدروس اكثر للولايات المتحدة قضية ملحة للغاية في سائر انحاء العالم، لسببين واضحين. أولا، ان انهيار الشيوعية عنى ان شعوبا اكثر فأكثر في العالم اجمع تنظر الى الولايات المتحدة بوصفها مجتمعا نموذجيا ومصدرا للنفوذ الخيّر: مواجهة هذا الوهم تشتمل اولا على ادراك الحقيقة الماثلة في ان هذه هي الحال، وذلك شيء ليس بالهين من حيث مغزاه السياسي ذاته، ولكن المواجهة تشتمل ايضا على التصدي له لا بالصيغ المبتذلة لمعاداة اميركا وانما بشيء يقوم على قدر اكبر من المعرفة. واذا كان اليسار يريد ان يطلع بتقويم متماسك

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومعقول للولايات المتحدة فان عليه ان يدرك ان جموعا من سكان العالم تريد الهجرة والعيش هناك. ومن العبث القول لأهل البانيا أو الصين أو المكسيك انهم ضحية وعي زائف. ثانيا ، ان لدى الولايات المتحدة اليوم سطوة دبلوماسية واستراتيجية أكبر من أي وقت مضى منذ الحرب العالمية الثانية. ومن السهل تهويل هذه القوة ولكن من الخطأ تجاهلها: السؤال المطروح على الذين في الولايات المتحدة ومَنْ عليهم ان يتعاملوا معها من الخارج، هو بأي السبل، كبيرة كانت أو صغيرة، يمكن توظيف هذا النفوذ على نحو افضل لا اسوأ ، أكان هذا في العلاقات الاقتصادية بين الشمال والجنوب، أو في مجال حقوق الانسان، أو في مضمار التدخل، أو اقامة نظام امني جديد يمكن ان يكون بعيدا عن هيمنة طرف واحد في أوروبا؟

الذين في اوروبا والولايات المتحدة ممن واصلوا نقدهم للمجتمع الاميركي والسياسة الخارجية الاميركية زمنا طويلا حري بهم ان يتخلوا عن اداناتهم السهلة والمطلقة في احيان كثيرة، ويغتنموا الفرص المتاحة الآن. فنحن قد نفوّت الفرصة، لكن القوى العاملة داخل الولايات المتحدة وخارجها على تكريس طابع العالم الاشد ظلما وتراتبية، لن تفوّتها بكل تأكيد.

(٨) ـ لامساواة عالمية ومرارة عالمية.. هل هي من افرازات العولمة؟

الرأسمالية الشرسة هي التي أنجبت الشيوعية كفكرة وإذا لم تعالج مساوئها فإنها ستواجه تحديا أكثر خطورة من الشيوعية.

- العولمة تطرح خيارات معيارية بقدر ما تتحدى الفهم التحليلي.
- الحكومة العالمية .. الرحم الذي يمكن أن تنمو فيه كل القدرات الأصيلة للجنس البشري.
- علاقة انهيار الشيوعية بالعولمة ليست إلا علاقة جزئية

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جاء في الحلقات السابقة من كتاب «سعاتان هزتا العالم، للاكاديمي البريطاني المعروف فريد هاليداي، ان صعود الجماعات الاصولية يعقب الحرب الباردة نفسها، بل هو نتيجة لا تنفصل عنها. وفي هذه الحلقة الثامنة يقول.

العولمة، وهي فرصة وخطر في آن، موضوع مركزي للكثير من النقاش المعاصر حول العلاقات الدولية، وبالقدر نفسه، لعدة فروع اخرى من علوم الاجتماع، بينها السوسيولوجيا والجغرافية والاقتصاد. و«العولمة» مصطلح لم يدخل دائرة التداول العام إلا في العقد الماضي، وهي تشتمل، في اطار العديد من المعاني المتباينة والتي كثيرا ما لا تكون دقيقة، على ازالة الحواجز بين المجتمعات والاقتصادات والأنظمة السياسية وحجم ما تتمتع به من مبادلات شهدت زيادة كبيرة، أكانت بمفردات التجارة أو المال أو البشر أو الأفكار. وتطرح العولمة تحديا مزدوجا علينا جميعا، هو محاولة تحليل وفهم هذه العمليات ودلالاتها الأبعد مدى، ولكنه ايضا تحد يتمثل في ان نرى كيف يمكن لنا ان نستجيب لها. اذن، العولمة تطرح خيارات معيارية بقدر ما تتحدى الفهم التحليلي.

وفي ما يتعلق بالتحديين، التحليلي والمعياري، يحسن بنا ان نبتعد عن التيار الجارف في الظاهر لما هو آني. فمن اكبر المغريات في النقاش المعاصر لهذه القضايا هو نفي العمق التاريخي، أكان عمق العملية ذات العلاقة أو عمق النقاش المعياري للقضايا التي تثيرها. في هذا الصدد وانسجاما مع الاصول التنويرية لهذه الاكاديمية ذاتها، من المناسب ان نبدأ بواحد من الابعاد الكلاسيكية للعلاقات الدولية على وجه التحديد.

❖ الحكومة العالمية.. الملاذ الأخير

❖ الموضوع الذي ادرّسه، العلاقات الدولية، يطمح في تناول العلاقات بين الدول والأمم في ثلاثة منظورات عريضة: العلاقات بين الدول نفسها، ما اصطُلح على تسميته «دولية» منذ نحَت جيريمي بنتهام المصطلح في عام ١٧٨٩، والعلاقات بين المجتمعات والشعوب، بالمفردات الثقافية والاجتماعية، فضلا عن المفردات الاقتصادية

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ما بات يُصطلح على تسميته في عهد احدث بكثير «عابرة للقوميات» ـ وما يُصطلح على تسميته، من منطلقات نظرية مختلفة، «بنيوية»، أي مجموعة السياقات، السياسية والاقتصادية وغيرها، التي تحدد افعال الدول المنفردة والمفاعيل الاخرى. انها موضوع هام بقدر اهمية أي موضوع آخر لفهم السلوك الانساني والشرط البشري، ولكنه ايضا موضوع يشجع، لاسباب مختلفة، درجة اعلى من التأمل والتوكيد.

خير الأعمال النظرية هي في احيان كثيرة أكثرها اختصارا، وليس هناك مثال على ذلك احسن من مقالة ايمانويل كانط التي كتبها في ١٧٨٤، قبل عام من تأسيس هذه «الاكاديمة الايرلندية الملكية»: «فكرة لتاريخ كوني»، مقالة تقع في ١٣صفحة وتسوق محاجَّة وجاهتها الآن كما كانت وقت كتابتها، بل ويمكن الجدال بأنها اكثر وجاهة. كانط يدعو الى نظرة الى التاريخ، الى التقدم الممكن وتطور العلاقات بين الدول تطورا يمكن ان يؤدي، من خلال التعاون المتزايد بين الدول، الى شكل من اشكال الحكومة العالمية. طموحه «ان ينشأ، بعد العديد من الثورات الاصلاحية، شرط كوزموبوليتي كوني، هو غاية الطبيعة في نهاية المطاف، بوصفه الرحم الذي يمكن ان تنمو فيه كل القدرات الاصيلة للجنس البشري». وتذهب صيغة معاصرة لهذه المحاجّة، لا تختلف بالكامل عما كتبه، الى ان النزاع بين الدول سيتراجع اذ تصبح انظمتها الداخلية اكثر دستورية وديمقراطية، وان دول العالم يمكن، بمرور الزمن، ان تتقدم نحو بناء اسرة سياسية عالمية موحدة. كان هذا وقتذاك احتمالا متفائلا وبعيدا، وهو يبقى كذلك الآن. والذين ظنوا، خلال القرنين التاليين، ان الحرب اختفت من العلاقات الدولية، نتيجة التصنيع والتجارة في المقام الأول، خُيّبت آمالهم بقسوة. وبالقدر نفسه، فان التطلع الى اقامة حكومة عالمية يكسب اليوم اصدقاء أقل منهم في الماضي لأسباب منها تعلق الشعوب بحكومات دولهم الديمقراطية من جهة، ولأن أي مشروع لاقامة حكومة عالمية، كما يدعو البعض، قد يبدو قضية هيمنة عالمية يبسطها آخرون. ولكن الصلة التي يشير اليها كانط بين النظام السياسي الداخلي والتعاون الدولي والاهداف المشتركة بصورة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

متزايدة لمثل هذه الدول، وهي صلة عاد اليها في عمله الكلاسيكي الآخر المتسم بالايجاز والنظرة الثاقبة، الذي كتبه عام ١٧٩٦، صلة قائمة بيننا الآن الى حد بعيد.

في المنظور التاريخي تمثل العولمة التتويج الاقتصادي والاجتماعي لخمسة قرون من تكامل العالم في اقتصاد عالمي واحد، كان رواده الأقوى. والقضايا السياسية التي تثيرها العولمة الآن قضايا تشكّلها التحديات التي تطرحها القومية على انظمة السلطة السياسية القائمة، وبداهة على أي مشروع لتقرير المصير الوطني، وعلى السيطرة «الوطنية»، أي سيطرة الدولة، على الاقتصاد، وتطرحها بصفة عامة على سلطات الدولة السيادية. ولكن هذه التحديات وفتح الاقتصادات عالميا تطورت في عالم ذي طابع متميز من حيث الجوهر، سمته نهاية الحرب الباردة ومعها نهاية عالم، في الوقت الحاضر على اقل تعديل، تسوده تكتلات استراتيجية واقتصادية متنافسة. ومن المهم ان نفهم هذا التغيير، ليس لتقييم الطريقة التي جرى بها تكوين الوضع الدولي المعاصر فحسب، وانما لتشخيص تلك الطرق التي ما زال ذلك الماضي يمارس تأثيره بها رغم ما طرأ من تحول على السياسة الدولية. ومن هذا التغير الهائل الذي حدث اواخر الثمانينات واوائل التسعينات، وهو عملية منفصلة لكنها مترابطة مع العولمة الاجتماعية ـ الاقتصادية، يمكن ان يبدأ فهم للعالم المعاصر.

❖ آثار الحرب الباردة

❖ كانت نهاية الحرب الباردة، في ١٩٨٩ـ ١٩٩١، المنعطف الكبير الثالث في تاريخ القرن العشرين: كانت ايذانا بتحول درامي في الشؤون الدولية مثَلَه مثل نهاية الحربين العالميتين الاولى والثانية. وقد انهارت عمليات عدة في هذا الانتقال السريع، المفاجئ والسلمي من حيث الأساس: نهاية سباق التسلح النووي الاستراتيجي الذي القى بظلاله على الانسانية جمعاء ـ كانت لحظته الأشد درامية في بحر الكاريبي في اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٢ـ ونهاية الصراع بين القوى الكبرى، الذي سيطر على العالم طيلة اربعين عاما، ونهاية نزاع ايديولوجي سعى فيه نظامان اجتماعيان متزاحمان، رغم كل الخطابية والانتهازية اللتين ارتبطتا به، الى بسط هيمنتهما على

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العالم، وكانت ساحاته الشرق الاقصى وجنوب القارة الافريقية واميركا اللاتينية، وصراعات اجتماعية حادة كلفت ملايين الارواح، وانبثاق عشرين دول جديدة نتيجة تفكك دول متعددة القوميات بالاقتران مع ازمة السلطة الشيوعية. اسباب هذا الانهيار الشيوعي والدروس الاوسع التي ينبغي استخلاصها من اكبر تجربة في تحويل المجتمع تحويلا هادفا طوباويا، ستكون موضع نقاش لزمن طويل. وكان الانهيار ناجما، في جزء منه، عن العولمة ذاتها نتيجة ضغط النموذج الرأسمالي، المتطور، الأنجح نسبيا على المجتمعات الاشتراكية السلطوية التي كانت راكدة فكريا وثقافيا واقتصاديا. ولكن علاقة انهيار الشيوعية بالعولمة ليست إلا علاقة جزئية: التغيير الاجتماعي في الدول الشيوعية نتيجة نجاح الشيوعية في مجال التعليم والتقدم الاجتماعي من جهة، وفقدان الارادة السياسية تدريجيا لدى القيادة السوفياتية من الجهة الثانية، كانا بالقدر نفسه من الأهمية.

تقع الآثار المترتبة على انهيار الشيوعية بالنسبة للعلاقات الدولية ضمن اربع خانات على اقل تعديل. اولا، الأمن الدولي. أمن الترسانة الكبيرة من المواد النووية والاسلحة الكيمياوية والبيولوجية في الاتحاد السوفياتي السابق ليس امنا جليا. وآليات الرقابة الدولية والوطنية الحالية ليست كافية. وحدوث انتكاسة صغيرة في الأمن بالارتباط مع هذه المواد يمكن ان تكون له عواقب دولية وخيمة. كما ان انتهاء سباق التسلح النووي بين الولايات المتحدة وروسيا اعقبه انطلاق منافسة نووية في اماكن اخرى: في مايو (ايار) ١٩٩٨ فجرت الهند وباكستان اسلحة نووية. وكانت دول في الشرق الاوسط ستأخذ علما بذلك، لا سيما بالرد الدولي المتخاذل والمراوغ. وفي الشرق الاقصى، اذ تنحسر القوى العسكرية الروسية والاميركية، هناك خطر اندلاع منافسة بين الصين واليابان بمشاركة دول قوية اخرى مثل كوريا وتايوان. وينبغي ان لا ننسى ان الطلقات الاولى في الحروب الدولية للقرن العشرين أُطلقت في الشرق الاقصى، في الحرب الصينية اليابانية عام ١٨٩٤. ولا نملك سوى الأمل، لكننا لا نستطيع التوثق، بأن معادل ذلك في التسعينات لن يكون التفجيرات النووية الهندية ـ الباكستانية في عام ١٩٩٨.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فـي الوقـت الـذي تراجعـت فيـه المنافـسة العـسكرية الاسـتراتيجية بـين القـوى الكبرى، للمستقبل المنظور، استمرت نزاعات اقليمية محدودة. وفي الشرق الاوسـط، اكبر مستورد للسلاح من أي منطقة نامية اخرى ـ بنسبة تربو على ٦ في المائة من اجمالي الناتج المحلي يزيد ما ينفقه ست مرات على انفاق اميركا اللاتينية ـ تستمر مجموعة من الصراعات المتداخلة الخطرة. فالعراق ما زال في نزاع مع المجتمع الدولي: قام بغزو اثنين من جيرانه، ايران في عام ١٩٨٠، متسببا في مقتل مليون شخص، والكويت في عام ١٩٩٠. ويمكن ان يراودنا جميعا الأمل بأن العراق، وهو بلد ذو طاقات بشرية واقتصادية كبيرة، سيعود الى الارتباط بعلاقات طبيعية مع جيرانه والعالم. ولكن التردد الذي تبديه دول اوروبية أو اميركية لاتينية بشأن الاخطار التي يشكلها العراق لا يخدم مصالح السلام العالمي أو العدالة الدولية. وفي افريقيا حيث انتعش التفاؤل بتحقيق التنمية السياسية والاقتصادية في اوئل التسعينات، تحتدم حروب عدة، تكتسب طابعا اقليميا متعاظما. في القرن الافريقي اشتبكت دولتان ثوريتان، هما اثيوبيا واريتريا، في حرب شاملة اخرى رغم كل المساعي الحميدة التي بذلها المجتمع الدولي للمصالحة بينهما وكبح جماحهما. وفي البلقان يسود سلام تحف به الاخطار. وفي البوسنة وكوسوفو: تسوية مجمَّدة قد تتحقق في الاولى حتى وإن تكن مفرَّغة من أي حل توفيقي ذي معنى، وقلة يعتقدون ان السلام سيصمد في الثانية. ويقترن انطلاق سباقات التسلح واندلاع الحروب الأهلية والنزاعات الدولية التي أُسبغ عليها طابع اقليمي بنتيجة اخرى من نتائج انتهاء الحرب الباردة هي اغراق السوق العالمية بأسلحة صغيرة لا تخضع لرقابة دولة وتؤجج النزاعات المشتعلة بصورة خطيرة. لذا فان قضية السلام والأمن الدوليين، المسألة الأكثر كلاسيكية في العلاقات الدولية، بعيدة عن كونها قضية عفا عليها الدهر. نتيجة اخرى من نتائج انهيار الشيوعية كانت اعادة رسم الخريطة الدولية. فخلال السنوات الاربعين من الحرب الباردة كانت خريطة العالم مستقرة نسبيا: بلدان نالت استقلالها من السيطرة الكولونيالية ولكن باستثناء وحيد هو بنغلاديش، لم تحدث تعديلات في خريطة الدول. وكانت النتيجة الأسطع لنهاية الشيوعية تفكك اربع دول ـ الاتحاد السوفياتي

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا واثيوبيا. وعند البعض، لا سيما في اوروبا ولكن حتى في مناطق من اميركا اللاتينية، بدا هذا مقدمة لمزيد من التعديل في حدود الدول. وتحدث البعض عن اضفاء طابع هلامي (اميبي) ما بعد حداثوي على الدول - بانشطارها الى مئات أو آلاف الكيانات. ولكن هذا لم يحدث حتى الآن: لم تتفكك دول إلا حيث كانت السلطة الشيوعية في أزمة قاتلة. اما في كاتالونيا وكوبيك والتبت وريو غراندي دو سول فان خريطة الدول بقيت بلا تغيير. واذا كنا سنواجه في المستقبل ازمة تلمُّ بدول قائمة، لن تكون هذه نتيجة التغيرات الناجمة عن نهاية الحرب الباردة بل نتيجة اشكال جديدة من السياسة والادارة الاقتصادية ترتبط بالعولمة والتفرع. أنا شخصيا اشك في ذلك ولكننا نستطيع ان نتحلى بعقل مفتوح. كما علينا ان ندرك ضعفنا المعياري ازاء هذه القضية: رغم المناظرة والتفكير على امتداد أكثر من مائة عام في حقوق الانفصال، فاننا لم نقترب من اعتماد منظومة من المبادئ القانونية والسياسية. ولقد كان الانفصال السلمي ممكنا خلال هذا الوقت - النرويج وسلوفاكيا حالتان تؤكدان ذلك. ايرلندا تفاوضت بشأنه لكنها ناضلت وصوتت اولا - غير ان العملية الفعلية هي عموما عملية براغماتية، ذات اهداف محدَّدة، وعادة عملية عنيفة. ومن الجائز القول، في ضوء الادلة التاريخية، بأن الانشطار الى دول اخرى ينبغي ان يكون ملاذا أخيرا. لكن التركيز على الانفصال قد يكون مضللا. فان اهم بكثير من تفكيك الدول كان بُعد آخر في اعادة رسم الخرائط هو دمج الدول: المانيا واليمن، حيث حدث هذا الاندماج. الصين وكوريا حيث بدأ يحدث، وحدوثه حتمي عاجلا أو آجلا. ومثل هذا التوحيد لا يُوجد اقتصادات قوية فحسب بل يؤدي الى اعادة نظر في موازين القوى الاقليمية. وفي ميزان التاريخ فان استقلال جورجيا واوزبكستان ومقدونيا واريتريا، سيكون، دونما انتقاص منها، اقل قيمة بكثير من التحولات الهائلة التي صاحبت توحيد دول قسّمتها الشيوعية. فالمانيا هي الآن القوة الاقتصادية المهيمنة في اوروبا. وستضطلع عاجلا أو آجلا بدور أمني متناسب. والصين بمعدل نمو بلغ مؤخرا ٨ في المائة سنويا وربع سكان العالم، تستطيع الهيمنة على شرق آسيا. لكن هذه العمليات في اعادة رسم الخريطة تلفت الانتباه الى نتيجة اخرى

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يمكن ان تكون متفجرة من نتائج نهاية الشيوعية، نتيجة ذات دلالات ضخمة لنموذج الادارة الاقتصادية، تلكم هي توترات الانتقال. ففي تلك البلدان التي سقطت فيها سلطة الشيوعيين ـ الاتحاد السوفياتي السابق واوروبا الشرقية ـ اقترن الانتقال الى انظمة السوق الحرة بتخلعات اجتماعية واقتصادية هائلة. وفي المحصلة يبدو من المرجح ان دول اوروبا الشرقية الأكثر تقدما ستكون قادرة على معالجة هذا الوضع ولكن حتى في المانيا الشرقية السابقة يمكن ان يصاحب هذا الانتقال تفكيك الصناعة وبطالة وتصاعد السخط الشعبي. وفي الاتحاد السوفياتي السابق وبعض بلدان اوروبا الشرقية كان الانتقال كارثة حقيقية اسفرت عن انهيار المعايير الاقتصادية والاجتماعية انهيارا اكبر واطول امدا منه خلال الحرب: هبوط نصيب الفرد من الدخل بنسبة متوسطها ٤٠ في المائة مصحوبا بتفشي الجريمة، انهيار الرعاية الاجتماعية، استشراء الفساد والنشاطات الاجرامية، وفوق ذلك كله فشل النخب السياسية ما بعد الشيوعية فشلا ذريعا. ومن بين سائر الدول الاوروبية الشرقية والسوفياتية السابقة هناك دولة واحدة فقط ـ بولندا ـ يزيد اجمالي ناتجها المحلي الآن عليه في عام ١٩٨٩. وافاد البنك الاوروبي للاعمار والانماء بأن اقتصادات الاتحاد السوفياتي السابق ستكون تراجعت بنسبة ٥٥ في المائة اضافية حتى نهاية ١٩٩٩.

علاوة على البؤس البشري الناجم عن الاصلاح المتهور وغير المسؤول والنخب السياسية الفاسدة، فان هذه الانحطاط الاقتصادي والاجتماعي يهدد بأن تكون له آثار دولية طويلة الأمد، في صعود قومية غاضبة ترتبط بالتدهور الاقتصادي وانعدام الاستقرار السياسي، وان العواقب المترتبة على غياب المسؤولية السياسية والحاكمية الصالحة لا تطاول شعب روسيا وحده: الـ ٢٢ بليون دولار التي قُدّمت لانقاذ روسيا في يوليو (تموز) ١٩٩٨ لم تحل مشكلة الديون التي تعانيها البلاد لأن حوالي ٥ بلايين دولار من الدفعة الاولى تبخرت بسرعة. هذا لا يصح، بالطبع، على تلك البلدان التي تأخر فيها الانتقال السياسي: الصين، كوريا، فيتنام، وبآثار بالغة على اميركا اللاتينية والعلاقات بينها وبين الولايات المتحدة، كوبا. ولكن ضغوط الانتقال الاقتصادي تتبدى واضحة في كل هذه البلدان: كوبا وكوريا الشمالية تقاسيان من

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هبوط مستوياتهما الاجتماعية والاقتصادية، وتتصاعد توترات اقليمية ومدينية، ريفية شديدة في الصين. وعند نقطة ما في المستقبل ستنفجر ازمة سياسية: دول الحزب الواحد هذه لا يمكن ان تدوم الى الأبد. الدلالات على صعيد السياسة وادارة العلاقات الدولية تبعث على القلق. فحين تدخل الصين ازمتها السياسية، كما يجب ان تدخلها، سيعرف العالم كله بها. وبالنسبة لاميركا اللاتينية يبقى هناك قلق ويجب ان يكون هناك قلق على كوريا حيث الحصار الاميركي، مقترنا بالشلل السياسي في هافانا، فرض الحرمان على الشعب الكوبي. ولنا أن نأمل بأن الانتقال في كوبا سيكون سلميا وسريعا ويحافظ على مكتسبات الثورة الكوبية في الاستقلال والكرامة الوطنية والرعاية الاجتماعية ـ الاقتصادية. الدروس المستخلصة من عمليات الانتقال الاخرى لا تشجع على هذا الأمل.

❖ فوكوياما.. مصيب ومخطئ

❖ ينقلني هذا الى أن النتيجة الأخيرة لانهيار الشيوعية هي تأثيرها الفكري: افلاس الايمان بمجتمع ثوري، مخطط ما بعد رأسمالي بديل. وكان لدى المعلقين السياسيين الكثير مما قالوه في ذلك: خورجه كاستانيدا عن اميركا اللاتينية، وفرانسوا فوريه، كاتبا عن نهاية الوهم الشيوعي، ان السياسة الغربية لم تعد ذريعة للمستقبل، وفرانسيس فوكوياما معيدا صياغة فكر هيغل في عمله «نهاية التاريخ». ثمة محاجّة جادة هنا يرفضها بخفة نقاد هؤلاء الكتاب الذين يعتمدون في نقدهم على الانشاء. فالشيوعية وكل قريباتها من المشاريع الطوباوية في الاشتراكية الاستبدادية والثورة الشعبوية والعصور الذهبية الاسلامية والجمهوريات الفلاحية وامثالها كانت، رغم كل الاختلافات بينها، متطفلة على النموذج البلشفي وقامت، مثله، على قراءة التاريخ الحديث قراءة خاطئة من الأساس، بأن الرأسمالية كانت حقا تهيئ بديلها ذاته، حفار قبرها، وان بالامكان بناء النظام ما بعد الرأسمالي البديل. ان حدود العقل، بالارتباط مع مشروع سياسي جماعي، لم تتبد بشكل اكثر درامية، وبثمن انساني باهظ جدا. وفوكوياما مصيب عندما يقول ان لا وجود في

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العالم المعاصر لفكرة بديلة كبرى من فكرة المجتمع الديمقراطي الليبرالي، حتى وإن كان مخطئا في النظر الى هذا على انه مستمر بالضرورة، أو يعني ان العالم اجمع، أو حتى غالبية مجتمعات العالم، يمكن ان تبلغ مثل هذا النظام السياسي وتديمه.

ولكن سيكون من الخطأ بالقدر نفسه معاملة التجربة الشيوعية التي غطت اكثر من ثلث البشرية بوصفها مجرد خطأ أو انحراف: ملايين البشر ثاروا وناضلوا وعملوا وماتوا من اجل بناء نظام بديل لأنهم وجدوا ان النظام القائم نظام لا يُطاق. فان رأسمالية الحداثة القائمة فعلا - بما تتسم به من حروب وقهر ولامساواة واستغلال - هي التي انجبت الشيوعية كفكرة وكتحدٍ. وما لم تتعلم الرأسمالية ايضا من ذلك الفشل، وبخاصة معالجة اللامساواة التي تُوجدها على الصعيد العالمي والتي هي الآن اشد وطأة منها قبل خمسين أو مائة عام، فانها ستواجه في المستقبل تحديات اخرى، ايضا باهظة الكلفة وفاشلة في نهاية المطاف. وبهذا المعنى، من الضروري ان نؤكد مجددا دروس الخدر الذي ارتاحت اليه في عصر الرخاء عشية الحرب العالمية الاولى belleepoque ليس من آفة من آفات تاريخ القرن العشرين - الحرب، المجاعة الجماعية، التطهير العرقي، الثورة - أُقصيت نهائيا من العالم المعاصر. وهي كلها يمكن ان تعود للقيام بدور قيادي في مجرى الألفية الثالثة ما لم تُرسم وتُنفذ سياسات ذكية وحازمة بما فيه الكفاية.

❖ العولمة

❖ اصبحت العولمة خلال السنوات القليلة الماضية عنوان التحليل الاقتصادي والسياسي العالمي. ومن الواضح ان شيئا مهما وجديدا يحدث. فان تحرير التجارة اقترن بزيادة في احجام التجارة العالمية كنسبة من الانتاج، وارتفع حجم الاموال المتداولة في سوق العملات العالمية من ١٩٠ بليون دولار يوميا في عام ١٩٨٧ الى نحو ٢١ ترليون في عام ١٩٩٥. وازدادت الاستثمارات الخارجية المباشرة في الاقتصادات الناشئة من ٥٠ بليون دولار في عام ١٩٩٠ الى ١٥٠ بليون دولار في عام ١٩٩٨. واندمجت مناطق

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أكثر فأكثر من العالم بآليات السوق، والبعض سيقول أُخضعت لها. وفي مجال التكنولوجيا شهدنا الانتشار المذهل لاشكال من الاتصالات الفضائية، من جهة، والانترنت من الجهة الثانية. وبالمفردات السياسية نشهد قدرا اكبر من تكامل التجمعات التجارية في الاتحاد الاوروبي وتجمع ميركوسر Mercosur في اميركا اللاتينية واستحداث مؤسسات جديدة للادارة الاقتصادية العالمية ابرزها منظمة التجارة العالمية. كل هذه يقترن بشيء ذي اهمية مركزية لتغيير العلاقات الدولية، وهو التحول الذي يطرأ على سلطات الدولة: اياً يكن ما تنطوي علية العولمة من اشياء اخرى فيبدو انها تشتمل على تقلص كبير في السلطات التقليدية التي تتمتع بها الدول لمراقبة تدفق رؤوس الاموال والبضائع وتنظيم اسعار الفائدة والصرف وبناء ثقافة وطنية والحد من حركة السلع، وخاصة المخدرات والاسلحة الصغيرة. وفي المقام الاول، حركة الافراد عبر حدود هذه الدول. والعولمة بهذا المعنى كثيرا ما ترتبط بأشكال من تعذر ممارسة الحكم على الصعيد السياسي. يمكن العثور على تحليل فذ بصفة خاصة لهذه التأثير الذي يحدثه التغير العالمي في عمل زميلتي الراحلة، الخبيرة في الاقتصاد السياسي العالمي سوزان سترينج، تذهب محاجَّتها الى ان السلطة بنيوية بصورة متزايدة ولا تقوم على وحدات، أي ليست تتركز على دول. وهي تشخص اربع بنى للسلطة في العالم المعاصر: الأمن، الانتاج، المال، المعرفة. البنية الاولى، الأمن، وحدها التي تحتكرها الدول، وبدرجة متناقصة. البنى الثلاث الاخرى بنى لا شخصية تؤثر في الدول والشركات متعددة الجنسيات والافراد بطرق تجد الهيئة البشرية، بما فيها الدول، صعوبة في السيطرة عليها. ولكن ثمة حاجة هنا الى التحوط مبتدئين بسؤالين عن هذه العملية، ربما كانت لهما صفة بريطانية من حيث الأساس: السؤال الأول، ماذا نعني بها؟ والثاني، ما مدى جدّتها في الحقيقة؟ تغري العولمة بالمبالغة والاقوال الدرامية عن التغيير - ما يصطلح على تسميته احيانا بعبارة «هرف عولمي globaloney» العولمة يمكن ان تعني بالمفردات الاقتصادية اشياء عديدة: اجراءات لتشجيع التجارة الحرة، ازدياد أحجام التجارة كنسبة من اجمالي الناتج المحلي، ازدياد الاستثمارات الاجنبية المباشرة كنسبة من اجمالي الناتج المحلي، ازدياد

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاستثمار الاجنبي المباشر كنسبة من اجمالي الاستثمار داخل البلد. وهذه عمليات متميزة.

كما يتعين وضع هذه العمليات في منظور تاريخي ومقارن. وكما سبقت الاشارة، فان اقامة اقتصاد عالمي موحد لكنه غير متكافئ بصورة متزايدة، على ايدي الدول الأقوى، واشدد على كلمة «الدول»، بدأ في حوالي عام ١٥٠٠. نقل الافكار الدينية والثقافية والسياسية عبر الحدود يعود الى زمن حتى أبعد. واحدى خصائص العولمة، متمثلة بالقدرة على نقل المعلومات والتعليمات المالية في آن واحد بين القارات، كانت متاحة منذ مد كابلات عبر المحيط الاطلسي في ستينات القرن التاسع عشر: السياسة لا التكنولوجيا هي التي حددت عمليات التدفق. ونشوء سوق عالمية متواصلة، مفتوحة ٢٤ ساعة يوميا وقادرة على تحريك كميات كبيرة من المال، جاء نتيجة انهيار نظام بريتون وودز في اوائل السبعينات ـ لعله التاريخ الذي ينبغي ان تُنسب اليه عولمة اليوم. ولكن تحرير التجارة اليوم في البلدان المتطورة لم يتخط مستوياته في الفترة السابقة على عام ١٩١٤ إلا في العقد الماضي. فالقسم الأعظم من التجارة تجارة داخلية، واذا لم تكن داخلية فمع بلدان متطورة اخرى. وبالنسبة لدول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية يبلغ حجم الاستثمار الاجنبي المباشر نحو ٦ في المائة من الاستثمار الداخلي، وما هذا بالمؤشر الرمزي الى وجود اقتصاد مُعولَم. يبقى دور الدولة في الاقتصاد قويا: حصة الدولة تبلغ مستويات عالية، تزيد في المتوسط على ٤٥ في المائة من اجمالي الناتج المحلي في بلدان منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية. وهي لم تسجل انخفاضا كبيرا منذ اوائل الثمانينات. وقد فقدت الدول بعض سلطاتها التقليدية، وكفت بعض الدول الأضعف أو الدول المنهارة عن اداء الحد الادنى من وظائفها. ولكن غالبية الدول ما زالت تحتفظ بسلطتها وفي بعض الحالات قامت بزيادتها. ولدى الدول ادوات قوية لتشجيع البحث العلمي داخل مجتمعاتها، وتنظيم التجارة وفرض شروط للاستثمار، لا سيما لاستيراد وتصدير رؤوس الاموال. والانترنت، هي نتاج بحث لحكومة الولايات المتحدة في الاتصالات الآمنة، بدأت في السبعينات. وتبين النقاشات الحالية حول السيطرة على انعدام الاستقرار المالي، التي

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقوم امثلة من السياسة التشيلية حديثة العهد بدور مركزي فيها، كيف تستطيع الدول بصفة خاصة ان تدير تدفق رؤوس الاموال الى بلدانها وتحد من التدفق المدفوع بالمضاربة على المدى القصير. ومن نواح معينة، فان سلطات الدولة اكبر واشد تدخلية منها في أي وقت مضى: الضوابط على البيئة، الضوابط على الغذاء، الضوابط على عادات شخصية مثل التدخين، الضوابط على المراقبة، كلها من سمات العالم المعاصر. وفي حالات عديدة نرى دولا تتعاون أو تشكل منظمات دولية لتنظيم الاقتصاد العالمي ولكن هذه نتاج دول من حيث المنشأ والسلطة النهائية، وليس لها سلطة فوق قومية. وحيث تُقدَّم اقتراحات لصالح ما فوق القومية فانها لا تتكلل بالنجاح، كما اظهر فشل المقترحات الداعية الى تشكيل قوة دائمة لحفظ السلام أو بناء جيش تابع للامم المتحدة أو درجة طفيفة من فرض ضرائب اوروبية.

(٩) - «الحاكمية العالمية».. عولمة مردوخ وبرلسكوني لا تساهم في إقامة نظام حاكمية قوي

تجارة المخدرات والبيئة والهجرة قضايا منفلتة وستبقى فلتانة إلى أن تكون للدول الفاعلة إرادة لضبطها

❖ فكرة وجود سوق بلا ضوابط تمارسها الدولة خرافة.

❖ واقع اللامساواة في العالم المعاصر يشكل أكبر موطن ضعف للعولمة وينذر باضطرابات سياسية داخل الدول وفي ما بينها.

❖ أشد الفاعلين نفوذاً في الاقتصاد العالمي هم تجار المخدرات والسلاح

جاء في الحلقات السابقة من كتاب «ساعتان هزتا العالم» للاكاديمي البريطاني المعروف فريد هاليداي، ان صعود الجماعات الاصولية لم يعقب الحرب الباردة نفسها، بل هو نتيجة لا تنفصل عنها. وفي هذه الحلقة التاسعة يقول:

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ على المدى الأبعد تتمتع الدول بسلطات هامة جدا لتحديد شكل مجتمعاتها. وهذا ما يؤكده مثال سنغافورة التي في ظرف جيل وبسكان عددهم اربعة ملايين، اصبحت منتج نصف جميع الاقراص الصلبة للكومبيوتر في العالم. واشار بول كندي في عمله «الاستعداد للقرن الحادي والعشرين» Preparing for the Twenty first Century الى ثلاثة مجالات ذات اهمية حيوية لأداء الدول الاقتصادي والسياسي، تبقى فيها السلطة الوطنية هي الأسمى: التعليم، ومشاركة المرأة في الحياة العامة، ونوعية القيادة السياسية. ويمكن ان تضاف الى هذا، الحاكمية الصالحة - أي النزيهة والكفؤة - والمسؤولية عن فشل الدول، كبيرها وصغيرها، في أي من هذه لا يمكن ان تُلقى على عاتق السوق العالمية أو المؤامرات الخارجية. واذا كان هناك نقص في القيادة السياسية في العالم، الشيء الذي يرتدي عدة اشكال، فان هذا ليس نتيجة عوامل بنيوية أو اتجاهات عالمية أو ما بعد الحداثة وانما نتيجة تقصيرات فردية وقومية.

لهذا السبب نحن بعيدون عن كوننا في عالم السلطة العليا فيه للسوق. والحق ان الوضوح التحليلي والتاريخي، مقترنا بملاحظة العالم المعاصر، يقودنا الى وضع اشتراطات من ثلاث نواح اساسية على أي نموذج لاقتصاد عالمي بلا ضوابط، إما بوصفه صورة للحاضر أو هدفا منشودا. ففي المقام الأول، ان فكرة وجود سوق من دون درجة من الضبط الذي تمارسه الدولة، خرافة وقد كانت دائما خرافة. اذ قامت الدول بدور اساسي في ضمان الأمن المادي الذي تحتاجه التجارة والمال والملكية، وفي تنظيم النشاط المصرفي والقانون التجاري، وفي فرض الضرائب على الافراد والاعمال، وفي التصرف بنسبة ٤٠ في المائة أو نحو ذلك من الناتج القومي الذي تسيطر عليه. وتستمر سياسات الدولة ونياتها في القيام بدور مركزي في تحديد آفاق الاسواق: ما من مضارب في السوق، مهما كان بعيدا عن البلد ذي العلاقة، يتجاهل نتيجة الانتخابات أو الازمات السياسية أو البيانات الخاصة بالسياسة الاقتصادية. وتترتب على العامل الأكثر سديمية من سائر العوامل الاخرى، وهو مصداقية القادة السياسيين، تبعات اقتصادية هائلة، كما اظهرت احداث السنوات

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأخيرة في بلدان عديدة. وبالقدر نفسه فان اولئك الذين يواجهون مصاعب اقتصادية يعودون المرة تلو الاخرى، الى الدولة وهيئاتها المالية ذات الصلة طلبا للدعم. وفي الولايات المتحدة يؤكد ذلك تحرك الدولة لانقاذ مجموعة لونغ تيرم كابتال فايننانس Long Term Capital Finance، وتدخل الرئيس بيل كلينتون للحد من واردات الفولاذ الرخيصة. ويبين مثالان آخران استمرار التحديدات المفروضة على التجارة الحرة. فان اسعار البنزين في الولايات المتحدة تقل عن نصف اسعارها في بريطانيا أو فرنسا وتبلغ ثلث اسعارها في النرويج. وهناك تمايز مقداره نحو ٢١ بين الاسعار الاوروبية والاميركية لمعدات الكومبيوتر. السؤال ليس ما اذا كانت الدولة أو السوق هي التي تحكم، بل ما هي الصيغة التي تجمع بين الاثنين؟ وكانت الدعاية الليبرالية الجديدة تجاهلت ذلك إما بالجدال لصالح نموذج خالص، غير عملي للنشاط الاقتصادي أو بابداء عقدة اضطهاد لامسؤولة، من النوع الذي اشاعه فون هايك، دون تمييز بين تدخل الدول الناظم والديمقراطي والغاء السوق الغاء شموليا. ولا هذا مجرد قضية تتعلق بالخيارت السياسية لوسائل تحقيق هدف متفق عليه: الاقتصاد يشتمل بصورة لا مفر منها على خيارات اخلاقية، كما بادر آدم سمث وغيره من الاقتصاديين الكلاسيكيين الى التوكيد. وهذه هي الموضوعة التي يرتبط بها اقوى ارتباط الفائز مؤخرا بجائزة نوبل للاقتصاد امارتيا سين.

ثانيا، ان احداث الشطر الأخير من التسعينات، وخاصة في شرق اسيا وروسيا، اكدت شيئا كانت المعرفة المعقولة بالتاريخ الاقتصادي ستساعدنا على عدم نسيانه ابدا، وهو عدم استقرار السوق. وهذه موضوعة مركزية من موضوعات الاقتصاد السياسي الكلاسيكي والتاريخ الاقتصادي، أكانت نظريات ماركس في دورات رأس المال أو عمل شومبيتر وبولاني حول رد فعل الاسواق المتطير على نحو متأصل فيها والعلاقة بين الدولة والسوق. وكان احد الادعاءات الكثيرة في الشطر الأخير من القرن العشرين ان الرأسمالية تمكنت بشكل ما من معالجة عدم الاستقرار هذا. ونستطيع الآن ان نضيف الى دورات ارتفاع الانتاج وهبوطه الدورات التي تعمل العولمة على تعزيزها وتسريعها بمفردات الانفتاح والسوق الالكترونية وعدم استقرار اسواق

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العملات الاجنبية، وما هو اخطر، عدم استقرار الصناديق الاستثمارية. ليس هذا انحرافا، نتاج اعباء لا تطاق تورطت بها بنوك تايلاندية هنا أو كرملين روسي فاسد هناك، فان عدم الاستقرار منهجي ويتطلب ردا منهجيا: أي ازمة مالية واحدة يمكن تفاديها ولكن الازمات المتكررة لا يمكن تفاديها.

❖ اللامساواة.. موطن ضعف العولمة الأكبر

❖ ثالثا، والأشد خطرا، ان العمليات المرتبطة بالعولمة وحالات عدم الاستقرار المرافقة لها أدت، رغم كل تأثيرها الاقتصادي، الى لامساواة أكبر فأكبر في العالم المعاصر. وتبين الارقام التي نشرها مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية انكتاد انه في ربع القرن الممتد من ١٩٦٥ الى ١٩٩٠ ازداد نصيب الـ٢٠ في المائة الأكثر ثراء من دخل العالم من ٦٩ في المائة الى ٨٣ في المائة. وفي عام ١٩٦٥ كان متوسط دخل الفرد بين الـ٢٠ في المائة الأكثر ثراء يزيد ٣١ مرة على متوسطه لدى الـ٢٠ في المائة الأكثر فقرا، وفي عام ١٩٩٠ ارتفع هذا الفارق الى ٦٠ مرة. وبحسب برنامج التنمية التابع للامم المتحدة كانت هناك زيادة لافتة في الاسعار والاستهلاك العام: ست مرات منذ عام ١٩٥٠، ومرتان منذ عام ١٩٧٥، الى ما مجموعه ٤٢٠٠٠ بليون دولار على الصعيد العالمي. وبهذا المعنى يكون وعد الرأسمالية بتوفير احجام اكبر من البضائع والخدمات قد تحقق. ولكن ٢٠ في المائة من سكان العالم يساهمون بنسبة ٨٦ في المائة من اجمالي الانفاق في حين ان الـ٢٠ في المائة الأكثر فقرا يساهمون بنسبة ٣١ في المائة. ويفتقر ثلاثة اخماس الـ٤٤ بليون انسان في البلدان النامية الى المستلزمات الصحية الاساسية. وكما هي الحال مع تعريف ما يشكل الثروة ويكون مقبولا فان بحبوحة البورجوازية تتسع لتشمل اجازتين في السنة وحماماً تركياً ومأكولات يابانية راقية واحدث المعدات الصوتية والكومبيوترات، فيما تُخلَّف باقي البشرية وراءها ابعد فأبعد، وهم يعرفون ذلك. ان واقع اللامساواة في العالم المعاصر وادراكه يشكلان موطن ضعف العولمة الأكبر والذي ينذر، على المدى الأبعد، بأكبر امكانات الاضطراب السياسي داخل الدول وفي ما بينها.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه اللامساواة المستمرة والمتزايدة يجب حقا ان تكون لها استحقاقاتها في ما يتعلق بمدى قدرتنا على الحديث عن عالم معولَم اصلا. واذا كانت غالبية الذين يعيشون في العالم محرومين من امكانية الوصول الى بضائع العولمة، فيبدو ان لدينا نظاماً اوليغارجياً لا متساوياً بصورة متزايدة، تعمل فيه العولمة على تكريس نخبة حتى وهي تقوم بتركيزها. مثالان واضحان. اولا، العمل. ففي حين ان رأس المال يتسم حقا بحراك أكبر فان العكس هو الصحيح بالنسبة لعامل آخر من عوامل الانتاج، هو العمل. وثمة هجرة واسعة في العالم اليوم ولكن في عموم العالم المتطور ثمة تصميم شعبوي على الحد منها: لم تكن الاقامة والعمل في بلدان منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية صعبة على مَنْ لا ينتمي الى النخبة العالمية كما هي اليوم. المثال الثاني هو تكنولوجيا المعلومات. فالمعروف ان هذه الايقونة الاساسية من ايقونات العولمة هي، بالطبع، ميدان معركة تزداد مرارة وضراوة من اجل الاستئثار بالسيطرة والهيمنة الثقافية من جانب نوع واحد من لغة واحدة على سائر اللغات والألسن الاخرى.

هذه التراتبية المتزايدة، مَثَلها مثل عدم استقرار السوق، ليست شيئا مؤقتا أو عابرا: انها سمة من سمات العولمة نفسها، وستبقى سمة ما لم يردّها تدخل واع وهادف. وعلى الغرار نفسه يعد عدم استقرار السوق باشاعة عدم الاستقرار في المستقبل. في الوقت نفسه، وعلى النقيض من التضخيم الذي يُمارس حول جدّة هذه العملية، يشير عدم الاستقرار هذا الى الجمود الكامن في اساس توزيع الثروة في العالم الحديث. وكما اشار جيفاني اريغي، فان مجموعة البلدان الأغنى، اذ تُبدِّل التراتبية داخل نفسها، ظلت ثابتة على نحو لافت خلال القرن ونصف القرن الماضي، إلا دولة واحدة هي اليابان التي انضمت اليها عضوا جديدا كاملا. وهذه التراتبية الراسخة وحدها ينبغي ان تدفعنا الى التوقف عند انتشار العولمة، أو قدرة نظام اقتصادي عالمي قائم على السوق، على توزيع الثروة وتعميم المنافع والفرص التي تتيحها لاعضائه.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ الحاكمية العالمية

❖ اذن، وفرت نهاية الحرب الباردة سياقا سياسيا دوليا جديدا في حين ان انتشار العولمة غيّر اقتصادات ومجتمعات وسيغيرها أكثر في المستقبل. المكون الثالث للوضع الدولي المعاصر هو مجموعة المؤسسات، الرسمية وغير الرسمية، التي لدينا من اجل التعامل مع هذا السياق ومحاولة التصدي للتحديات وبذلك تحقيق اهداف دولية مشتركة: السلام، الازدهار، المساواة. ونظام المؤسسات بين الحكومية الذي لدينا الآن هو الى حد بعيد نتاج اعادة البناء بعد الحرب العالمية الثانية - الامم المتحدة، وهي منظومة تضم صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، الاتحاد الاوروبي، الناتو. وشهدنا في الفترة الأخيرة تطورات هامة حدثت في هذه المنظومة: تقوية الاتحاد الاوروبي، تأسيس منظمة التجارة العالمية، تزايد الاهتمام بالقضايا الانسانية الدولية، أكان تدخلا ضد انتهاكات حقوق الانسان أو تشكيل المحكمة الجزائية الدولية. ولكن نموذج الحكومة الذي جرى التطلع اليه عام ١٩٤٥هو على نقيض حاد مع «الحاكمية» التي يجري احتضانها الآن. فـ«الحاكمية» العالمية، وهي مصطلح اصبح متداولا في التسعينات، يختلف عن «الحكومة» من ناحيتين. اولا، انه يشير الى تواشج مؤسسات متميزة بدلا من حكومة عالمية متقاربة في عناصرها. ثانيا، انه يشير، كما يفعل تقرير لجنة الحاكمية العالمية الصادر عام ١٩٩٥بعنوان «حيّنا العالمي» Neighbourhood Our Global الى ان نظام الدول والمنظمات بين الحكومية ينبغي ان يقابله نظام يضم منظمات غير دولتية - غير حكومية وهيئات عامة وحركات اجتماعية والصحافة وما اصبح يُصطلح على تسميته بمفردات فضفاضة وإن كانت غير دقيقة، «المجتمع المدني العالمي». وهنا ايضا يخيم ظل العقود الماضية على المناظرة لأن فكرة «الحاكمية الصالحة» تفترض مسبقا وجود شيء آخر تراكم داخل الدول وبينها خلال السنوات الممتدة منذ عام ١٩٤٥، هو «الحاكمية الطالحة». لذا فان لـ«الحاكمية» ايضا بعدا ليس وصفيا فحسب بل بعدا معياريا كذلك - «حاكمية صالحة» بمعنى الممارسة الأحسن، الشفافية، المحاسبة. يمكن القول ان هذا النظام يقوم على اربعة اشكال تكوينية عريضة من الدعم. في القمة تلك المؤسسات ذات

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطابع ما بين دولي وما بين حكومي. ولدينا الامم المتحدة والاتحاد الاوروبي وعشرات المنظمات الاخرى، وانسجاما مع انتشار الحاكمية بدلا من تركز الحكومة، تعددية المؤسسات في أي مجال واحد: أمن اوروبا، على سبيل المثال، هو مسؤولية ثماني منظمات خاصة على الأقل. وتنظيم الاقتصاد العالمي، بقدر ما يكون ذلك مسؤولية الدول، وهي مسؤولية كبيرة، موزعة بين البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومجموعة الثماني وبنك التسويات الدولية وعدد من المنظمات الاقتصادية الاقليمية. ويعتبر الاتحاد الاوروبي ورابطة التجارة الحرة لأميركا الشمالية (نافتا) من ابرز الامثلة عليها. المنظمة الاحدث عهدا، وهي منظمة التجارة العالمية، نشأت بعد مخاض صعب نتيجة الخلافات بين الدول من داخلها وليس بسبب مزاحمة معها من الخارج. ولكن قلة يشكّون في الحاجة الى آليات تنظيم وتحكيم في النزاعات لتسيير التجارة العالمية. لب النظام، الكيانات التي ما زال غالبية الناس ينظرون اليها من اجل الشرعية والهوية وتوفير البضائع العامة، يبقى متمثلا بالدول. وكما سبقت الاشارة فإن هذه الدول لا تحتفظ وينبغي ان لا تحتفظ بدور مركزي في ادارة الاقتصاد العالمي. والحق انه مع تفاقم بعض المشاكل فان المطالب التي ستطرح على الدول يمكن ان تكون اكبر لا اقل. وان ثلاث مشاكل اساسية من مشاكل العالم المعاصر - تجارة المخدرات، البيئة، الهجرة - مشاكل منفلتة وستبقى منفلتة الى ان تسعى الدول المسؤولة وما لم تسع الدول المسؤولة الى ايجاد الوسائل الكفيلة بضبط هذه القضايا. لذا فان نظام المنظمات بين الحكومية ليس نظاما فوق قومي بعد، بمعنى امتلاكه سلطة على الدول، وان الدولة الأقوى، الولايات المتحدة الاميركية، اشارت الى انها، في قضايا الامن أو الادارة الاقتصادية، لا تعتزم الخضوع لأي سلطة كهذه. والحق ان التحدي الأكبر الذي يواجه هذا النظام هو الخلاف بين اعضائه الكبار. فان آخر محاولة كبيرة لتحقيق العولمة، بُذلت في العقود الممتدة حتى عام ١٩١٤، اخفقت لا بسبب قيام تمرد من القاعدة أو عجز الدول عن ادارة دورات الاقتصاد العالمي وأزماته وانما بسبب المنافسة والخلاف بين الدول. والشيء نفسه يمكن ان يحدث مرة اخرى، بحرب او بدون حرب.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ المجتمع المدني العالمي

❖ المستوى الثالث من الحاكمية العالمية هو ما يُسمى «المجتمع المدني العالمي»، الخانة التي تتبوأ المنظمات غير الحكومية مكانة خاصة فيها. فان الكثير من الأدبيات الليبرالية الأكثر تفاؤلا والعديد من البرامج الاصلاحية التي تتطلع الى المستقبل من اجل اقامة حاكمية عالمية، تمنح المنظمات غير الحكومية والحركات الاجتماعية ذات العلاقة بها مكانة خاصة. ولهذا ما يبرره الى حد بعيد: لو نظرنا الى نشوء أجندة ليبرالية دولية خلال السنوات الأخيرة لرأينا قضايا بادرت الى العمل من اجلها جماعات غير حكومية، كانت احيانا منظمات اجتماعية، وكانت احيانا اخرى قلة من الافراد الملتزمين والمصممين. ومن الحالات التي تؤكد ذلك تزايد الاهتمام بالبيئة وحقوق الجنسين والحملة ضد الالغام المضادة للافراد. ومنذ تأسيس منظمة العفو الدولية في عام ١٩٦١تمكنت المنظمة من تغيير المناظرة الدولية وبدرجة معينة الممارسة المتعلقة بانتهاكات حقوق الانسان. والحق انه يمكن تقوية المحاجّة لصالح الجهات «غير الدولتية» بتبيان الدور الحاسم الذي قامت به هذه المنظمات لا في ازمنتنا الليبرالية والأكثر ديمقراطية بعض الشيء فحسب ولكن على امتداد عقود عديدة بل قرون من الزمان. فان عالم اليوم صنعته الى حد بعيد حركات اجتماعية ذات طابع ديمقراطي، وطني، طبقي: حقوق وحريات اليوم، ناهيكم من استقلال الدول، بما فيها هذه الدولة (ايرلندا)، لم تُمنح هبة من نخب حميدة واسياد حميدين بل انتزعها المحكومون من الحكام، واحيانا بثمن باهظ. ولكن ينبغي عدم المبالغة بدور وامكانات هذه المنظمات غير الحكومية والعناصر الاخرى في المجتمع المدني. فهي بادئ ذي بدء غير قادرة على الحلول محل الدول وينبغي ان لا تحل محلها، وهي تعتمد من نواح عديدة على تعاون الدول، وفي حالة وكالات الغوث، على تمويلها. وفي اوضاع النزاعات الاثنية قد لا تكون المنظمات «غير الدولتية» قادرة على عمل الكثير سوى التحرك على هامش النزاع لتخفيف المعاناة: مصير المنظمات غير الحكومية في البوسنة بل في ايرلندا الشمالية، مؤشر الى هذا الواقع. ثانيا، ليس كل ما هو «غير دولتي» ليبرالي أو حميد: فأشد الفاعلين «غير الدولتيين» نفوذا في الاقتصاد العالمي هم تجار المخدرات والسلاح. وأبرز العناصر التقليدية للمجتمع المدني، الصحافة، تخلت الى حد بعيد عن الالتزام بتشجيع مناظرة عقلانية مثقفة حول القضايا الدولية، أكان ذلك من حيث المضمون أو النبرة واصبحت اداة لكل ما هو

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هابط ومثير برخص ومحرض على العداء ولم تعد وسيلة لتوطيد الديمقراطية ودعمها وتنمية احساس بالمسؤولية العالمية. وباختصار فعولمة مردوخ وبرلسكوني لا تساهم في اقامة نظام حاكمية أقوى. ثالثا، ان «المجتمع المدني» في العديد من البلدان نصف الديمقراطية أو اللاديمقراطية خاضع للرقابة أو للقمع. والمنظمات غير الحكومية الموجودة فيها والتي تُرسَل الى المؤتمرات الدولية، كثيرا ما تكون من صنع الدولة، إن لم تكن من صنع الاجهزة الأمنية. فالمجتمع المدني يعمل حيث تعمل معايير ديمقراطية وقانونية أوسع وحيث تعمل هذه المنظمات نفسها على اساس من الحاكمية الداخلية الصالحة. ولكن ما يكمن في اساس بناء الحاكمية العالمية برمته ليس كيانا جماعيا، أكان كيانا بين دولتي أو غير دولتي، بل الفرد، البلايين الستة منا جميعا. فالأفراد هم الذين يدعمون الدول ويمولون السياسات الاقتصادية والامنية، ويشاركون في النشاط الديموقراطي أو نشاط المنظمات غير الحكومية، وفي نهاية المطاف يتمسكون بمعتقدات معينة عن الطريقة التي ينبغي ان يدار بها العالم. المتبقي من البناء يمكن ومن الجائز ان ينهار اذا لم يدعمه الأفراد، أو اذا اعتمدوا نزعة قومية عنيفة أو تدميرية في القضايا التي تتعدى نطاق جماعاتهم. ومن المؤكد ان جزءا من النتيجة سيعتمد على طريقة عمل المستويات العليا من الحاكمية العالمية وطريقة القيادات السياسية في ادارة هذه العلاقة: اذا تقاعست هذه الأخيرة عن ممارسة القيادة والتربية سيكون هناك استياء متزايد من الحاكمية العالمية. ولكن الموقع الذي ينبغي الانطلاق منه هو القاعدة نفسها، بتربية الأفراد الذين يريدون الجمع بين انتمائهم الى جماعات ودول معينة ومسؤوليتهم عن العالم الأوسع، وبمشاركتهم المتواصلة. وهنا لم تكن اتجاهات العقد الماضي تبعث على الاطمئنان من جانب واحد. فالنخبة العالمية الجديدة من المتعلمين والطموحين الذين يدّعون الاهتمام بالقضايا الدولية، تتسم الى حد بعيد باستعراضية على صعيد الانجاز المادي، وغياب المشاركة المعيارية، ونرجسية الكترونية من نوع «دوت.كوم» لا تؤهلها للاضطلاع بدور دولي. وفي الوقت نفسه ضاقت آفاق مواطني العديد من البلدان ولم تتسع في ظروف العولمة، أكان ذلك من خلال تتفيه الصحافة المتزايد أو من خلال صعود سياسات قائمة على نزعة قومية نزقة وعلى سياسة الهوية. ولكن التربية في المقام الأول هي ما يعتمد عليه تكوين المواطنين ومسؤوليتهم، الآن كما كانت منذ ايام عصر التنوير. ففي عمل الحاكمية العالمية بصفة عامة أو في قضايا مثل حفظ السلام، أو حماية

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البيئة أو تقليل اللامساواة الاقتصادية العالمية ستكون التربية والنقاش العام ما يحدد شكل النتائج. البديل عالم مؤلف من ناخبين قوميين معتدين بأنفسهم على نحو متزايد وتراجع الالتزام بالمؤسسات العالمية وتفاقم المزاحمة والنزاع الدوليين.

❖ العقل والدولي

❖ لذا قد ننتهي، كما ابتدأنا، بكانط الذي في مبحث آخر أدرك تماما الفجوة القائمة بين الطموح والواقع. «اننا لا نعيش في عصر متنور ولكننا نعيش في عصر التنوير». وعالم العولمة هو بكل تأكيد ليس عالما متنورا - خطر الحرب وفي بعض الحالات واقع الحرب ما زال حيا، واللامساواة بين الدولة آخذة في الاتساع، والدول تكافح في مواجهة تحديات جديدة وقديمة. وتتسم روح العصر بثقة تبدو لازمة بعمل القوى اللاشخصية - السوق، الرقيقة الالكترونية، الجينوم - من جهة وبتشاؤم عميق بامكانات أي مشروع مستقبلي عقلاني مشتق من التنوير، من الجهة الثانية. ومن ناحية اخرى فان فرص التنوير والخطاب العقلاني والعمل الهادف، اكان جماعيا أو فرديا، له فرص قوية واغتُنِمت الى حد ما في السنوات الأخيرة. وتوفر الديمقراطية الليبرالية والاسواق التي تنظمها الدول سياقا واسعا للتطور الخيّر. ويمكن تشكيل نظام الحاكمية العالمية، مهما كان متداعيا، وتطويره لمواجهة التحديات العالمية التي من مكوناتها المركزية احترام حقوق الانسان، بمعناها الواسع، وتوطيد الديموقراطية وزيادة المساواة الاقتصادية. لذا يبقى التنوير، في العلاقات الدولية كما في القضايا الداخلية، خير دليل لنا. وقد تعلمنا في القرنين اللذين مرا منذ كانط الكثير من اساءة استخدام العقل وحدود تطبيقاته. ولكن ليس هناك ما يدعو الى رفض وجاهته المستمرة في حياة الافراد والدول والانسانية جمعاء. وهذه قضية تهم في بعدها التحليلي والمعياري كل علم من علوم الاجتماع بل كل فرد مفكر. وفي عالم يبدو ان عمليات العولمة تكتسح الكثير مما يعترض طريقها فيه وينجر كثيرون الى الآني والمربح أو الى اللاعقلاني والمتشائم يكون تخلينا عن العقل على حساب امننا.

*** الناشر: دار الساقي ــ لندن**

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١٠) - «الإسلام» و«الغرب».. نزاع ثقافي وعلاقات دولية

ليس هناك غرب واحد لا بمفردات العلاقات الدولية ولا بالمفردات السياسية.

❖ فكرة وجود تهديد إسلامي فكرة غير صائبة بكل بساطة.

❖ سؤال يتعين على الغرب الإجابة عنه: لماذا أعيد إنتاج تعاملات معادية للمسلمين.

❖ هل صحيح أن كلمة «مسلم» عند الغرب ارتبطت بالضعف والاستسلام وغياب عزة النفس؟.

❖ لماذا قام صدام بغزو الكويت؟ لانه ببساطة شارف على الإفلاس فقرر ان ينهب جاره.. لكن من الناحية التحليلية لا يثير هذا مشكلة.. فالبشر فعلوا ذلك على امتداد التاريخ ولا ريب في انهم سيواصلون القيام به

جاء في الحلقات السابقة من كتاب «ساعتان هزتا العالم» للأكاديمي البريطاني المعروف فريد هاليداي، ان صعود الجماعات الاصولية لم يعقب الحرب الباردة نفسها، بل هو نتيجة لا تنفصل عنها. وفي هذه الحلقة العاشرة يقول: من ابرز سمات العالم بعد انتهاء الحرب الباردة، انشغال في العلاقات الدولية، فضلا عن السياسة الداخلية، ينصب على العلاقات بين ما يسمى «الغرب» من جهة و«الاسلام» من الجهة الثانية. ومن دون تبسيط لا داعي له، يمكن القول انه منذ اوائل التسعينات نشأ في الشرق والغرب على السواء خطاب يجادل بأن ثمة هنا كتلتين متواجهتين، وثمة هنا نزاعا اساسيا ما. على الجانب الاسلامي، هذه الخطابية شائعة في الشرق الاوسط وبلدان مسلمة اخرى، ويمكن سماعُها في اندونيسيا، في نيجيريا وفي بنغلاديش. موضوعها هو المواجهة مع الغرب. وتتداخل ادانات من الصنف نفسه موجهة الى الكولونيالية والعولمة والمجتمع الغربي و«الجاهلية» مع قضايا محدَّدة مثل فلسطين وكشمير. في الغرب تتعلق الخطابية بالتهديد والخطر والمصاعب الناجمة عن التعامل مع شيء يُسمى «الاسلام»: هذا «المصطلح» الواسع جدا لا يغطي الدول المسلمة كافة فحسب بل كل شيء يحدث داخلها. وبهذا المعنى تكون هذه خطابية مشتركة. وهي

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خطابية كاذبة بالقدر نفسه في الحالتين، ولكن بما ان الخطاب يؤثر في السياسة فان على المرء ان يتناول الخطابية بشقيها الشرقي والغربي ويتدارس الموضوعات والاسباب. والحقيقة ذاتها الماثلة في ان مثل هذه الخطابية تنطلق من الشرق والغرب، وان اصواتا مختلفة مثل الخميني أو حزب الله أو حتى الهند كلها تقول شيئا واحدا، لا ريب تجعل تقويم هذه القضية ونقدها اصعب بكثير. وهي حقيقة قد تكون خاطئة لكنها لن تختفي.

❖ «الإسلام» في مواجهة «الغرب».. الوهم

❖ ثمة مَثَل اميركي يقول «اذا كنتَ في وسط الطريق تُدهس من الجانبين». ويصح هذا على كل مَنْ يحاول نقد خرافات الشرق والغرب على السواء. وخرافة ما يُسمى «الاسلام» وما يُسمى «الغرب» ـ كأنهما كيانان احاديان ـ تتعلق بموضوعة اوسع هي ايضا جزء من من المناخ الفكري لعصرنا. وهي موضوعة نجدها في تركيا وفي الشرق الاوسط، كما نجدها في الغرب: تتصل بعلاقة الماضي بالحاضر، وقوة وهيمنة ثقافة وقيم مستَمَدة على ما يُفتَرض من حضارة قديمة في العلاقات المعاصرة بين الشعوب والدول. أنا اسمي هذا «ثرثرة خط المواجهة». وثمة محاجَّة ذات صلة، هي الاخرى باطلة تماما، تذهب الى اننا نشهد تحولا في طبيعة النزاع: يُزعم ان العلاقات بين الدول كانت تتحدد في الماضي بالقوة أو بالمصالح الاقتصادية أو بالارض. اما الآن فان للخطاب والافكار والاعلام، من جهة، وللصدامات الحضارية من الجهة الثانية، سمة مميزة جديدة تماما، ان لها قوة جديدة. واكتسب هذا صيغة واضحة بصفة خاصة، سجالية ولامسؤولة بالمرة، في كتابات البروفيسور صامويل هنتنغتون، لا سيما في كتابه «صِدام الحضارات». وتذهب موضوعته الاساسية، وهي موضوعة معقولة تماما وان تكن قابلة للنقاش، الى ان النزاع بين الدول حتمي في عالم من الدول ذات السيادة. والثقافة هي كل ما تبقى للجدال حوله. هذه الموضوعة، المركزية لتحليل العلاقات الدولية، هي ليست ما يجري نقاشه. ففي الشرق الاوسط بأكمله، وخاصة في السعودية، ويقال في اليابان ايضا، يجد هنتنغتون تأييدا بين مناهضي

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحداثة وانصار الخصوصية والقوميين والاصوليين. لماذا؟ لأن هنتنغتون يقول ان الشرق والغرب منفصلان، واننا جميعا مختلفون ومن الحتمي ان يكون هناك صراع. ولنموذج تبسيطي كهذا افضليته. فاذا كنت تريد نموذجا كاملا، شيئا يحدد مجال بحثه الخاص، يحدد مفاهيمه ذاتها، يطلق تنبؤا، وحتى لديه تصوره الخاص للتزييف، فالمثال الأكمل هو التنجيم. المشكلة هي ان التنجيم هراء. البديل من مثل هذا التعميم عن التاريخ والثقافة هو تحليل اشد تطلبا لما يجري في بلدان محدَّدة أو في العلاقات بين البلدان. بكلمات اخرى، ان المهمة الرئيسية هي الابتعاد عن وضع الكل في خانة واحدة وممارسة التفسير بدلا من استدعاءات جوهر الثقافات الازلي. ولن يكون هناك ابدا اتفاق حتى على التفسير، كما تبين أي قضية كبرى في علم الاجتماع ـ الثورة الصناعية، أو الثورة المعلوماتية أو اصول الثورة التركية من اجل الاستقلال أو الاحتلال العراقي للكويت. ولكن علوم المجتمع تشترك في الرأي القائل ان من الضروري ان لا تسمع ما يقوله الناس فحسب بل ان ترى ما يفعلونه في الواقع. خذوا حالة الثورة الايرانية في ١٩٧٨ـ ١٩٧٩. صحيح انه كان هناك حديث كثير عن الاسلام، عن «الله أكبر»، والقرآن. ولكن ما الذي حدث في حقيقة الأمر؟ أُنزل ثمانية ملايين شخص الى الشوارع مشكلين أكبر تظاهرة احتجاجية في تاريخ البشرية. وانهار جيش قوته ٤٠٠ الف رجل في غضون ثلاثة اسابيع. وبسطت سيطرتها على الدولة مجموعة من رجال الدين. ومن الشعارات الثلاثة التي رفعتها الثورة الاسلامية، اثنان، «استقلال»، و «آزادي» (الحرية) كانا علمانيين بالكامل، والثالث «جمهوري اسلامي»، كان خليطا. ماذا فعلوا بشأن النقابات؟ ماذا فعلوا بشأن المرأة؟ ماذا فعلوا بشأن الاقليات الاثنية؟ الاجابات لا تأتي من تحليل النصوص أو معانيها وانما من دراسة الافعال. وبالطبع ان كثيرين صاغوا هذه الاسئلة بطريقة اسلامية ولكن الحلول لم تكن مستلّة من نصوص مقدسة. وأيا تكن طبيعة الخطاب ـ اسلاميا، أو ماركسيا ـ لينينيا، أو حداثويا ـ سلطويا، أو حداثويا ـ ليبراليا، أو تنجيميا أو بيئيا ـ فالمهم ان نرى ما يفعله البشر حقا وندرك ان هذا غير محكوم بالآيديولوجيا. مثال واضح آخر على هذه المقاربة الواقعية يتعلق بغزو صدام للكويت في عام ١٩٩٠، فان

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كثيرين في حينه وصفوا هذا الغزو بأنه صراع بين الاسلام والغرب. ودأب صدام على استخدام لغة لينينية حول الامبريالية يوما ولغة النبي محمد في اليوم التالي. في البداية وصفَ الصراع بأنه «جهاد» وفي اليوم التالي سماه نضالا معاديا للامبريالية. لماذ قام صدام بغزو الكويت؟ انه فعل ذلك لسبب بسيط: شارف على الافلاس فقرر ان ينهب جاره. من الناحية التحليلية لا يثير هذا مشكلة. فالبشر فعلوا ذلك على امتداد التاريخ ولا ريب في انهم سيواصلون القيام به. في عام ١٨٨٢ قام البريطانيون باحتلال مصر لاسترداد ديون. وفي عام ١٩٠٢ قصفوا مع اخرين فنزويلا للسبب نفسه. ولكن ليس هناك ما هو عراقي أو اسلامي أو ماركسي أو غير ماركسي على نحو متميز في هذا الأمر، لا شيء سوى فعل علماني، عقلاني مباشر تماما. في هذا الصدد أعبر عن اعجابي بعمل الانثروبولوجي مايكل غيلسنان senan فهم الاسلام RecognizingIslam فهو يكتب عما يفعله المسلمون في بلدانهم لكنه لا يعتمد ابدا على أي كتب مقدسة: لأن هذه الكتب لا تفسر ما يفعله حقا امراء الحرب أو القادة السياسيون أو علماء الدين أو حزب الله. وهذه المنهجية لا تحاول فهم الاوضاع بالتوجه الى النصوص المقدسة وتقديم تفسيرات بل تنظر الى ما يفعله البشر. ويصح المبدأ ذاته، بالقدر نفسه، على الاقتصاد مثلا. فالمرء لا يستطيع ان يحاول تفسير اساسيات وديناميات الاقتصاد السعودي أو الافغاني أو الماليزي بالرجوع الى «اقتصاد اسلامي» أو «اقتصاد توحيدي». وهذا الأخير مصطلح يعني وحدة إلهية في الاسواق. بل ينظر المرء بدلا من ذلك الى البشر: ان كانوا يعملون أو لا يعملون، ان كانوا يحققون دخلا ماليا، كيف يتسلمون البضائع والخدمات وينتجونها، وكل الحقائق الاخرى التي تمكن ملاحظتها. ويصح هنا القول الذي أُطلق في القرن التاسع عشر: «الاسلام بحر تستطيع ان تصطاد فيه أي سمكة تشاء».

❖ الإسلام والغرب ومفهوم الدولة

❖ يرتبط التركيز على الواقع بالنظر الى المفاعيل الاساسية في العلاقات الدولية، وهي الدول. وعلى الرغم من كل حركات الافكار والافراد والاموال عبر

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحدود وكل ما موجود من «عولمة» فاننا ما زلنا نعيش وعشنا طيلة الفترة ذات العلاقة في عالم للدول موقع مركزي فيه. والمقصود بالدول ليس كيانات حقوقية بل هيئات ادارية ذات جيوش ووزارات وسياسات تشغيل وما شابه. وهذه الدول تقسّم العالم. فهناك نحو ١٩٥ دولة منها في الوقت الحاضر، وترتبط بالدول قيم وتواريخ خاصة نسميها القومية. وبالتالي فانه في تحليل الدول على صعيد العلاقات الدولية لا يكون هناك «اسلام» ولا يكون هناك «غرب». هناك ٥٥ بلدا مسلما، اعضاء في منظمة المؤتمر الاسلامي. وهناك بلدان اخرى مثل اثيوبيا والهند يشكل المسلمون جزءا كبيرا من سكانها. وهناك نحو ١٦ مليون مسلم في روسيا. وقد يكون هناك ٦٠ بلدا المسلمون فيها اقلية كبيرة. ولكل هذه الدول مصالح وتعريفات مستقلة لتقاليدها القومية. ولديها تحديدات منفصلة لعلاقتها بالتقليد الاسلامي حين يتعلق الأمر بمسائل ملموسة لا بالخطابية. ولديها ايضا سياسات منفصلة في ما يتعلق بتشغيل الايدي العاملة والهياكل السياسية وموقع المرأة أو الاقليات. بكلمات اخرى انها كيانات متميزة. وجود «اسلام» مشترك لا يقول لنا شيئا: انه في احسن الاحوال دعوى. وكثيرا ما تَستحضر اقوال هذه الدول تعبير «الأمة الاسلامية». ولكن في افعالها تكون علاقتها بـ«الاسلام» علاقة متغيرة. فهي لديها مصالح تقوها احيانا الى احتضان قضايا اسلامية عامة. الدول العربية تدعم فلسطين لكنها تدعهما لاسباب منها اسكات سكانها ذاتهم: انها في الحقيقة لا تفعل الكثير للفلسطينيين. كما ان الدول المسلمة تتقاتل مع بعضها بعضا. فان اهم حروب القرن العشرين واشدها دموية بين الدول، باستثناء الحرب اليابانية ـ الصينية في الفترة ١٩٣٧ـ ١٩٤٥، كانت الحرب بين ايران والعراق في ١٩٨٠ـ ١٩٨٨. واندلعت عدة نزاعات اخرى كهذه: مصر والسودان، مصر وليبيا، المغرب والجزائر. وفي الوقت الذي تتبنى فيه الدول خطابية عامة فانها تعمل بوضوح من اجل مصالح خاصة. الحاجة نفسها الى وضع مقولة توحيدية مفتَرَضة موضع تساؤل تصح على مصطلح «الغرب». اذ ليس هناك غرب واحد ـ لا بمفردات العلاقات الدولية ولا بالمفردات السياسية، والأهم من كل ذلك، ليس هناك غرب واحد بمفردات القيم السياسية. وكثيرا ما يقال ان حقوق الانسان أو السيادة مفاهيم

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

«غربية» لكنها افكار لم تنبثق من غرب ما غير متمايز بل ظهرت نتيجة نزاعات في بلدان منفردة بمشاركة حركات من اجل حقوق المواطنين في التصويت أو من اجل حقوق المرأة أو من اجل حقوق النقابات أو غيرها من الجمعيات الاخرى. فمن الضروري عدم وضع ما يسمى «الاسلام» أو العالم الاسلامي أو الغرب في خانة واحدة. ويقودنا اعتماد منظور للعلاقات الدولية الى ادراك الدور الذي تقوم به جماعة تضامنية وشعورية فوق قومية، تزداد قوة من بعض النواحي. كما انه يقودنا الى التمييز. لذا لا ينطوي هذا على قبول الآيديولوجيات كأشياء معطاة أو عوامل محدِّدة في الشرق الاوسط أو غيره بل انه يفضي الى الاتجاه المعاكس، الى وضع مثل هذه الكيانات موضع تساؤل.

❖ الآيديولوجيات والحسناء النائمة

❖ لا يمكن النظر الى الافكار والرموز الا عند تشخيص واقع الدول ومصالحها. ودراسة المجتمعات الشرق اوسطية، مثلَها مَثل دراسة المجتمعات الاخرى، تشتمل على دراسة الايديولوجيات ولكن ليست هناك مقاربة واحدة في هذا المجال. فهناك، على سبيل المثال، مناظرات واسعة حول القومية، بل طيف من المناظرات بين قطبين. ومثل هذه المناظرة تفسر الكثير عن مقاربة المسألة المتعلقة بالسلام في مواجهة الغرب. هناك، من جهة، الرأي الذي يقول به غالبية القوميين بل ٩٩ في المائة من البشرية، بمن فيهم بعض علماء الاجتماع وعدد اكبر بعض الشيء من المؤرخين. ويُسمى هذا الرأي بصورة فضفاضة «الدائموية perennialism» أو البدئية. ومنطلقه ان الأمم وُجِدت منذ مئات بل الاف السنين، وان لها هوية متميزة وثقافة متميزة ولغة متميزة. والقومية هي الحركة، الايديولوجيا التي تحقق مصير هذه الأمة، وهي شيء قائم اصلا. وهذه هي النظرية السلفية في القومية، التي تُسمى احيانا نظرية «الحسناء النائمة». فان غرض القومية محدَّدا بما هو كذلك يتمثل في توفير مبرر للأمة وصون نقاء لغتها والدفاع عنها ضد كل صنوف التجاوزات عليها. في الطرف الآخر هناك المقاربة «الحداثوية». وهذه تجادل بأن القومية كحركة وايديولوجيا هي في الحقيقة نتاج

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الثورات الصناعية والسياسية التي قامت خلال السنوات المئتين الماضية. وان اشتقاقها من التاريخ القديم اشتقاق خادع: انها تعيد الى الماضي قراءة قضايا راهنة مثل الحاجة الى تحديد الجماعة الاثنية أو اللغة أو الاقليم، وبالطبع انها تقوم ببناء التاريخ ايضا. خذوا قطر التي، دونما أي استهانة بالشعب القطري البطل، مجرد رقعة من الرمل على ساحل الجزيرة العربية. لقطر اليوم تاريخها الوطني الخاص وهويتها الوطنية الخاصة اللذان بُنيا لاغراض حديثة. المقاربة الحداثوية لا تنفي التاريخ بل تجعل من المهم كتابة تاريخ دقيق يصف كيف نشأت الأمم ـ هذه الامم المحدَّدة. وهي تنفي ان يكون التاريخ «معطى». فالتاريخ ليس هو الذي يحدد هوية الدولة أو الجماعة: اهتمامات الدول واهتمامات خصومها الراهنة هي التي تلوذ بالتاريخ بحثا عن المشروعية. المقاربة نفسها الى القومية بوصفها ايديولوجيا يمكن ان تُطبَّق على الدين. ومن النقاط المركزية في ما يتعلق بكل الاديان ان الماضي ليس مجموعة من الوصفات للحاضر، انه ليس دليلا لادارة الحياة الحديثة. وابعد من بعض المبادئ الاساسية والرموز فان الماضي طائفة واسعة من الخيارات يُنتقى منها ما يُراد لتلبية غايات حديثة: يمكن مقارنته بقائمة المأكولات. المقاربة «الدائموية»، أكانت في القومية أو الدين، تعامل الماضي بوصفه قائمة ثابتة. وعلى النقيض منها فان مقاربة «الصحون المتنوعة» تتيح لك عشرات الخيارات: اذا كان اختصاصك، مثلا صاحب مركز في تقنيات الادارة أو الضوابط البيئية، ليس مدرجا على القائمة فان باستطاعتك ان تطلب من النادل الايديولوجي ان يأتيك به في صحن منفصل عن الوجبة المتكاملة. اذ من الممكن دائما الاختراع فضلا عن الانتقاء. والمهم هو انك، ايا يكن ما تختاره، يجب ان تدّعي انه كان دائما هناك. وقد حدث مثال صالح جدا في بريطانيا. فابتداء من اوائل التسعينات أو نحو ذلك بدأ الناس يحتفلون بصخب اكبر بيوم القديس سانت جورج في ٢٣ ابريل (نيسان). والجميع يعرف ان سانت جورج هو شفيع انجلترا (وهو، بالمناسبة، شفيع اليونان ايضا) ولكن قلة كانوا يلتفتون الى هذه الحقيقة حتى التسعينات، عندما بدأ الناس يضعون شارات تحتفل بسانت جورج ورایاته الخفاقة على سياراتهم. لم يكن العلم البريطاني هو المعروض بل راية سانت جورج. وكان هناك اكثر من سبب لذلك. فانه قد يكون

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اشارة الى المعارضة ضد الجماعة الاوروبية وتهديدها بالاستحواذ على البلد، أو معارضة الحكم الذاتي لاسكوتلندا. وايا يكن الغرض، من قمة المجتمع الى قاعدته، فان تبني سانت جورج تعويذة أو رمزا انما هو اعادة اختراع حديثة لاغراض سياسية راهنة مقنعة بوصفها عودة الى الماضي. سانت جورج هو، من بين اشياء اخرى، شفيع الرعاة: لم يبق الكثير من هؤلاء في انجلترا اليوم. نستطيع ان نتناول الدين بالطريقة نفسها. فالمسألة لا تمت بصلة الى العقيدة. وفي الاسلام هناك خمسة اركان: الشهادة و الصلاة وصوم رمضان والزكاة والحج. الحداثوية لا تشير الى قضايا ايديولوجية والامور المتعلقة بالقناعات الشخصية بل تشير الى المجال السياسي والاجتماعي. وفي كل اديان ومعتقدات العالم الكبرى اليوم، الاسلام، المسيحية، اليهودية، البوذية، الهندوسية، هناك حركات تحاول تفسيرها لاغراض سياسية واجتماعية. انها تغترف من مستودع الدين وتبني، كما يفعل القوميون، مجموعة من السياسات للحاضر. ولهذا ايضا تفسير حداثوي رغم ان غالبية الناس لن يقبلوا به، كما في حالة القومية. يمكن توضيح هذه المحاجَّة على النحو الآتي: بادئ ذي بدء، اذا نظر المرء الى أي مضامير رئيسية من مضامير النشاط الاجتماعي والسياسي التي يقال ان للدين صلة بها، فانه لن يجد نموذجا واحدا بل عدة نماذج ـ ليس قائمة المأكولات الثابتة بل صحون متنوعة خارج الوجبة المحدَّدة. ولقد صُوِّر الدين دائما على انه قائمة ثابتة، على انه هو «الحل»، لكنه في الحقيقة واحد من عدة حلول. خذوا مسألة التكوين أو الشكل السياسي في العالم العربي. فهناك اصناف متعددة من الدول التي تدعي انها «مسلمة». هناك انظمة دكتاتورية عسكرية، تعتنق سياسة اسلامية. هناك ملكية قبلية. هناك بعض الانظمة الملكية، في الاردن والمغرب، تدعي انها متحدرة مباشرة من نَسَب النبي. دول اخرى، مثل عمان والسعودية، لا تدعي ذلك. هناك نظام حكم ديني في ايران قائم على فكرة ولاية الفقيه القادر على تفسير كلام الله. والفقيه لا يكون «معصوما» تماما ولكن تفسيره يبقى أحسن الموجود ـ وليتجرأ احد على مناقضته في ايران. هناك نظام حكم ديمقراطي تعددي

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في تركيا. من العبث التساؤل أي من هذه الانظمة اسلامي أو غير اسلامي: كلها تستطيع العثور على ما تريد الاستشهاد به في النصوص المقدسة أو عناصر من التقليد.

❖ الماضي متغير

❖ وهكذا فان احد عناصر المحاجَّة الحداثوية يتمثل في ان الماضي متغير. وهو تفسير معاصر ومشروط. النقطة الاخرى التي اثارها باحثون مثل سامي زبيدة وعزيز العظمة وآخرين، هي ان اللغة ذاتها التي يستخدمها الاصوليون ليست لغة تاريخية أو تقليدية بل تعكس تأثيرا حداثويا واهتمامات حداثوية. لنأخذ الخميني. ماذا كان هدفه؟ «انقلاب اسلامي»، أو ثورة اسلامية. ومفهوم الانقلاب أو الثورة مفهوم حداثوي وهو لا يمت بصلة الى القرآن. و«جمهوري اسلامي»، أو الجمهورية الاسلامية، ايضا مفهوم حداثوي. واشارات الخميني الى نضال «المستضعفين» ضد «المستكبرين» مشتقَّة من لغة الشعبوية كما نجدها في اميركا اللاتينية أو في أي بلد نام آخر. ومفهوم «الامبريالية» التي سماها «الاستكبار العالمي» مفهوم حديث أُضفي عليه شكل قرآني. لقد كانت لغة الخميني تنسخ موضوعات سياسة راديكالية حديثة. وكانت بعض الافكار مأخوذة مباشرة من الشيوعيين، وبعضها من الشعبويين الراديكاليين وبعضها الآخر من نظرية التبعية. وعلى المنوال نفسه ينسج خطاب الاصوليين الجزائريين حول الامبريالية والهيمنة الثقافية وضرورة الدفاع عن الأمة. وبهذا المعنى تكون لغة الاصولية ذاتها لغة حداثوية. انها لغة تعبر عن اهتمامات حديثة، وهي، في المقام الأول، شكل من اشكال القومية. وحين يقول السياسي التركي اربكان ان الغرب يُفسد اخلاق الاتراك فانه يعبر عن موضوعة من موضوعات الانحطاط الثقافي نجدها في كل سياق قومي وثوري، من الثورة الصينية الى شعبوية اميركا اللاتينية. وهي قد ترتدي شكلا خاصا، لكنها المحاجَّة الحداثوية العامة. ومن الأمثلة الساطعة على ذلك الديماغوجية العالم ثالثية عن قيام السياح أو وكالة المخابرات المركزية (سي آي اي) أو اليهود بنشر مرض الايدز. مثال أخير هو مفهوم الفساد. فهو بلسان الخميني يعني اشياء معينة خاصة بالاسلام. ولكن الأهم انه كان يشير الى حقيقة ان

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بلده حقق عائدات ضخمة من النفط سرقها الشاه. وكان هذا مفهوما حداثويا بالكامل يعني ان الدولة ينبغي ان تخضع للمحاسبة وهي لا تخضع لها.

❖ العلاقات الدولية.. الواقع والخرافة

❖ كما سبق بحثه باستفاضة في فصل سابق فان الوجه الآخر لهذه القصة يتعلق بخطابية غير المسلمين عن «الاسلام». وفي اوروبا الغربية والولايات المتحدة على السواء ثمة خطابية واسعة عن «تهديد» من الاسلام وضرورة مواجهته. وهي خطابية تُسمع في اماكن اخرى ايضا وبصورة متزايدة في اسرائيل. كما انها تُسمع في بلد شرقي هو الهند. وفي الحقيقة ان الهند هي البلد الذي نجد فيه من بين بلدان العالم الخطابية الاشد عداء للاسلام في الحياة العامة. وحكومة حزب جاناتا الحاكم في الهند حكومة اصولية هندوسية. والاصوليون الهندوس معادون للعلمانية والاسلام. والبعض من هذا يرتبط بسهولة نشر الافكار والقوالب النمطية في عصر العولمة. لا ريب في اننا نعيش في عالم من الاتصالات الجماهيرية وانتشار الافكار عبر الحدود ولكن هذا كان جاريا بشكل من الاشكال منذ ثلاثة الاف سنة، كما يشهد انتشار الاسلام أو معاداة السامية. ولم تفعل شبكة «سي ان ان» أو الانترنت سوى تصعيد نشر الافكار. وفي مثل هذا السياق الشامل يُتاح حيز يستطيع البعض ان يجد فيه صورا سلبية لاسناد حملاته المحلية الخاصة. فالادعاءات القائلة ان المسلمين جميعهم تجار مخدرات أو جميعهم ارهابيون أو ان المهاجرين المسلمين جميعهم يحاولون اغراق مجتمعنا، يمكن ان تُلتقط في أي مكان. وثمة تشابه غريب في اللغة التي نجدها في الهند وفي سان فرانسيسكو أو اوكلاهوما، أو في أي مكان بين هذه وتلك، لا سيما في موسكو. وقد انتشر الادعاء القائل بالتهديد الذي يشكله المسلمون ولغة الصراع بصورة متزايدة خلال السنوات العشر الماضية أو نحو ذلك بين كتاب الأعمدة الصحافية والسياسيين ووزراء الهجرة وحتى بين البعض من وزراء الاتحاد الاوروبي والناتو. وبات التحامل المعادي للمسلمين ومزاعم وجود صراع تاريخي عابرة للقوميات في نطاقها ومضامينها. هناك سؤالان يترتبان على ذلك. أهو صحيح؟ واذا كان

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صحيحا فلماذا ؟ كما سبقت الاشارة فان الحال ببساطة ليست ما يُقال عن وجود مواجهة موحَدة بين الاسلام والغرب في أي فترة خلال السنوات الخمسمئة الماضية. وثمة مثال بسيط نراه في العلاقات الدبلوماسية للامبراطورية العثمانية. كانت اسطنبول تصطدم احيانا مع البلدان الغربية وتتحالف معها احيانا اخرى. وتاريخ الامبراطورية العثمانية برمته، من القرن السابع عشر فلاحقا، كان تاريخ انخراط متغير في سياسة توازن القوى وتبديل التحالفات حتى وقت اندلاع الحرب العالمية الاولى عندما تحالفت تركيا مع المانيا والنمسا ضد سائر الدول الاخرى. ولم يكن هناك نزاع ازلي بين الاسلام والغرب من منظور القيصر فيلهلم في عام ١٩١٤ قدم نفسه بوصفه قيصر المسلمين كافة. والآن، في السنوات العشر أو الخمس عشرة الماضية، اختصمت البلدان الاسلامية في ما بينها اكثر مما اختصمت مع الغرب. ومن الامثلة المتطرفة على ذلك الحرب الايرانية العراقية في ١٩٨٠ـ ١٩٨٨. والحقيقة ذات المفارقة ان في اول حرب خاضها حلف شمال الاطلسي ـ الناتو ـ في تاريخه، لم يتحرك الحلف باسمه رغم انها كانت عملية اطلسية من البداية حتى النهاية، في هيكل القيادة، في اللوجيستيات وفي التكتيكات. وقد كانت حربا للدفاع عن بلد مسلم هو الكويت. الحرب الثانية التي خاضها الناتو كانت للدفاع عن البوسنة، وهي ايضا بلد مسلم. وهكذا فان حقائق العلاقات الدولية لا تنسجم قطعا مع صورة الاسلام في مواجهة الغرب. ثمة نقاط مقارنة بديهية بشأن العوامل الحقيقية التي تؤثر في الدول، على الضد من وجود عوامل دينية أو شاملة باطلاق. فان ما بدا اكثر البلدان الاسلامية ثورية، ايران، خاض حربا دامت ثماني سنوات مع دولة مسلمة اخرى هي العراق. وايران لا تدعم اذربيجان الشيعية ضد ارمينيا المسيحية الارثوذكسية: انها تقف الى جانب ارمينيا ضد اذربيجان ولها علاقات تجارية طيبة، والبعض يقول، علاقات عسكرية طيبة مع ارمينيا. ولم تقل ايران شيئا عن الشيشان حيث قتل بوريس يلتسين ٤٠ الف مسلم في عام ١٩٩٤، وهو الذي كان الغرب يغمره بحبه رغم انتهاكات حقوق الانسان. وايران لا تدعم مطالبة باكستان أو «المجاهدين» بكشمير.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليس هناك احتجاج ايراني بشأن كشمير بسبب علاقات طهران الطيبة مع الهند ولأن لدى الباكستانيين قنبلة والايرانيين ينظرون اليهم بريبة عميقة.

❖ كلمة «المسلم».. ماذا تعني عند الغرب؟

❖ التضامن الاسلامي غائب في العديد من الحالات الاخرى، واحداها حالة تركيا في الستينات والسبعينات. فلقد رفض العالم الاسلامي دعم تركيا حول القضية القبرصية. وفي حركة عدم الانحياز وغيرها دعم اليونان سنوات عديدة. لذا فانه ببساطة ليس صحيحا، الآن أو في التاريخ، القول بان العلاقات الدولية محكومة أو محدَّدة بمفردات ثقافية. ورأي صامويل هنتنغتون، الذي اقتبستُ منه في فصول سابقة، يذهب الى ان المسلمين كافة ينظرون الى العالم بمفردات خانتين: عالم الاسلام (دار الاسلام)، والعالم المعادي أو عالم الحرب (دار الحرب). ولكن هذه لم تكن الحال منذ فتحت جيوش طارق اسبانيا في القرن الثامن. وقلة من المسلمين، اتراكا أو ايرانيين أو سواهم ينظرون الى العالم بمثل هذه المفردات المعمَّمة والتقسيمية على نحو صارخ. وليس من صحيفة عربية رأيتُها تخصص زوايا تتفق مع هاتين الخانتين. من جهة اخرى، هناك حالات يتصرف فيها المسلمون فعلا بعدوانية ازاء غير المسلمين. وفي اندونيسيا كان الشعار الذي رُفع في المساجد ابان التسعينات «الموت للرئيس، الموت لصندوق النقد الدولي، الموت للتجار الصينيين»، وفي كشمير يقوم «المجاهدون» بالتحريض على العنف. ولكن مَنْ كان المسؤول في البوسنة؟ لم يكن المسلمون. مَنْ قصف سراييفو طيلة ٦٩٠ يوما وقتل ٢٠ الى ٣٠ الف شخص؟ وفي فلسطين مَنْ المسؤول عن الطريق المسدود الذي دخلته عملية السلام؟ ليس الفلسطينيين الذين يطالبون بدولة مستقلة يُحرمون منها. مَنْ المسؤول في الهند؟ ليس المسلمين بل الاصوليون الهندوس الذين يريدون الغاء باكستان من الخريطة. ان فكرة وجود تهديد اسلامي، كتعميم، فكرة غير صائبة بكل بساطة. والاكثر من ذلك، اذا كان هناك تهديد يستهدف هيمنة القوى الغربية فانه لا يأتي من البلدان الاسلامية بل يأتي من اولئك الذي كانوا، او ما زالوا، الى حد ما، يهددونها اقتصاديا، أي

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اقتصادات شرق اسيا القادرة على انتاج بضائع حديثة باسعار تنافسية بتكاليف عمل اقل بكثير. وقد انتكست هذه الاقتصادات في اواخر التسعينات لكنها ستعود، ربما مترشقة وباجور حتى ادنى. فان سنغافورة البالغ سكانها ثلاثة أو اربعة ملايين، تنتج نصف انتاج العالم من الاقراص الصلبة للكومبيوتر في حين قبل ثلاثين عاما كان اداء هذا البلد يقل اقتصاديا عن اداء تركيا أو ايران. وهذا انجاز مذهل يُنسَب الى التعليم الذي توجهه الدولة بقوة. الاداء الاقتصادي للدول المسلمة اداء مزر عموما، كما تشهد التقارير السنوية للبنك الدولي أو الاحصاءات الخاصة بتوزع الاستثمارات الاجنبية في العالم. واسباب ذلك لا تمت بصلة الى الدين وانما بنوع القيادات القائمة والدول التي اوجدتها هذه القيادات. هناك بعض الاستثناءات مثل تركيا وماليزيا. ولكن عموما يتلقى العالم الاسلامي القليل من الاستثمارات. ولهذا السبب ليس هناك تهديد اقتصادي متماسك من البلدان المسلمة: بل العكس هو الصحيح لأن مَنْ لديهم المال، الدول الاعضاء في مجلس التعاون الخليجي، استثمروا ما يصل الى بليون دولار في اسواق المال الغربية.

❖ جذور العداء للمسلمين

❖ اذا كانت خطابية الغرب عن التهديد الاسلامي خطابية باطلة فلماذا تتكرر؟ يدعي بعض المنظرين الثقافيين ان هناك تاريخا من الاعتداء اللفظي على المسلمين في الغرب، وان هذا ما زال يشكل العملية. وهناك امثلة في دانتي، في تصوير «التركي الرهيب»، وفي كلمات كاتب احدث عهدا: يدعي بعض المنظرين الثقافيين، كدليل، ان الغرب كان دائما يمقت المسلمين. ولكن هذا ليس تفسيرا. ولا يمكن للمرء ان يفترض ان ما وجد في الماضي موجود الآن. واذا وجد فلا بد ان يكون السبب انه أُعيد انتاجه. بكلمات اخرى، انه قد جرى تلقين الناس به. فالبشر لا يولدون متحاملين على المسلمين مثلما يجري تعليمهم ليعرفوا عن العلاقات الدولية أو نظرية التضخم. والماضي لا يفسر الحاضر الا اذا كان بالامكان تفسير استمراره ايضا. السؤال الذي تتعين الاجابة عنه: لماذا أُعيد انتاج تحاملات معينة، هي في هذه الحالة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تحاملات معادية للمسلمين؟

ان القوالب النمطية في تصوير المسلمين في الغرب ليست قوالب توحيدية بل مختلطة. انها صحون منفصلة وليست ضمن القائمة الثابتة. ومن الامثلة الاستثنائية اوشفيتز. وكما يقول لنا بريمو ليفاي فان الضعفاء، الذين تخلوا عن الحق في النضال والحياة كانوا يُعرفون بالمسلمين. لماذا ؟ لأن كلمة «مسلم» ارتبطت بالضعيف والمستسلم. انه لم يكن مصطلح ذم بل مجرد مصطلح يعني غياب عِزَّة النفس. ومن الواضح ان هذا التنميط كان يختلف اختلافا تاما عن القالب النمطي الشائع اليوم. الماضي، اذن، لا يفسر الحاضر، فلماذا نشأ القالب النمطي الحالي؟ الاجابة المعهودة هي انه يرتبط بنهاية الحرب الباردة. وهذه واحدة من اكثر الافكار تضليلا في العلاقات الدولية اليوم. انها ليست نصف صحيحة أو صحيحة جزئيا بل هراء مطلق. والمعنى المضمر ان الغرب كان لديه عدو في الشيوعية وما ان ولّت هذه اضحى الغرب بحاجة الى عدو آخر.

(١١) ـ المجتمعات الغربية تريد ببساطة شديدة المال وهذا ما تحاول العولمة تحقيقه

❖ قصة أفغانستان الحديثة يجب أن تعد واحدة من اكبر مآسي الحرب الباردة.

❖ على أكاديمي الغرب التمييز والإقرار بأن غالبية المسلمين ليسوا ارهابيين وأن الإرهابيين ليسوا كلهم مسلمين.

❖ أكبر عملية خفية في تاريخ وكالة الاستخبارات المركزية نفذت لدعم ائتلاف أصولي في أفغانستان

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جاء في الحلقات السابقة من كتاب «ساعتان هزتا العالم» للأكاديمي البريطاني المعروف فريد هاليداي، ان صعود الجماعات الاصولية لم يعقب الحرب الباردة نفسها، بل هو نتيجة لا تنفصل عنها. وفي هذه الحلقةالحادية عشرة يقول: هناك عدد من مواطن الخطأ في الادعاء القائل ان الاسلام حل محل الشيوعية. فبادئ ذي بدء ان الشيوعية مهما بولغ بها، ومهما شتمت خطابيا، كانت تهديدا حقيقيا، فقد انطلقت لتسود العالم، وذلك كان هدف لينين وستالين. ومَنْ جاءوا بعدهما صنعوا ٤٥ الف سلاح نووي وبنوا جيشا ضخما لتحقيقه. ورغم ان الشيوعية لم تتكلل بالنجاح فانها كانت تحديا خطيرا للغرب. وهي لم تكن من اختراع الغرب بل كانت حقيقة واقعة. ثم يُزعم ان المطلوب تهديد ما، وان الاسلام ملأ الفراغ الذي تركته الشيوعية. أصحيح ان جميع المجتمعات كانت تحتاج الى تهديد؟ من الامثلة المضادة الصالحة جدا فتح الاميركيتين على ايدي الاسبان والاوروبيين. فهنا لم يكن ثمة منافس، لم يكن ثمة تهديد بل مجرد دافع الركض وراء المال واقامة مزارع كبيرة وبناء مستوطنات للتخفيف من وطأة المشكلة السكانية في الوطن. هل ثمة في الغرب المعاصر (مفترضين هذا المفهوم المُمدَّى ـ تحويل المجرد الى شيء مادي) ما يشير الى انه بحاجة الى ان يُواجه بتهديد؟ ماذا يريد الناس في الغرب؟ الاجابة بسيطة. انهم يريدون المال. وهذا ما تمثله العولمة. انها تعني تحويل العالم أجمع الى سوق هائلة ومعمل انتاج صناعي. وفولتير قال في رسالته الفلسفية السادسة، «في السوق ليس هناك محمدي أو مسيحي أو يهودي. الكافر الوحيد هو المفلس». مصطلح «العداء للاسلام» ايضا مصطلح مضلل. فالخطابية معادية للمسلمين لا للاسلام. انها خطابية ضد بشر وليست ضد دين. ولكننا ما زلنا نحتاج الى ان نسأل لماذا تظهر هذه الخطابية بانتظام. الاجابات متباينة. ففي صربيا التي على الارجح تضمر من التحامل على المسلمين أكثر من أي بلد اخر في اوروبا، يتعلق الامر بأزمة الايديولوجيا الشيوعية وحاجة الحكومة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصربية السلطوية وحكامها السلطويين الى ايجاد طريقة لتعبئة السكان. ونظريات المؤامرة هي جواب الصرب عن حاجاتهم السياسة.

❖ المال أولا وثانيا وأخيرا

❖ معاداة المسلمين مشروطة بما حدث في الثمانينات والتسعينات. وفي اسرائيل، حتى عهد قريب، كان الصهاينة اليمينيون، كعهدهم، يأخذون صورهم السلبية من النازية. وانتقل مركز التشديد الى معاداة المسلمين نتيجة النزاعات في لبنان مع حزب الله وكذلك صعود حماس بين الفلسطينيين. ويغتنم الاسرائيليون الآن الفرصة لتغليف تطرفهم بهذه المفردات. وكان من الحالات المتطرفة الحاخام الذي تكلم في جنازة باروخ غولدستين الذي قتل ٢٩ فلسطينيا. اذ قال هذا الحاخام ان ظفر يهودي واحد يساوي اكثر من ارواح الف عربي. واليمينيون الاسرائيليون يرون التهديد الاسلامي هنا، وهناك وفي كل مكان، ولكن هذه موضوعة حديثة العهد وليست موضوعة نجدها في الصهيونية الكلاسيكية أو حتى صهيونية الستينات. وفي فرنسا فان معاداة المسلمين هي خطابية موجهة ضد الهجرة ومشاكل البطالة. والمثير للاهتمام ان معاداة المسلمين في بريطانيا كانت حتى التسعينات أقل انتشارا. وشاءت الصدف ان نزاع الامبراطورية البريطانية مع المسلمين كان أخف منه مع أي جماعة اخرى تقريبا. وكان نزاعها بدلا منهم مع الارهابيين الكاثوليك الايرلنديين والارهابيين الهندوس والارهابيين اليونانيين في قبرص. ومن الامثلة اللافتة انه من بين الوف البريطانيين الذين سمعوا عن الانتفاضة الهندية، او تمرد ١٨٥٧، والثقب الاسود في كلكتا، ليس من احد بينهم يستطيع القول ان كان الهنود المشاركون فيها من الهندوس أو المسلمين، أو الاثنين، أو من السيخ. وكان المسلمون في الامبراطورية البريطانية اكثر منهم في أي امبراطورية اخرى في التاريخ، اكثر حتى من عددهم في الامبراطورية العثمانية. ولكن رغم هذا الماضي بدأت خطابية جديدة من العداء للمسلمين تتصاعد

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فـي بريطانيـا. لا ريـب فـي ان الخطابيـة المعاديـة للمـسلمين فـي اوروبـا تـرتبط بـالهجرة وقضايا معاصرة اخرى. وأحد القوالب النمطية لهذه القضية ما يتعلق بالارهاب، ولكـن الحقيقة ان غالبية الارهـابيين فـي الـشرق الاوسـط لم يكـونـوا مـن الاصـوليين. كـانـت لديهم ايديولوجيات علمانية. وبين الفلسطينيين كان معظم الاعمال الارهابية وعمليات الخطف في الستينات والسبعينات من تنفيذ جماعات ماركسية ـ لينينيـة. وبقـدر تعلـق الأمـر بأوروبـا الغربيـة فـان المشكلة الارهابيـة الرئيـسية لا تـأتي مـن العـالم الاسـلامي: تأتي من الارهابيين الايرلنديين أو الباسك أو الكورسيكيين، الذين لكل فريق منهم اجندته القومية الخاصة. لذا سيبدو ان هذه الخطابية ظهـرت فـي بلـدان غربيـة مختلفـة بينهـا اميركـا لاسـباب مـشروطة وكـثيرا مـا تكـون اسـبابا محـدَّدة. وفـي اطـار هـذه الخطابيـة فـان الموضوعة الأكثـر شـيوعا ـ والـتي تـرتبط برمـز الاسـلام ـ تـذهب الى ان المسلمين يطوقون الآخرين في هلال استراتيجي. ان الجيواستراتيجية تجيز التمادي فـي الخيال: هذا ما يتحدث عنه الهنود كما يتحـدث عنـه الاوروبيـون بـشأن الجزائـر. وهـو، بالطبع، موقف ديماغوجي.

❖ التطرف المعادي للغرب

❖ لننظر الآن الى الوجه الآخر من الحكاية، الى خطابيـة التطـرف المعـادي للغـرب فـي الـشرق الاوسـط. فهـذه موضـوعة حاضـرة منـذ زمـن طويـل. متـى ظهـرت الاصـولية الاسلامية؟ هل بدأت بالاخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨ أم بالوهابيين في الجزيـرة العربيـة فـي القـرن الثـامن عـشر؟ فـي الـسياسـة المعاصـرة كـانـت الاصـولية الاسـلامية ظـاهـرة هـامـة مـن ظـواهر الـسنوات الخمـس والعـشرين الماضـية ابتـداء مـن الـسبعينات مـرورا بـالثورة الايرانيـة فلاحقـا. مـا هـي الموضـوعات الـتي تُثـار هنـا؟ الموضـوعة الاولى هيمنة الغرب على العـالم الاسـلامي، تقليـديا مـن خـلال الكولونياليـة أو بأشـكال غـير تقليدية. وحين لا يمارس هيمنته يعمد الى التدخل؛ في الخليج، في شمال العـراق، فـي

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجزائر. الموضوعة الاخرى الشائعة والمنتشرة على نطاق واسع جدا هي ان الغرب يحاول تقسيم العالم الاسلامي. وفي العالم العربي فان اشد الكلمات السلبية فاعلية هي «التقسيم» و«الانفصال». التقسيم هو ما فعله الامبرياليون بعد الحرب العالمية الاولى حين كان العرب يتطلعون الى الوحدة، والانفصال المقصود هو بالاساس انفصال سورية عن الجمهورية العربية المتحدة مع مصر في عام ١٩٦١. وما زال القوميون العرب ينظرون بقلق بالغ الى هذه القضية: بنظرهم ان منطقة الحكم الذاتي الكردية في شمال العراق تمثل تقسيما وانفصالا على السواء. ثالثا، تُساق المحاجَّة القائلة ان الغرب لا يكترث باضطهاد المسلمين: يتحدث الغرب عن حقوق الانسان لكنه يتجاهل فلسطين والشيشان والبوسنة وكشمير وغيرها. ويكاد لا يوجد مَنْ يرى من المناسب ان يذكر التنكيل الوحشي بمسلمي بورما الذين هُجر نصف مليون منهم خارج البلاد في السنوات الأخيرة. اما الهند، فان الغرب لا يقول شيئا يُذكر عما سيحدث أو ما يجري فعلا فيها.

الموضوعة الرابعة هي موضوعة المعايير المزدوجة في ما يتعلق باسرائيل. فان مشاعر المسلمين ازاء الغرب ليست نتيجة قيام اسرائيل وحرمان الفلسطينيين من حقهم في اقامة دولتهم فحسب، بل كانت هذه القضية مبعث قلق بالغ، لا سيما في التسعينات، بسبب عدم تنفيذ عملية السلام التي بدأت في اوسلو روحا، فضلا عن عدم تنفيذها نصا. وبوصفي متابعا ومهتما بالقضية الفلسطينية منذ ثلاثين عاما دعمتُ اتفاق اوسلو وما زلتُ ادعمه. فهو حل توفيقي معقول وإن لم يكن معاهدة نهائية بكل تأكيد. وأي شعب فقد ٧٠ في المائة من ارض وطنه في بحر جيلين سيكون لديه سبب للشعور بالحيف. وبموجب الاتفاق يُفتَرض بالفلسطينيين ان يعترفوا باسرائيل ويكونوا عقلاء بما فيه الكفاية للقبول بـ٣٠ في المائة من ارض وطنهم. وأن يُعرَض عليهم الآن نصف هذه الـ ٣٠ في المائة فقط انما هو اهانة ولكنه أفضل ما يستطيعون الحصول عليه. من جهة اخرى، فان الدعوات التي تُطلق الى العودة الى الانتفاضة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والكفاح المسلح أو احياء الخطابية التاريخية ضد اسرائيل، التي تنكر حق الاسرائيليين في الوجود، دعوات غير مشروعة وغير عملية. خامسا، هناك موضوعة واسعة الانتشار هي فساد اخلاق المسلمين بسبب الاعلام والسياحة والمجموعات والشركات الكبرى مثل مطاعم ماكدونالد. وفي بعض الحالات تقود هذه القضية الواسعة الانتشار الى الاعتقاد بأن «الحال ستكون أفضل من دون سياح». من الضروري الاعتراف بهذه الموضوعات ولكن ينبغي ألا تؤخذ كما تبدو في ظاهرها من دون تمحيص. اولا، الى أي مدى تكون هذه الموضوعات خاصة بالمسلمين؟ فان موضوعة الهيمنة الأجنبية أو التقسيم الأجنبي ليست خاصة بالعالم المسلم، وهي لها معناها عند الهندوس في ما يتعلق بتقسيم الهند. والتقسيم قضية خلافية في ايرلندا. وفي الصين تُطلق دعاوى بشأن الهيمنة الأجنبية على مستوى الاقتصاد والسياسة وعن التدخل على صعيد قضايا حقوق الانسان، وعن الفساد الثقافي. وحديث الصينيين عن «طلقات الرأسمالية المحلاة بالسكر» وفساد الثقافة الغربية ونزعة الغرب الاستهلاكية لا يمت بصلة الى الاسلام. ويُسمع النقد نفسه الذي يوجه الى الغرب في بلدان مسيحية وخاصة اميركا اللاتينية. يمكن ان تُصاغ تهم الامبريالية والهيمنة والفساد الثقافي، احيانا، في شكل اسلامي محدَّد ولكنها ليست في الواقع خاصة بالعالم المسلم. ونمط الهيمنة والكولونيالية الغربيتين والتدخل العسكري الغربي في السنوات الخمسين أو المائة الماضية لا يكشف عما هو اسلامي على وجه التحديد أو ما هو معاد للاسلام بصفة خاصة، بل هو من باب اولى نتاج لا مساواة اقتصادية وسياسية على مستوى عالمي، متأصلة في النظام الدولي الحديث. ويصح الشيء نفسه، بالمناسبة، على مفهوم «الاستشراق» المذموم على نطاق واسع.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

❖ «الإسلام دين ودولة» تعبير وجد في القرن ١٩

❖ ما الذي نخلص اليه من كل هذا؟ بوصفنا أكاديميين ومثقفين تقع على عاتقنا مسؤولية عدم السماح بمرور هذه الخطابية دون مَنْ يتحداها. وانا لا أتخيل اننا سنربح السجال ذات يوم. فان الصحافة الأكثر ذكاء في الغرب ما زالت تحمل عناوين بارزة مثل «الاسلام والمدينة الحديثة» أو «الاسلام والحرب» أو «الاسلام والرياضة»، وكأن هذا المفهوم المُمدَّى يفسر كل شيء. وصالونات المزاد تبيع اعمالا ذات مناشئ عديدة تحت يافطة «الفن الاسلامي» المغشوشة. ولكن علينا ان نستمر في المحاججة، وألا نسمح بأن تكون الغلبة لخمينيات هذا العالم أو هنتنغتونياته. وبالطبع فان للافكار والكلمات تأثيرها، والخرافات كثيرا ما تتحول الى واقع. وان ضحايا العدوان والظلم، ومَنْ يُتهمون بالارهاب يمكن ان يبدأوا بالوقوف الى جانب الارهابيين الحقيقيين لأن هؤلاء هم الوحيدون الذين يسعفونهم بالمال ويمنحونهم احساسا بالهوية. وهم لن يكونوا منضبطين كما نتمنى ان يكونوا بل سيبدأون برفع السلاح. ولذا فان الاحداث هي العوامل الحاسمة لا المناظرات الاكاديمية. ولكن مسؤولية اخرى تقع على عاتق الأكاديميين هي التمييز وعدم وضع الجميع في سلة واحدة. ونحن بوصفنا علماء اجتماع نريد ان نقارن، ان نعمم، ان نبحث عن قوانين. ولكننا يجب ان نسأل إن كانت التعميمات المشتركة تصح على المسلمين كافة أو على غالبيتهم، أو بالمقابل إن كانت تصح على المسلمين حصرا. وفي ما يتعلق بالارهاب ينبغي ان نقر ـ المرة تلو الاخرى اذا اقتضت الحاجة ـ بأن غالبية المسلمين ليسوا ارهابيين وان الارهابيين ليسوا كلهم مسلمين. ثالثا، لكي يعاد التقييم بأن المقاربة الحداثوية، المعادية للجوهرية، المعادية للدائموية هي المقاربة الصحيحة، دعوني اسوق مثالا واحدا. كثيرا ما يقال ان لا فصل في الاسلام بين الدين والسياسة. ولاسناد هذا القول يجري الاستشهاد بالعبارة الكلاسيكية على ما يُفترض، «الاسلام دين ودولة». ولكن الظاهر ان هذا تعبير وُجد في القرن التاسع عشر. وتاريخ أي بلد مسلم لا يكشف عن دمج القوى الزمنية

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالقوى الروحية وانما عن الفصل بين الاثنين. ففي الامبراطورية العثمانية كان هناك السلطان و«شيخ الاسلام» ممثلَين مركزيين متمايزين للسلطة. وفي القاب سليمان القانوني لا تظهر كلمة «الخليفة» حيث اعتبر ان ذلك لا يمت بصلة الى سلطته. أخيرا، ينبغي ان نتذكر الأقدم بين كل وصفات علم الاجتماع، وهي وصفة اوصى بها لنا جميعا البعيد جدا عن المثالية والاصولية مَكْيافيلّي: «ان لا نخلط التمنيات بالواقع». فما يفعله المسلمون هو ما يفعله الناس في العالم اجمع: يحاولون تحقيق السلطة، تربية اطفالهم، التعلم والازدهار، وجعل بلدهم اروع بلدان العالم. هذه هي الحياة وفيها الكثير من الصراع واللامساواة، لكنها ليست «الاسلام» في مواجهة «الغرب».

في الختام أذكر حكاية مناسبة عن ملك افغانستان أمان الله، الذي كان من كبار المعجبين بأتاتورك. زار الملك تركيا في عام ١٩٢٩حيث سمع ان اتاتورك القى «خطابا كبيرا»، «بيوك نوتوك»، تكلم فيه امام الجمعية الوطنية لمدة ٣٦ساعة تخللتها استراحات. عاد امان الله الى افغانستان متعهدا بالتفوق والكلام لمدة اسبوعين. ولكن بعد عشرة ايام ثارت القبائل واطاحته من السلطة. وتحطم الميزان الملكي الذي ظل صامدا منذ منتصف القرن الثامن عشر: مجموعة من قطاع الطرق من الشمال بزعامة باشائي ساغو استولت على السلطة. فكانت تلك نهاية حكم الملك وبداية المتاعب في افغانستان في العصر الحديث.

❖ أفغانستان والإسلاموية وركام الحرب الباردة

❖ بعد ليلة على توقيع الاتفاق في المانيا في ٥ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠١ لتشكيل حكومة مؤقتة في افغانستان، اتصلتُ هاتفيا بمسؤول كبير في الحكومة الشيوعية السابقة التي تولت السلطة في كابل من ١٩٧٨ الى ١٩٩٢. كان يعيش منفيا في لندن. اغتبط لنبأ اتفاق بون وأعرب عن الأمل بأنه سيفتح فصلا جديدا في تاريخ بلده. لم يصدّق أنه حتى لو عاد السلام سيكون بمقدور الشيوعيين

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السابقين، من اعضاء حزب الشعب الديمقراطي الافغاني، ان يعودوا الى الحياة العامة: سيتعين عليهم أن يجدوا شكلا «ديمقراطيا» جديدا. لكنه لاحظ أن توزيع المقاعد في الادارة الجديدة المؤلفة من ٣٠ عضوا يقوم على أُسس إثنية فقط. واقترح أن يكون توزيع المقاعد على أساس طبقي، وذلك في تذكير، مطلوب للغاية، بالسياق الآيديولوجي الذي سبق هذه الأحداث. فالادارة الجديدة ضمت ممثلين عن الارستقراطية وامراء الحرب لكنها ينبغي ان تضم التكنوقراط التحديثيين ايضا. قصة افغانستان الحديثة يجب أن تُعد واحدة من أكبر مآسي الحرب الباردة: فهي بجانب فيتنام وكوريا، انغولا وموزمبيق واحد من تلك البلدان التي أدى فيها تضافر الصراع الداخلي والتدخل الخارجي الى حرب مريعة. وفي السنوات الواقعة بين ١٩٧٨ و١٩٩٢ لقي اكثر من مليون، أو ١٠ في المائة من السكان، حتفهم. ونزح نحو الثلث ليكونوا لاجئين. وهربت غالبية النخبة المتعلمة. ولا نهاية الحرب الباردة أدت الى احلال السلام: عندما سقط النظام الشيوعي في كابل في ابريل (نيسان) ١٩٩٢، بعد ثلاث سنوات على انسحاب القوات السوفيتية في ١٩٨٩، اندلعت جولة جديدة من القتال بين الفصائل الاسلامية والاثنية المتنازعة. وأصبحت العاصمة كابل، التي كانت مدينة كوزموبوليتية تحميها حتى ذلك الوقت القوات السوفيتية والشيوعية الأفغانية، ساحة قتل من بيت الى بيت، وعمليات خطف واغتصاب وقصف متواصل بالقنابل والقذائف على المدنيين. وفي مناطق البلاد الاخرى أقامت مجموعات من المقاتلين السابقين وفلول الجيش الشيوعي والادارة الشيوعية السابقة، تحالفات متنازعة. واذ تلاشى اهتمام الولايات المتحدة بعد عام ١٩٩٢، تدخلت قوى اخرى لدعم هذا الطرف أو ذاك من الاطراف المتنازعة. وفي صيف ١٩٩٤ قام لاعب جديد يطمح في السلطة هو حركة طالبان (طلاب المدارس الدينية)، بمحاولة الاستيلاء على السلطة على اساس برنامج بنوده اعادة النظام والتمسك المتزمت بالشريعة الاسلامية. واشار المتشككون الى ان لدى طالبان مئات الدبابات وأكثر من دزينتين من الطائرات النفاثة وامدادات كبيرة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من السلاح: رغم النفي والانكار لم يكن هناك إلا مصدر واحد هو باكستان. ولم تكن المشكلة ان صعود طالبان بدا محاولة اخرى من جانب اسلام اباد لضم افغانستان فحسب، وهو جانب هام في تشعبات الحرب الافغانية برمتها، بل ان طالبان اعتمدت بالكامل تقريبا على الجماعة الاثنية البشتونية التي تُقدَّر بأقل من نصف عدد السكان، والتي أثار تقدمها ذاته قلق الجماعات الاثنية الاخرى، وخاصة الطاجيك والاوزبك الناطقين بالفارسية. جاء استيلاء مقاتلي طالبان على العاصمة الافغانية كابل في عام ١٩٩٦ بعد عامين من تدخل دولة في شؤون دولة اخرى بأفدح الاشكال ضررا منذ سنوات طويلة. وفي حين كان النزاع يوصف في الغرب بالصراع الداخلي فان باكستان في الحقيقة صنعت من طالبان قوة قتالية شبه نظامية في عام ١٩٩٤، مجندة قادتها من المدارس الدينية في مخيمات اللاجئين الافغان في باكستان ومضطلعة بتسليحهم وتمويلهم ومدهم بالوقود والدعم التقني لاجتياح القسم الغربي من افغانستان، والقسم الأعظم مما تبقى وقتذاك. وكانت باكستان منذ قيامها في عام ١٩٤٧ تطمح في السيطرة على جارها الشمالي، وازدادت رغبتها هذه بعدما اعلنت جمهوريات آسيا الوسطى استقلالها عن موسكو في عام ١٩٩١. وبوجود طالبان الآن، حسبت باكستان انها لا تستطيع بلوغ هدفها الاستراتيجي فحسب بل احتكار التجارة وتصدير النفط والغاز من آسيا الوسطى ايضا وبذلك استبعاد منافسين آخرين - روسيا، ايران، تركيا - عن اللعبة.

❖ طالبان غدرت بنجيب الله

❖ وبعد بناء طالبان وتسليحها تمكنت الحركة من تجنيد اعداد كبيرة بين قبائل افغانستان الباتانية التي تشكل نحو ٤٤ في المائة من السكان. ومن أصل ستة اعضاء في مجلسها الحاكم كان خمسة ملالي من مدينة قندهار الباتانية في حين كان السادس من فصيل منشق، طاجيكي أو ناطق بالفارسية، في اقليم باداخشان

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشمالي الشرقي. وهذا الطابع الاثني لحركة طالبان هو الذي اثار قلق العديد من الجماعات الاخرى في افغانستان.

لم تتردد طالبان في تسوية حساباتها من الفترة الشيوعية السابقة. وكان من أول ما فعلته الحركة عندما دخلت كابل، القبض على الرئيس الشيوعي الأسبق نجيب الله الذي حكم افغانستان من ١٩٨٦ الى ١٩٩٢ وقام بدور اساسي في العملية التي ادت الى انسحاب السوفيات. وتخلى نجيب الله عن السلطة في ابريل ١٩٩٢ بناء على تفاهم، غير مكتوب من جانب الامم المتحدة، بأنه يستطيع ان يغادر البلاد. ولكن الحكومة الجديدة نكثت بالاتفاق فبقي نجيب الله حبيس مجمع الأمم المتحدة في كابل. وكان طالبان ابلغوه انهم مستعدون للعمل معه فرفض عروضا من النظام المهزوم بأخذه معهم. وقبل ساعات قليلة فقط من اعدامه اتصل هاتفيا بأفراد اسرته في دلهي لطمأنتهم الى ان علاقات طيبة تربطه بطالبان. وسرعان ما عرف الحقيقة: نقلوه الى القصر الرئاسي السابق حيث قاموا بتعذيبه وتشويه جسمه. وعندما طلب الادلاء ببيان أخير للأجيال القادمة اطلقوا النار على صدغه وعلقوا جثته الى جانب جثة شقيقه من برج لمراقبة حركة المرور. وفي انعكاس مثير للعداوات القديمة بين الشيوعيين تغيب غولابزوي الذي عمل مع نجيب الله عدة سنوات، وببرك كارمال، الزعيم الشيوعي الذي خلفه نجيب الله في عام ١٩٨٦، عن حضور مجلس الفاتحة الذي اقيم على روحه في مسجد موسكو بحضور الجالية الافغانية هناك.

هذا المنحى الذي اتخذته الأحداث يثير السؤال عن كيف تأثرت افغانستان بنهاية الحرب الباردة. فقد كانت افغانستان كثيرا ما تُذكر، بخفة، كمثال على احد نجاحات الأمم المتحدة في فترة ما بعد الحرب الباردة ابتداء من عام ١٩٩١، الى جانب ناميبيا والسلفادور والكويت، ولبعض الوقت على اقل تعديل، كمبوديا. ولكن افغانستان لم تكن نجاحا بل كانت حالة مفاوضات ايجابية في امكاناتها لكن اجنحة من الجانبين عملت على اجهاضها، ثم سكوت الأمم المتحدة على انتهاك

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الولايات المتحدة لاتفاقية دولية. وعلق الكاتب الأميركي المرموق بارنيت روبن[1] كاتبا: «ليس من مكان تعرضت فيه آمال السلام والنظام في نهاية الحرب الباردة الى السخرية بقسوة اشد مما تعرضت له في افغانستان». والأنكى من ذلك أنه في حين ان العالم الغربي ربما فقد الاهتمام، بشيء من الهدوء، فان آخرين، ليسوا بعيدين مثله، وجدوا من الصعب ان ينفضوا ايديهم: الاستقرار السياسي والاقتصادي للدول الخمس المستقلة حديثا في آسيا الوسطى، كان مرهونا بالسلام في افغانستان التي كانت تصدر اللاجئين والمخدرات والسلاح والحركات الأصولية. والعنف الذي كان يلتهم مدن باكستان، بما فيه الجزء المتمثل بنزاع السنة والشيعة، كانت تؤججه من احدى نواحيه نيران امتد لهيبها عبر الحدود. وتحالف ايران المتنامي مع روسيا إبان التسعينات، في ارتباط محدود لكنه كبير له منطقه العسكري والاقتصادي بالنسبة للطرفين، كانت تعززه مصالح مشتركة لهما في افغانستان بعد رحيل القوات السوفياتية في اوائل ١٩٨٩.

❖ صواريخ ستنغر وسقوط الامبراطورية السوفياتية

❖ لم تكن الحرب الباردة في الثمانينات سبب النزاع الداخلي في افغانستان بل القت بظلالها عليه. ومن جهتهما رأت الولايات المتحدة وباكستان في افغانستان فرصة لتحقيق مصالح استراتيجية بتسليح فصائل افغانية عميلة. وأُعطي الباكستانيون الكلمة الأولى في مَنْ يتلقى السلاح والمساعدات، وهم لا بد ان يتحملوا قسطا كبيرا من المسؤولية عن تنمية التيارات الأصولية في افغانستان. وكان موقف واشنطن عموما يذهب الى انه ليس مهما مَنْ يحصل على الدعم شريطة تحقيق الهدف الرئيسي المتمثل في «قتل الروس». والمفارقة انه في وقت كانت الولايات المتحدة تفعل كل ما بوسعها لمحاربة نظام حكم اصولي في ايران المجاورة فانها كانت تدعم قوى من النمط نفسه في افغانستان. وعندما حان الوقت لرحيل السوفيات لم تحاول باكستان ولا الولايات المتحدة التوصل الى تفاهم مع نظام الحكم في كابل. واعتبر

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاميركيون ان الاتفاق الذي وقعوه مع كابول وباكستان والاتحاد السوفيتي في جنيف في ابريل ١٩٨٨ مجرد وسيلة لطرد السوفيات. ولم تكن واشنطن أو اسلام اباد مستعدة لتنفيذ الالتزامات في هذا الاتفاق التي كانت تقضي بانهاء مد الفصائل الأفغانية المسلحة بالسلاح. بدلا من ذلك مضت واشنطن واسلام اباد، وسط موجة من النزاعات والاقتتال الداخلي بين «المجاهدين»، في العمل لتأمين انتقال السلطة الى ما اضحى الآن ائتلافا يهيمن عليه اشد الأصوليين رجعية ووحشية، ويموَّل تمويلا كبيرا من تجارة الهيروين. كان دفاع الولايات المتحدة عن هذا الفعل غير القانوني صريحا: ان واشنطن لم تعتزم قط تنفيذ اتفاقيات جنيف الموقعة عام ١٩٨٨ بقدر تعلق الأمر بوقف امدادات السلاح، وانها بوصفها دولة «ضامنة» لا «موقعة» على هذه الاتفاقات لم تكن ملزَمة بوقف هذه الامدادات، وفي رسائل متبادلة مع موسكو قبل التوقيع في جنيف (لم تُنشر حتى الآن) جعل الاميركيون من الواضح ان التزامهم يقتصر على ما سموه «تناظرا ايجابيا». لكن هذه المحاجَّة الاميركية كلها هراء تبريري: في حقبة كثر فيها الحديث عن الالتزام بالقانون الدولي وسلطة الأمم المتحدة، كان انتهاك واشنطن واسلام اباد لاتفاقيات جنيف ١٩٨٨ بدأب انتهاكا منهجيا ومتعمدا لا مثيل له في العالم المعاصر. ومما له مغزاه ان هذا لم يثر انتقادات تُذكر: كان السوفيات اضعف من ان يفعلوا شيئا وكانت الأمم المتحدة نفسها تفضل غض الطرف فيما واصل المدافعون عنها ادعاءهم بأن افغانستان كانت «نجاحا» للمنظمة الدولية. وتجدر الاشارة الى التناقض بين الصمت على هذه السياسة الاجرامية من جانب الولايات المتحدة في افغانستان، التي لا يتطرق اليها الشك، وحملة الانتقادات، الباطلة في قسم كبير منها، التي اثارتها عملية الأمم المتحدة للدفاع عن سيادة الكويت في ١٩٩٠ - ١٩٩١، بين اوساط اليسار والليبراليين. ويبدو ان ذوي العقول الراجحة والتفكير الصائب bien pensants على الساحل الشرقي الاميركي والناشطين الاوروبيين من اجل «السلام»، الذين كثيرا ما يكونون مروجي أوهام إن لم يكن ما يروجونه تواطؤا في ما يتعلق بالأنظمة السلطوية، والذين ابدوا كل ذلك الاحجام عن

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدفاع عن سيادة الكويت في ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، وجدوا من المتعذر ان يستنطقوا ضمائرهم حول ما كان يجري من فظائع في كوش الهندوسية خلال الفترة نفسها. ففي هذه القضية على أقل تعديل يبدو ان امتثالية الحرب الباردة ظلت سارية المفعول. عند النظر الى الوراء، هناك على الأقل ثلاثة أسئلة أوسع يمكن ان تُطرح عن الحرب الباردة وافغانستان. السؤال الأول يتعلق بدور امدادات السلاح الأميركية، وخاصة صواريخ ستنغر، في فرض الانسحاب على السوفيات عام ١٩٨٩. اذ تشير الخطابية الريغانية، التي نالت تأييدا شاملا في الكونغرس، الى ان صواريخ ستنغر التي بدأت العمل في اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨٦، هي التي دفعت السوفيات الى الرحيل. ومن المؤكد ان الثمن كان غاليا: بحسب ليونوف فقد الروس ٢١٢ طائرة و٣٣٣ مروحية في افغانستان (الأرقام الغربية أعلى)، ويمكن للمرء ان يفترض ان صواريخ ستنغر كانت السبب في سقوط العديد من هذه الطائرات. ولكن، كما يبين روبن وكوردوفيز وهاريسون، فان الروس كانوا قد بدأوا يعملون على الانسحاب منذ اكتوبر ١٩٨٥. واتُّخذ قرار المكتب السياسي الحاسم بالانسحاب في ١٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٦، قبل ان يكون تأثير صواريخ ستنغر محسوسا بالكامل. بل استنادا الى كوردوفيز فان الخبراء السوفيات جادلوا بأن صواريخ ستنغر إن فعلت شيئا فانها أخَّرت سحب قواتهم مؤكدة في الظاهر محاجّات العناصر المتشددة في القوات المسلحة السوفياتية. والتحول في القيادة السوفياتية، متخلية عن اليقينيات السابقة بشأن الانتصار الحتمي للاشتراكية، ومتراجعة عن الجزم بوجود تهديد اميركي شامل، كان هو العامل الأكبر في تغيير الموقف السوفياتي. واذا كان لتصعيد الدعم العسكري الأميركي في عام ١٩٨٦، عن طريق الباكستانيين، من تأثير فهو تعزيز القطاعات الأشد نكوصية بين «المجاهدين» واستبعاد أي حل وسط ممكن في عام ١٩٨٩. السؤال الثاني هو إن كانت حصيلة ما بعد ١٩٩٢ حتمية. ولا بد ان تكون الاجابة بالنفي. وكما يتضح من كلام روبن والتقارير الدبلوماسية المستفيضة لكل من سيلغ هاريسون وديفيغو كوردوفيز فان آفاق التوصل الى تسوية

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

توفيقية في افغانستان عن طريق المفاوضات كانت آفاقا مشجعة بشكل واضح: لكن عناصر نافذة في واشنطن وباكستان عملت على اجهاضها. وكانت الأمم المتحدة اصبحت طرفا في المفاوضات بشأن افغانستان عام ١٩٨٠، بعد فترة قصيرة على التدخل السوفياتي، وتقدمت بسلسلة من المقترحات حول توقيت الانسحاب السوفياتي. وكانت مجموعة من هذه المقترحات تشتمل على عودة الملك الأفغاني الذي يعيش منفيا في روما منذ عام ١٩٧٣. وكانت استطلاعات رأي السكان الأفغان بصورة غير رسمية تشير الى ان الملك كان لم يزل أوسع شعبية من الفصائل المسلحة. ولكن الأميركيين والباكستانيين الذين كانوا يدعمون المتعصبين الاسلاميين وقفوا ضد ذلك. وكان واحد من ابرز مؤيدي التوصل الى حل وسط يعطي دورا للملك، وهو الأكاديمي المغترب بهاء الدين مجروح، اغتيل في بيشاور في فبراير (شباط) ١٩٨٨ بأيدي مَنْ يُعتقد عموما انهم عملاء زعيم احد الفصائل المسلحة - قلب الدين حكمتيار. والولايات المتحدة اذ كانت تتظاهر بالرغبة في التوصل الى حل توفيقي في كابل، كانت تشاطر باكستان الرأي القائل ان هذه فرصة ينبغي أن لا تُفوَّت لمواصلة الحرب. والأكثر أهمية ان هذا الرأي كان هو السائد حتى بعد موافقة غورباتشوف على سحب القوات السوفياتية. وفي المراحل الأخيرة، في ١٩٩١ - ١٩٩٢، تمكنت الأمم المتحدة من اقناع قيادة حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني بالتنحي، والسماح بتشكيل حكومة انتقالية، ولكن الفصائل المسلحة، بتشجيع من الاستخبارات الباكستانية، رفضت قبول أي حل وسط كهذا.

المسألة الثالثة هي الدور الذي قامت به افغانستان في اسقاط النظام السوفياتي نفسه. فان الثمن الانساني (١٥ الف قتيل) والمالي (٥ بلايين دولار سنويا) كان كبيرا على الاتحاد السوفياتي لكنه بكل تأكيد لم يكن السبب الرئيسي لانهيار الاتحاد السوفياتي. ولعل آثاره السياسية والأخلاقية، الأقل ملموسية، قامت بدور أكبر: لا ريب في ان الحرب الأفغانية أسهمت بقسطها في تقويض ثقة النظام السوفياتي بنفسه آيديولوجيا، وفي تحريك المعارضة الشعبية التي كانت قادرة، لأول مرة منذ عام

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٩١٧، على التعبير عن نفسها بحرية في الصحافة، وفي رسائل الى القيادة. ولعل المقارنة التي عقدها بعض الروس مع هزيمة روسيا امام اليابان عام ١٩٠٥، في محلها تماما. والشيء الذي لم تفعله افغانستان هو ما كان عند كثيرين، في وكالة الـ«سي آي ايه» وغيرها، من الأهداف الرئيسية للمساعدات الغربية ـ استخدام الضغط في افغانستان لاضعاف موقع الاتحاد السوفياتي في آسيا الوسطى. وقد جاء انهيار النظام الشيوعي في موسكو نتيجة احداث في ساحة مغايرة جدا هي اوروبا الشرقية، وفي دول البلطيق. وفي الواقع ان النخب الشيوعية في دول آسيا الوسطى الخمس بدلا من السقوط، ردت على اتساع رقعة الديمقراطية اتساعا خطرا في موسكو باعلان الاستقلال في الأيام الأخيرة من عام ١٩٩١، من اجل تحسين حظوظ بقائها في السلطة. وبعد عقد من الزمان ما زالت هذه البلدان، والدول الثلاث الاخرى في منطقة ما وراء القوقاز، خاضعة لأنظمة حكم سلطوية برؤساء كانوا ينتمون الى الجهاز الحزبي السابق.

❖ أكبر عملية خفية في تاريخ «السي اي ايه»

❖ هنا، بالطبع، تكمن المفارقة الكبرى للسياسة الغربية ازاء افغانستان. فبعد عام ١٩٩١ كان العالم الغربي سعيدا بالتعامل معها، وتقديم الدعم السياسي لحكومات الجمهوريات المستقلة حديثا، في آسيا الوسطى وما وراء القوقاز، التي كانت في كل شيء سوى الاسم، استمرارا للنخب البريجنيفية بقصورها المهيبة ونسب الـ ٩٩ في المائة من الاصوات لرؤسائها، وما ورثته من اجهزة الـ«كي جي بي»، بعد تجديده و«تأميمه»، ووسائل اعلامها الطيعة والمتزلفة على الوجه المطلوب. وكان هذا على وجه التحديد نمط النظام الذي خاض الغرب حرب افغانستان لاسقاطه. ولكن حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، رغم كل خصائصه القمعية والتفريطية، كان بالعديد من المعايير مُفضَّلا على نظام الارهاب الذي اقامه المجاهدون ومن بعدهم طالبان. وبعد عام ١٩٨٩، كان من الأفضل على نحو ساطع لو بقيت كابل بأيدي

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حزب من الشيوعيين الذين تحولوا اصلاحيين، بالتحالف مع مسلمين علمانيين واسلاميين معتدلين. في غضون ذلك كان المتطرفون في العالم الاسلامي يعلنون شامتين بانهيار الشيوعية، ان «الاسلام» مستعد الآن لخوض مواجهة جديدة مع الغرب المعادي ابدا. ولكن، كما دأبتُ على القول لمن كانوا يحاورونني من الاسلاميين حين يشكُون من عداء الغرب، فان أكبر عملية خفية في تاريخ وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (سي.آي.إيه) نُفذت لدعم ائتلاف اصولي في افغانستان. وعن ذلك، على اقل تعديل، ينبغي ان يكونوا ممتنين. لكن الاعتراف بالجميل لم يكن من شيم هؤلاء الاسلاميين، أكانوا من الأفغان أو العرب أو غيرهم. وبدلا من الامتنان شنوا ابتداء من عام ١٩٩١ فلاحقا حملة متصاعدة من الخطابية والأعمال العسكرية ضد الغرب وخاصة الولايات المتحدة. والاسلاموية المعَسكَرة التي انبثقت في الثمانينات، مدفوعة الآن بارتباطها بالتطرف العربي والباكستاني في الأزمة الكبرى في غرب آسيا، ارتكبت سلسلة من الاعتداءات الدموية التي تكللت بعمليات تنظيم «القاعدة» في ١١ سبتمبر (ايلول) ٢٠٠١. والحركات ذاتها التي سعت الى ربط نضالاتها الرجعية في آسيا بالمقاومة العالمية ضد الولايات المتحدة، وجدت الآن نفسها في مواجهة هجوم مضاد حازم، هو نفسه هجوم عالمي، من جانب الولايات المتحدة وحلفائها. رعاتها حتى ذلك الوقت في افغانستان تخلوا عنها. النظام الاسلامي الايراني وجد فرصته لشن هجوم معاكس. والدعوة الى أمة مجاهدة لم تلق صدى يُعتد به. وفي ٢٣ نوفمبر هرب مقاتلو طالبان من كابل، وفي ١٦ ديسمبر سلموا قندهار. وفشل مشروع آخر، مدوَّل وسلطوي، فُرض فرضا على افغانستان. وما بدأ في السبعينات نزاعا بين افغان يمكن الآن ان ينتهي على أيدي افغان.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(الحلقة الأخيرة) ـ التاريخ ذريعة أكثر منه سببا.. مقولة مريبة

إذا كانت أحداث سبتمبر فريدة في تأثيرها فإنها لن تكون الأخيرة في أعمال الإرهاب الجماعي في السياسة الحديثة

ثمة ردان كثيرا التواتر على اي حدث جلل، وكلاهما غير مناسب ان لم يكن خطأ من الاساس: القول بأن كل شيء تغير والقول بأن شيئا لم يتغير. كان هذا صحيحا على منعطفات كبرى في تاريخ العالم الحديث: ١٩١٤ ـ ١٩٣٩، وفي زمن احداث الثورة الايرانية في ١٩٧٩، سقوط جدار برلين في ١٩٨٩، احتلال العراق للكويت في ١٩٩٠، من بعض النواحي، استمر المجتمع والعلاقات بين الدول كما في السابق. وفي ظل خطابية عن التغيير، واصلت الدول والبشر تعاملهم وتجارتهم وحياتهم. والحق ان دراما الاحداث ذاتها، حتى عندما دفعت الناس قدما الى عالم جديد والى نزوح مادي ونفسي، فانها ايضا اعادتهم الى موضوعات وقضايا اسبق: المحبة والكراهية، الخوف والتضامن، العداوات والاسباب كلها شبه دُفنت بما بدا انه تقدم، نصوص كلاسيكية في السياسة، الدين، الشعر.

من هذه الناحية، لا تكون احداث ١١ ايلول (سبتمبر) ٢٠٠١ مختلفة. من الواضح ان هذه الاحداث اطلقت تغيرا كبيرا في العلاقات الدولية، بين الولايات المتحدة الاميركية وحلفائها ومناطق من العالم الاسلامي، واعادة اصطفاف في الدبلوماسية، خاصة في ما يتعلق بعضوي مجلس الامن الاكثر ابتعادا، وهما روسيا والصين، وحملة في المجالات العسكرية والاستخبارية والسياسية ستتواصل سنوات. وان تكون هذه الحملة مبهمة من عدة اوجه، بلا نهاية واضحة او آليات، فان ذلك يضيف الى الغموض والى تلك السوداوية العالمية ما بعد ١١ ايلول (سبتمبر)، التي تتبدى في الحياة اليومية كما في الاقتصاد العالمي، والتي تنذر بالاستمرار شوطا بعيدا في المستقبل. تغيرت الولايات المتحدة في المقام الاول: قرنان من العزلة الفيزيائية عن النزاعات في

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بقية العالم، امن مستتب، فردي وجماعي في آن، وبما هو كذلك قيمة مشتركة للكثير من باقي العالم، تبددت في تلك الساعة المتأخرة من صباح صيفي. وطال هذا المجتمع انعدام امن جديد مفاجئ، دولي ومباشر.

يتبدى ابهام هذا النزاع، قبل كل شيء، في غياب اي نهاية واضحة. ولكنه مبهم بالقدر نفسه في غياب اي بداية واضحة. قد يسأل المرء متى كانت البداية في اي حرب. فالحرب العالمية الثانية بدأت لكثيرين في اوروبا عام ١٩٣٩ ولكنها بالنسبة لروسيا والولايات المتحدة بدأت عام ١٩٤١، وفي الصين عام ١٩٣٧، وفي اسبانيا عام ١٩٣٦، وفي اثيوبيا عام ١٩٣٥. الحرب الفيتنامية بدأت بالنسبة للولايات المتحدة في عام ١٩٦٥، وانتهت في عام ١٩٧٣، لكنها بالنسبة للشيوعيين الفيتناميين بدأت انتفاضة آب (اغسطس) ١٩٤٥ ضد اليابانيين واستمرت حروبا مع فرنسا والولايات المتحدة، وانتهت باعادة توحيد البلاد في عام ١٩٧٥. ويصح تفاوت مماثل على التسميات. فان ما يسميه العالم الغربي «ازمة الصواريخ الكوبية» في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٢ هو عند الروس «ازمة الكاريبي»، وعند الكوبيين الذين يشيرون الى انه لم يكن اي من الصواريخ ذات العلاقة «كوبيا» هي «ازمة اكتوبر» la crise de Octobre. والحرب العربية ـ الاسرائيلية في ١٩٧٣ هي حرب اكتوبر في الغرب وحرب «يوم كيبر» في اسرائيل وحرب رمضان في العالم العربي اشارة الى بدء غزوة «بدر» في شهر الصيام عند المسلمين.

يتيح السياق حتى قدرا اكبر من الالتباس. وقد سعى العديد من المعلقين في العالمين المتطور والنامي الى وضع ١١ ايلول (سبتمبر) ٢٠٠١ في سياق نزاع وعنف اوسع كلفا مئات الالوف من الارواح، عانت منهما مناطق العالم في السنوات الاخيرة: في انغولا، الكونغو، اسرائيل/فلسطين، افغانستان وغيرها. واذا كانت الولايات المتحدة بريئة وغير مستعدة في ١١ ايلول (سبتمبر) فانها لم تكن بعيدة عن المسؤولية، والتواطؤ في بعض الحالات، في هذه النزاعات السابقة. واحداث ١١ ايلول (سبتمبر) ٢٠٠١، اذا كانت فريدة في نطاقها وتأثيرها فإنها لم تكن الاولى ولن تكون الاخيرة في اعمال الارهاب الجماعي في السياسة الحديثة.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يكثر الحديث عن الماضي الكولونيالي والعولمة في اسباب ما حدث في ١١ ايلول (سبتمبر). لكن من المناسب والصواب هنا الاستماع الى ما قاله من اعلنوا انفسهم المنفذين ذاتهم. اذ لا يبدو انهم يبالون باللامساواة العالمية بما هي كذلك او بما حدث خلال الحرب الباردة في افريقيا او اميركا اللاتينية او شرق آسيا. وهم يكرهون حكامهم «المنافقين» ولكنهم يكرهون ايضا المسلمين الشيعة الذين يعيشون بين ظهرانيهم في العالم العربي والاسلامي (ايران، باكستان، افغانستان) ويضمرون، على اساس المتاح من الادلة، كراهية بغيضة ودفينة للمرأة. وعند قيادة تنظيم القاعدة فان تاريخ النزاع يعود ـ هكذا هم يقولون ـ الى ما قبل ٨٠ عاما: يعني هذا ان تاريخ النزاع يرتبط بأحداث غير محددة بدقة في الشرق الاوسط ابان العشرينات. والارجح ان يكون هذا اشارة الى الآثار الناجمة عن سقوط الامبراطورية العثمانية، بما في ذلك، كقائمة ممكنة لاحداث البداية، فرض الانتداب البريطاني والفرنسي في مناطق من العالم العربي عام ١٩٢٠ والغاء تركيا الخلافة عام ١٩٢٤ وتصاعد الهجرة اليهودية الى فلسطين. وهي يمكن ان تتضمن، ربما بصفة خاصة، قيام المملكة العربية السعودية عام ١٩٢٦. وفي صورة آنية اكثر، نسب قادة القاعدة بداية نشاطهم الى تاريخ حرب الكويت في ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ وتمركز قوات اميركية في اراضي المملكة العربية السعودية. وان تكون هذه النقطة سفسطة تعني ان الجزيرة العربية برمتها ارض مقدسة وليس مكة المكرمة والمدينة المنورة ومناطقهما المحيطة وحدها، فان ذلك لا ينتقص من دعوتها الايديولوجية. كما انها تتجاهل حقيقة مهمة بعض الشيء هي ان هناك اميركيين، اي مسلمين اميركيين في مكة، وايا تكن السوابق، وللمرء ان يرتاب بأن التاريخ ذريعة اكثر منه سببا، فالسوابق موجودة.

التطلع الى الامام، في اعقاب هذه الاحداث مباشرة، مهمة شاقة، فلا احد يعرف كم من البلدان ستنجر الى نزاع عسكري، ولا احد يعرف ما سيكون عليه حجم الصدام الثقافي ورقعته الجغرافية، ولا احد يستطيع ان يقيّم التأثير الابعد مدى في الاقتصاد العالمي، ولا احد يستطيع ان يقول على وجه التحديد كم من انظمة الحكم

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المهددة نتيجة ارتباطها بالغرب، ستكون باقية في غضون خمس او عشر سنوات على سبيل المثال. ان العالم اجمع، بلغات مختلفة وعلى مستويات عدة - استراتيجية، اقتصادية، سياسية، ثقافية، وجودية - يحلق تحليقا اعمى. مع ذلك يمكن توقع بعض الاشياء، فان سطوة الولايات المتحدة بوصفها قوة عسكرية واقتصادية وسياسية، لن تُدمر او يعتريها ضعف خطير في هذا النزاع. ١١ ايلول (سبتمبر) ٢٠٠١ لم يدمر اميركا، وما كان هدفه تدميرها كقوة بقدر ما كان يهدف الى تعبئة الدعم ضد حلفائها في الشرق الاوسط. وترتب على الحدث غضب الشعب الاميركي وتصميمه. وبصرف النظر عما يحدث لائتلاف الدول، الغربية وغيرها التي تؤيد اميركا، فان هذا الائتلاف سيصمد: التحالفات مرنة شأنها شأن الزيجات. وهي يمكن ان تصمد بوجه مواقف الرفض والاختلاف وما يغالى في تسميته بـ«التصدع في الحافات». الانحدار في الاقتصاد العالمي، الذي يمكن ان يدوم سنوات، سيواجه بادارة اقتصادية ماكروية (كلية) منسقة من جانب الدول المتطورة: يمكن ان يؤدي هذا الى تضخم نتيجة الدعم المالي والنقدي لاقتصاد في طور الركود، ولكنه لن يسفر عن انهيار. ويصح الشيء نفسه على الامن الداخلي: من الجائز تماما ان تكون هناك اعمال ارهابية اخرى، منظمة دوليا او مدفوعة محليا، داخل الدول المتطورة، ولكن هذه المجتمعات والدول ستصمد.

الوضع في مناطق اخرى اقل وضوحا. فبعض البلدان، التي وقعت في معمعات النزاع، يمكن ان تواجه غليانا. وفي العالم العربي فان ديماغوجية المواجهة الثقافية، تؤججها الانتهازية السياسية ولا مسؤولية المثقفين والقادة على السواء، ستكون مسموعة بدرجة كبيرة مضاهية وربما متخطية بكثير تشويه العلاقات الثقافية الذي يُسمع في الغرب. والدول التي لديها اجندتها الخاصة ستستغل الازمة لعزل خصومها، وتدميرهم حيث امكن ذلك، فيما تتظاهر بالتحالف مع الغرب في الحملة على الارهاب.

سيكون من باب العزاء الاعتقاد بأنه ايا تكن كلفة احداث ١١ ايلول (سبتمبر) ٢٠٠١، فان بالامكان احتواء تداعياتها وتعلم بعض الدروس منها. وقد يشك المرء في

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التوصل الى هذه الحصيلة بسهولة او بسرعة. فان جذر الازمة فكري من مظاهره غياب التربية الواقعية والثقافة الديمقراطية في طائفة من البلدان بحيث تطغى الكراهية اللاعقلانية ونظرية المؤامرة على النقد المشفوع بالعقل. وما يكرس هذه الازمة تقاعس ولامبالاة الكثير من العالم المتطور في مواجهة اللامساواة والنزاعات التي تحتدم خارج حدوده. ولا يمكن تذليل اي من هذه الظواهر الثقافية والنفسية العميقة وهي لن تذلل بطبخات سريعة.

سيكون العالم محظوظا اذا تجاوز آثار هذه الاحداث وعالج اسبابها في غضون مائة عام. وهذا، بالطبع، ليس زمنا طويلا في عمر التاريخ الانساني لكنه يشير الى ان جرعة قوية من التصميم والوضوح والشجاعة ستكون مطلوبة في الغرب كما في الشرق خلال السنوات القادمة. وفي المقام الاول سيكون التحلي بالعقل والاصرار على القيم والمعايير الكونية في التقويم ضروريا اكثر من اي وقت مضى. فالمركز يجب ان يصمد.

❖ الاصطفاف العالمي الجديد

❖ ثمة ردان متوقعان، وخاطئان على الدوام تقريبا، ازاء اي انفجار عالمي كبير: رد يتمثل في القول ان كل شيء تغير والآخر في القول ان لا شيء تغير. وقد سمعنا الكثير من الاثنين بعد ١١ ايلول (سبتمبر) ٢٠٠١، مثلما طرح قبل عقد او نحو ذلك الموقفان المستقطبان نفسهما بعد الزلازل التي وقعت حينذاك، وهي انهيار جدار برلين وحرب الكويت وتفكك يوغوسلافيا.

١١ ايلول (سبتمبر) لم يغير كل شيء: خريطة العالم بدولها الـ٢٠٠ او نحو ذلك والنمط العالمي للقوة الاقتصادية والعسكرية والتوزع النسبي للدول الديمقراطية وشبه السلطوية والاستبدادية يبقى نفسه الى حد كبير. والكثير من اكبر الاخطار التي تهدد العالم، والعديد من المشاكل الاكثر بعدا عن المعايير التقليدية لسيطرة الدول عليها (البيئة، الهجرة، تجارة المخدرات، مرض الايدز) تعود في تاريخها الى فترة طويلة قبل ١١ ايلول (سبتمبر). والمجتمعات الاربعون او نحو ذلك التي تمزقها الحرب،

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من كولومبيا الى فلسطين، ما زالت تمزقها الحرب. وبمعنى محدد اكثر فان بعض التغيرات التي باتت جلية بعد ١١ ايلول (سبتمبر) كانت اصلا في بداية ارهاصها: توكيد ادارة بوش لسطوة الولايات المتحدة وخطابية الصدام الثقافي الصادرة عن مجتمعات غربية واسلامية على السواء وتدخل الدول الاعضاء في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية لتفادي ركود متوقع. ولكن هذا الاقرار بالاستمرارية يقلل من الدرجة التي اعادت بها الهجمات على «وطن» الولايات المتحدة، تشكيل العالم الذي نعيش فيه، او تعد باعادة تشكيله. وأن يكون بعض هذه التغيرات ارتقائيا او اصلاحيا لا ثوريا او اطلاقيا فان هذا لا يقلل من اهميتها. بل يمكن القول ان الاصلاح، بقدر الثورة على اقل تعديل، هو الذي قام في الازمنة الحديثة بالدور الاكبر في اعادة تشكيل العالم. ما زال الوقت مبكرا، والصراع الذي سلط ١١ ايلول (سبتمبر) الضوء عليه لكنه لم يفجره، سيمتد به العمر سنوات طويلة، ولكن، باختصار، هناك على الاقل خمس طرق تغير بها العالم بعد ١١ ايلول (سبتمبر)، والعالم الذي كان بوسعنا ان نتوقعه لو لم يحدث ١١ ايلول (سبتمبر).

اولا، حدثت زيادة ملحوظة في تركيز السطوة الاميركية وتوكيدها. فالولايات المتحدة الاميركية كانت قبل ١١ ايلول (سبتمبر) القوة العالمية المهيمنة بكل المؤشرات الاساسية، مع استثناء جائز هو لعبة كرة القدم، ولكنها لم تكن واثقة كيف تفرض هذه السطوة، مترددة بين مقاربة متعددة الاطراف، كان يحبذها كلينتون، وعملت ادارته بتصميم على اعتمادها، والمقاربة الاحادية التي يفضلها بوش، وهي تختلف عن السياسة الانعزالية، وكانت بوادر هذه الاحادية بادية بما فيه الكفاية في الاشهر القليلة الاولى: رفض بروتوكول كيوتو والتسويف في تحرك منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية لوضع ضوابط على الاعفاءات الضريبية والتملص من اتفاقيات حظر استخدام الاسلحة الكيماوية ونظام الدفاع الصاروخي المضاد للصواريخ والاستهانة بالامم المتحدة على سبيل المثال لا الحصر. ١١ ايلول (سبتمبر) ارغم بوش على الرجوع عن بعض هذه السياسات والمماطلة في بعضها الآخر.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن الأهم، أن ما حدث دفع الكثير من بقية العالم إلى محاولة العمل على نحو أوثق مع الولايات المتحدة. وفي هذه الأزمة، جنت واشنطن ثمار سطوتها: عندما انطلقت الدعوة إلى التعاون كان رفضها صعباً. وهنا يكمن ثاني التغييرات الكبرى التي أحدثها ١١ أيلول (سبتمبر). فإن بعض حلفاء الولايات المتحدة ابتعدوا أكثر، خاصة المملكة العربية السعودية، لكن المحصلة الديبلوماسية العامة، كانت لصالح الولايات المتحدة. وعززت روسيا تعاونها الاستراتيجي والسياسي مع واشنطن واضعة نصب عينيها مصالحها الخاصة. والصين أيضاً، التحقت بركب الحملة على الإرهاب متسبّبة في قلق البعض في الشرق الأوسط، ممّن ينظرون إليها بوصفها العضو الدائم الوحيد في مجلس الأمن الذي ليس له ماض كولونيالي.

ولكن في مقابل هذا، تبرز النتيجة الثالثة التي أسفر عنها ١١ أيلول (سبتمبر)، وهي تعزيز ائتلاف عالمي من مشاعر العداء للولايات المتحدة بدرجة كامنة، لكنها لم تكن حاضرة قبل ١١ أيلول (سبتمبر)، فالأساس الذي يقوم عليه الكثير من النظرية الارثوذكسية في العلاقات الدولية، يتمثل بمفهوم «ميزان القوى»: يعني هذا اصطفاف القوى ليس اصطفافاً متكافئاً، بل وجود آلية تعدل نفسها بنفسها، فإذا أصبحت دولة قوية بإفراط تقيم دول أخرى تحالفاً مضاداً في مواجهتها. وقد حدث هذا رداً على نابليون في العقد الأول من القرن التاسع عشر، وعلى هتلر في أربعينات القرن الماضي. هذه النسخة من موازين القوى لم تكن صالحة في الفترة الممتدة منذ نهاية الحرب الباردة: لم تكن هناك كتلة مضادة من القوى العسكرية أو الاقتصادية، بل بدا أن الجميع يريد الانخراط في معسكر الولايات المتحدة ومؤسساتها الدولية ذات العلاقة مثل حلف شمال الأطلسي (الناتو) ومنظمة التجارة العالمية.

ولكن إذا كانت الدول تنساق، فإن الرأي العام لا ينساق. وعلى مستوى المشاعر الشعبية في عموم العالم، وليس في العالم الاسلامي وحده، فإن نوعاً من الثقل المضاد هو الآن قيد التكوين. ومن هنا، معارضة قسم كبير من أميركا اللاتينية لدعم الحملة الأميركية، والاعتراضات واسعة النطاق في شرق آسيا، وفي الهند

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعادية للمسلمين في الأحوال الاعتيادية. وإذ ترتبط هذه الظاهرة ارتباطاً رخواً بالعولمة فهي الأخرى لن تختفي بسهولة.

البُعد الرابع يرتبط بإدارة الاقتصاد العالمي، فإن ١١ أيلول (سبتمبر) بدفعه قطاعات هامة من السوق إلى الركود (الطيران، السياحة، النفط، التأمين) وإشاعته قدراً أوسع من عدم ثقة المستثمرين والمستهلكين، صعَّد الاتجاه البادي أصلاً نحو الكساد. وفي مجال الطاقة، تسبّب في هبوط الطلب على النفط ـ هناك الآن طاقة فائضة تبلغ نحو ٣ ملايين برميل نفط يومياً، فيما يبلغ إنتاج العالم نحو ٧٥ مليونا. ولم يتسبّب هذا في هبوط أسعار النفط دون أن يلوح في الأفق حد سيتوقف الهبوط عنده فحسب، بل أدى إلى حرب أسعار بين منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) والبلدان المنتجة الرئيسية غير الأعضاء في المنظمة (روسيا، النرويج، المكسيك).

على الجانب الاستهلاكي، تجدّد الاهتمام بتقليل الاعتماد على نفط الخليج الذي يضم ثلثي الاحتياط العالمي، ولكنه يُعدُّ الآن منطقة يسودها عدم استقرار دائم (البلدان المنتجة غير الخليجية، لا سيما روسيا ودول بحر قزوين وفنزويلا، تقدم نفسها بديلا). ويبدو أن روسيا نالت بعض ما تبغي، بما في ذلك تعليق أي مشاريع غربية لمدّ أنبوب من قزوين إلى تركيا بعيداً عن سيطرة روسيا. وتعرض دول حوض قزوين، وفي مقدمتها أذربيجان وكازاخستان، تعاونها العسكري والنفطي على الولايات المتحدة، ولكن أنظمة الحكم في هذه الدول ذاتها قد لا تكون بين الأكثر رسوخاً وتوطداً. أما فنزويلا فإن موقعها الاستراتيجي الأمثل في نصف الكرة الغربي يلغيه في الوقت الحاضر غضب الولايات المتحدة على سياسة الرئيس تشافيز الخارجية المستقلة التي اشتملت على توجيه النقد إلى الحملة العسكرية في أفغانستان.

التغير الاقتصادي الأهم هو، في المقام الأول، أن ١١ أيلول (سبتمبر) أعاد الدولة، لا سيما الدولة الأميركية، إلى إدارة الاقتصاد العالمي: الثقة الليبرالية الجديدة بالسوق، التي كانت أصلاً مزعزعة، ازدادت الآن تآكلاً بعدما وعدت حكومات العالم المتطور بدعم القطاعات المعتلّة واستخدام آليات التعديل المالي وخفض أسعار الفائدة لمواجهة الأزمة. أحد الأسئلة المفتوحة، هو كيف سيؤثر هذا كله في الانتقال إلى اليورو ابتداء من كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٢. فإن ميثاق الاستقرار ينوء من الآن بأعبائه ومن المستبعد أن يبدي الرئيس بوش قلقاً بالغاً مما يلمّ بهذا المنافس المفترض

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للدولار. ولكن اللافت بحق، هو قلب اتجاه سياسة الدولة في عموم الدول الأعضاء في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية من خلال تدخل المؤسسات المالية الدولية والدولتية.

بمفردات سياسة القوة على المستوى الإقليمي، فإن الإقليم الأشد تأثراً بما حدث هو منطقة غرب آسيا. ويبدو أن باكستان أفلحت في فكّ عزلتها والتخلص من ديون تبلغ مئات الملايين، بالانتقال إلى جانب الولايات المتحدة. وشريطة بقاء نظام الجنرال مشرف، وآفاق بقائه تبدو هذا الأسبوع أفضل منها قبل أسبوع، فإن باكستان ستكون قادرة على التمتع بتحسن العلاقات مع العالم الخارجي. وان استتباب الاستقرار في أفغانستان سيفتح أفق امتداد أنابيب النفط والغاز من آسيا الوسطى جنوباً إلى الموانئ الباكستانية. إيران أيضاً أفادت من التطورات الأخيرة: تحسنت علاقاتها مع بريطانيا وحتى مع الولايات المتحدة، والتقى وزير خارجيتها خرازي نظيره الأميركي كولن باول في نيويورك. إيران لا تريد السيطرة على أفغانستان أو حرق اصبعها هناك، ولكن انتصار التحالف الشمالي، الناطق بالفارسية في الغالب، منحها نفوذاً جديداً هناك، وفي آسيا الوسطى بصفة عامة. فهذه الإمبراطورية تردّ بضربات مضادة.

الوضع بالنسبة للعالم العربي يختلف بعض الشيء، فأي حملة جديدة ضد تنظيم القاعدة، ستتضمن القيام بعمليات مكشوفة أو خفية ضد شبكاتها في بلدين آخرين، الدولة فيهما ضعيفة أو غير موجودة، هما اليمن والصومال. والنظام العراقي، من جهته، يعرف أنه أيضاً قد يكون مدرجاً على قائمة المستهدفين بضربة أميركية: يبدو أن النجاح الذي تحقق في كابل شجع صقور الولايات المتحدة في هذا الشأن. وسيحاول الأوروبيون التخفيف من غلواء واشنطن، ولكن التحرك ضد العراق يجب أن يبقى احتمالاً قائماً. دول الخليج العربية أيضاً في وضع غير مريح إزاء تصاعد مشاعر التأييد لتنظيم القاعدة بين الشباب في السنوات الأخيرة.

أخيراً، ان السياق العام لهذه التغييرات، ولما كان حاصلاً في كل الأحوال، هو سياق العولمة. ففي حين أن ١١ أيلول (سبتمبر)، يتحدى بعض جوانب العولمة، وخاصة

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإحساس بتفاؤل عالمي متزايد في الثقافة والاقتصاد، وحرية الحركة للمسافرين والمهاجرين، فإنه أتاح أيضاً الفرصة لبحث نموذج من العولمة أكثر عقلانية، وبالتالي ربما يكون نموذجاً أكثر استدامة. وستوضع مؤسسات الإدارة المالية والاقتصادية العالمية الآن على المحك، وتُمنح دعماً سياسياً أكبر. وان طابعاً أشد إلحاحاً يمكن أن يُضفي على مناقشة تحرير التجارة العالمية وتوزيع الثروة توزيعاً أحسن، كما تبدى هذا التوجه في مؤتمر منظمة التجارة العالمية في الدوحة.

ولكن هذه القضايا السياسية تثار في سياق يحدد طائفة أخرى من السجالات والآراء التي تدور حول القيم. والأكثر بداهة بين هذه الاهتمامات هو مسألة الثقافة ومسألة القيم العامة أو النسبية. ١١ أيلول (سبتمبر) لم يحسم هذه المسألة، ولكنه وضع المحاجَّة النسبية أو الجماعاتية في موقف دفاعي: من جهة، الدعوى القائلة بوجود تفسير مذهبي أو تقليدي واحد للنص الإيماني دعوى مطروحة للتساؤل، كما أظهرت المناقشة العامة في الغرب وفي الشرق، ومن الجهة الأخرى، ان استحضار الاختلاف لشرعنة أعمال إجرامية أو إنكار المسؤولية والالتزامات الدولية بمفردات الثقافة أمر صعب بعض الشيء.

لقد حدث أيضاً تحول هام له صلة وثيقة بموضوعنا في أعقاب ١١ أيلول (سبتمبر)، يتعلق بمن المسؤول عن انتهاك حقوق الإنسان والدفاع عنها. ولفترة طويلة كانت الإجابة أن هذا هو مسؤولية الدول، ولكن «غير الدولة»، أكانت الأسرة والقبيلة والحي ومَنْ أعلنوا أنفسهم ممثلين للمسحوقين، كلهم مسؤولون عن الانتهاكات التي ترتكب ضد حقوق الإنسان، وفي أحيان كثيرة مدانون بارتكابها. والمناظرات التي تدور مثلا حول انتهاك قواعد الحرب أو العنف ضد المرأة أو العنصرية، سلّطت الضوء على مسؤولية الدول والمجتمعات مسؤولية مشتركة عن انتهاكات حقوق الإنسان.

كان هذا كله قد زاده صعوبة، قبل الهجمات على الولايات المتحدة وبعدها، النطاق المتّسع أبداً لما يُسمى «قضايا حقوق الإنسان»: الاهتمام بالحقوق السياسية للأفراد قابله التزام بالحقوق الاجتماعية والسياسية، وامتداداً لذلك بحقوق الجماعات

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أكانت أماً أم نساء أم أطفالاً أم لاجئين أو معوقين. يضاف إلى ذلك أن نطاق الاهتمام بحقوق الإنسان، والنشاطية في هذا المضمار، بات يشمل ما كان يعتبر في وقت سابق قضايا منفصلة تنص عليها اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩ الملزِمة للدول، والبروتوكولات الاضافية لعام ١٩٧٧ المتعلقة بالجماعات المعارضة، حول استخدام العنف استخداماً مشروعاً.

ولكن هذه المجموعة من القضايا الأخلاقية والحقوقية المترابطة أظهرت أنه في الوقت الذي لا يمكن لسياسة أن تغفل هذه المسائل، فإن اليقين بأن هناك إجابة بسيطة واحدة منطلقها حقوق الإنسان أو خياراً «أخلاقياً» واضحاً لا خيار سواه، قد يكون يقيناً مضللاً. فالعاملون في توزيع المساعدات الإنسانية، قد يتعين عليهم أن يرشوا أمراء حرب ومجرمي حرب مطلوبين بنسبة من المحروقات والغذاء والدواء. والمعنيون بحقوق الأفراد، لا سيما حقوق المرأة، قد يتعين عليهم أن يتجاوزوا ما يُفترض أنه قيم «أصيلة» أو «تقليدية» في الأديان والجماعات. والحق أن اتخاذ موقف أشد صلابة ونقدية من دعاوى الجماعة ذات الخصوصية والاختلاف قد يكون إحدى النتائج المرغوب فيها التي أسفر عنها ما أثاره ١١ أيلول (سبتمبر) من مناظرة أوسع حول حقوق الإنسان.

قيل الكثير عن التحدي الذي طرحه ١١ أيلول (سبتمبر) على العولمة. ويمكن الجدال بأنه أيقظ التفاؤل الليبرالي الذي كان في أساس العولمة، وخاصة ما يتعلق بالسفر الآمن، ولكنه قد يكون أيضاً تحدياً يستنهض التزاماً أقوى وأمتن بالعولمة. فهو كان تذكيراً لمن نسوا، في غمرة التفاؤل الليبرالي أو الكوزموبوليتي، أو في حمأة نقد راديكالي شبه فوضوي للمؤسسات العالمية، انه من دون أمن عالمي وأمن تصونه قوى قادرة وحازمة، لن تكون هناك عولمة على الإطلاق. والالتزام بالأمن العسكري، مقترناً بالتزام أوسع، لكنه لا يتزعزع بالقيم الديمقراطية والعلمانية، هو من مقتضيات أي مقاومة طويلة الأمد ضد العدوان الإرهابي. وهذه الرسالة الواعية لكنها تأتي في محلها، قد تكون إحدى النتائج الإيجابية للانفجار الذي وقع في خريف ٢٠٠١.

PDF created with FinePrint pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com